في جنوب الجزيرة العربية

مزين بالخرائط والصور والرسوم الفنية

تأليف

صلاح البكري

دبلوم معهد التربية للمعلمين (مصر)

الطبعة الأولى

١٣٦٨ — ١٩٤٩





عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطي اليافعي



صاحب السمو الأمير عوض بن صالح القعيطي اليافعي ولي عهد الحكومة القعيطية



عظمة السلطان جعفر بن منصور الكثيري السلطاني الحالي للحكومة الكثيرية



المؤلف

الإهداء

إلى قائد النهضة الحضرمية وراعيها

حضرة مولانا عظمة السلطان

صالح بن غالب القعيطي اليافعي

سلطان حضرموت . أطال الله عمره وأيد ملكه

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

يكاد يكون الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية مجهولا للعالم العربى والإسلامى .

والصورة العامة عند بعضهم أن حضرموت وعدن وما جاورهما من المحميات التسع بلاد صحراوية جافة ؛ وأهلها متأخرون يسكنون فى الخيام ، ويشتغلون بالرعى والانتقال وراء الإبل والأغنام سعياً إلى مواطن الكلأ والمرعى ، ولا شك أن هؤلاء لايعلمون أن فى حضرموت منازل طاعنات فى السماء سمتها مس فريا ستارك « ناطحات السحاب » وقال عنها المستر بودلى فى كتابه «The Messenger» « إن هندسة هذه المدن الآن ومن قرون قبل الآن أكثر شبها بهندسة نيويورك منها بالهندسة العربية » .

ولم يكن السبب فى ذلك عدم وجود كتب تتناول ذلك الجزء من النواحى السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية ، فهناك سياح من الألمان والإنجليز والهولنديين ذهبوا إلى حضرموت وكتبوا عنها الكتب الضخمة ، وأعيد طبع مؤلفاتهم مراراً .

ولكن لسوء الحظ معظمنا نحن الشرقيين لانهتم كثيراً ولا قليلا بدراسة الشعوب ، ولا نتطلع إلى الوقوف على نظمها وأوضاع حياتها ، حتى تلك الشعوب التى تستوطن على مقربة منا وترتبط بنا فى الدم واللغة والدين .

لقد كانت حضرموت موطن حياة زراعية مستقرة منذ أقدم العصور ؛ لأن تربتها من النوع الذى يحتفظ بالرطوبة ويختزنها بين ذراته من فصل إلى فصل ، كانت

جنة الله فى أرضه كما كانت موطناً للحضارات المعينية والسبئية والحميرية ، وقد استمرت خلال ما يقرب من ألف وخمسمائة عام قبل ظهور الإسلام ، وما تزال الآثار الباقية من الخزانات والسدود تدل على ذلك .

وعرب الجنوب ـ وعلى الأخص الحضارم ـ من أنشط الشعوب وأكثرها ولوعا بالمغامرات والأسفار ، نزحوا إلى أقاصى الدنيا منذ عهود واغلة فى القدم وكوّنوا لهم مراكز اقتصادية وأدبية ، بل وأقاموا دولا دامت قروناً متتالية . ففى القرن الثالث الميلادى هاجرت قبيلتا قضاعة وتنوخ وهى فرع من أزد إلى جنوب نجد ، ثم إلى ساحل الأحساء فحدود العراق الغربية حيث استقرت تنوخ وكونت دولة اللخميين ؛ وأهم مدنها الحيرة ، وانتقلت قضاعة إلى شرق الشام وكونت دولة الغساسنة ؛ ومن أهم مدنها بصترة ودمشق .

وفى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه هاجر كثير منهم إلى مصر[1] ، وأول من تولى القضاء منهم بمصر يونس بن عطية الحضرمى فى أيام عبد العزيز بن مروان سنة ٨٤ هـ ، وآخرهم لهيعة بن عيسى الحضرمى سنة ١٩٦ من قبل عباد بن محمد ، وعباد يومئذ يدعو للمأمون بمصر .

وعن محمد بن يوسف قال : حدثنى يحيى بن أبى معاوية قال : حدثنى خلف ابن ربيعة عن أبيه قال : ولى قضاء مصر تسعة رجال من حضرموت آخرهم لهيعة ابن عيسى ، وولى برقة جمع من حضرموت على قضائها . قال يحيى : آخرهم خير ابن سعيد بن خير . وولى على الأندلس معاوية بن صالح الحضرمى ، وعلى فلسطين ضمضم بن عقبة ، وعبد السلام بن عبد الله ، والنعمان بن المنذر ، وعلى حمص كثير ابن مرة ، وجبير بن نفير ، وعلى دمشق يحيى بن حمزة .

قال الشاعر :

لقد ولى القضاء بكل أرضٍ　　من الغر الحضارمة الكرام

(١) راجع الجزء الثانى من كتاب « تاريخ حضرموت السياسى » صفحة ٢٢٠ للمؤلف .

رجال ليس مثلهم رجال … من الصيد الجحاجحة الضخام

وقال يزيد بن مقسم الصدفى :

يا حضرموت هنيئاً ما خصصت به … من الحكومة بين العجم والعرب
فى الجاهلية والإسلام يعرفه … أهل الرواية والتفتيش والطلب

وفى الشرق الأقصى فى أندونسيا جنة الشرق استقر المهاجرون الحضارم وسيطروا على التجارة فى البر والبحر، وحكموا بعض الجزر، وقضوا على البوذية، ونشروا الإسلام.

هذا الشعب الذكى النشيط والمكافح المغامر، يجب أن نعرف الشيء الكثير عن حياته فى الماضى والحاضر .

لقد أتاحت لنا الظروف السفر إلى حضرموت فى صيف سنة ١٩٤٧ فقضينا هناك حوالى ثلاثة شهور اتصلت فى خلالها بكل الهيئات والأحزاب على اختلاف مشاربها ومبادئها ، وشاهدت بنفسى مظاهر الحركة والنشاط ، و بوادر التطورات العلمية والاجتماعية والسياسية .

ها أنذا أتقدم إلى القراء بما شاهدته بنفسى فى جنوب الجزيرة العربية وما لمسته من التطورات فى جميع نواحى الحياة . وقد تناولت بشىء كثير من الاختصار تاريخ حضرموت قديماً وحديثاً لنعطى من يهمه تاريخها فكرة واضحة عنها .

والله أدعو أن ينفع به . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب ؟

القاهرة فى ابريل سنة ١٩٤٩ … **صلاح عبد القادر البكرى اليافعى**

من القاهرة إلى عدن

كان الهدوء شاملا والجو معتدلا والقاهرة غارقة فى النوم ، وكانت النجوم تطل من السماء فتلقى علينا نوراً ضئيلا ، وتسللت بنا السيارة إلى مطار ألماظة فى تهاد و بطء كأنها تشفق أن يزعج صوت عجلاتها الضخمة الراقدين ، جلسنا جميعا صامتين وثقل هذا الصمت على صديقنا السيد حسن أحمد با كثير الذى انبرى للحديث عسى أن يحطمه ، ولعله أراد أن يدخل إلى نفسى السرور ظنا منه أنى أخشى السفر بطريق الجو، وكنت غارقا فى لجة عميقة من التفكير فانخفض صوته تدريجاً ، وماتت الكلمات على شفتيه وأطبق السكون مرة أخرى .

لم أكن نائماً ولا حالماً ولا هائماً حين كان السيد با كثير يحدثنى ، و إنما أنا يقظ كأقوى ما تكون اليقظة ، حاضر الذهن كأحسن ما يكون حضور الذهن ، ولست أخشى الطائرة ولا أخاف السفر فى جو السماء ، وكل ما فى الأمر أنى كنت فى ذلك اليوم شخصين مختلفين كل الاختلاف : أحدهما يظهر الفرح والمرح ، والآخر يظهر الكآبة والحزن ، و بعبارة أخرى كنت نهباً بين شعورين متعارضين الألم من فراق لمصر التى نشأتُ فيها وتعلمت فى معاهدها واشتغلت بالتدريس فى مدارسها ، والفرح بالسفر إلى حضرموت وطن الآباء والجدود .

انتحينا جانبا فى مقصف المطار ننتظر ساعة الرحيل ، فلما انبلج نور الصباح حلقت بنا الطائرة وراحت تشق طريقها فى جو السماء ، وأخذت مبانى القاهرة تختفى شيئا فشيئا وظهر النيل ينساب مسرعا نحو الشمال ، وعلى جانبيه المروج الخضراء وغابات النخيل السامقة تمد أعناقها نحو النهر الهادئ العظيم ، كأنها تقدم له عرفانها للحياة التى يهبها للكائنات على ضفتيه .

ولم يكن بالطائرة غيرى سوى اثنين من سويسرا ، ولم يكن بيننا تعارف قديم لنتبادل التحيات والحديث ، فأطرقت الرؤوس وأطبقت الشفاه وغرقت العيون فى لجة

عميقة من التفكير ، ولكن لم يطل هذا الصمت فقد جاءنا مهندس الطائرة و بدأنا بالحديث ، فدبت الحياة بالطائرة ورفرفت أجنحة الألفة فى جوها ، فلم نعد غرباء لانتبادل تحية وحديثا ، بل أحسسنا أننا أسرة واحدة تضمنا سفينة الهواء ، والتفت كل إلى صاحبه يعنى بأمره و يقص عليه نوادر حياته ومخاطراتها .

بعد ساعة هبطنا فى مطار الأقصر وتناولنا فطورنا ثم قامت بنا الطائرة إلى وادى حلفا ، وهناك فى المطار شرب كل منا قدحا من شراب البرتقال . كان الحر شديداً وكانت المناظر كلها صحارى قاحلة وتلالا ماحلة ، ولكن صعود الطائرة إلى أكثر من تسعة آلاف قدم لطف درجة الحرارة كثيرا . وفى الساعة الواحدة ظهرت مدينة الخرطوم عاصمة السودان ، وحامت الطائرة حولها قبيل هبوطها فى المطار ، ولم تكن على ارتفاع كثير ، لذلك استطعنا أن نشاهد شوارع المدينة ومبانيها وأكواخها . وليس هناك ما يجذب الأنظار سوى مبانى موظفى الشركة ، وعند ما هبطنا المطار استقبلتنا وجوه سودانية تضىء بالذكاء والنشاط واليقظة ، كانت الرحلة ممتعة ومريحة دون شك .

أسمرة

بعد حوالى ساعتين استأنفنا السفر ، و بعد لحظة اختفت أراضى الخرطوم الخصبة وظهرت قفار غبراء قاتمة ، وكانت طائرتنا تخترق السحب الكثيفة مرة وتعلوها مرة أخرى . دخلنا حدود أريتريا و بدت جبالها المكسوّة بالأعشاب تناطح السحب ، وسرعان ما هبطت درجة الحرارة ، يا لها من مناظر جميلة ، هضاب خضراء تتخللها مجموعات من المنازل البيضاء كأنها ركامات الجليد .

هبطنا مطار أسمرة ؛ و يقع فى إحدى ضواحى المدينة ، الجو بارد والنسيم عليل ، وكل شىء من حولنا جميل ، يا له من فرق عظيم . ففى الخرطوم ومنذ ثلاث ساعات شعرنا بحرارة شديدة وكان العرق يتصبب من جباهنا مدراراً . أما هنا فى أسمرة

عاصمة أريتريا ، فقد شعرنا ببرودة الجو وهبوب النسيم العليل ، لقد ذكرتنى أسمرة بجوها البارد وحدائقها الغناء ومروجها الخضراء بسوكابومى وقاروت فى جاوه الغربية .

بعد أن وضعنا حقائبنا فى فندق البرقو الإيطالى الجميل خرجت ورفيقى الإنجليزى ، وهو مهندس زراعى بالسودان ، خرجنا لنشاهد المدينة ؛ الشوارع واسعة نظيفة والمتاجر كثيرة ، ولكن معظمها يكاد يكون خالياً من البضائع لاسيا المنسوجات وأدوات الزينة ، ومما هو جدير بالذكر أن الإيطاليين وهم الأغلبية الساحقة يبدو على وجوههم البؤس والحزن ، ولعل ذلك يرجع إلى تأثير هزيمة إيطاليا فى الحرب ، ويلاحظ أن نسبة الجمال فى الإيطاليات هنا أكثر مما هو فى مصر ، ولكن تكسو هذا الجمال الرائع مسحة من البؤس وغمامة من الحزن ، ولعل هذا يرجع إلى رغباتها المكبوتة فى قرارة نفسها ، فهى تريد أن تتحدث عن جمالها وتبدى رشاقتها وخفة دمها ، ولكن لاسبيل إلى ذلك إلا باقتناء الملابس الفاخرة وأدوات الزينة ، وليس فى استطاعتها ذلك .

والمتسولون كثيرون ومعظمهم دون العاشرة من عمرهم ، جاثمون على أرصفة الشوارع فى حالة يرثى لها ، فدلائل البؤس الحقيقى فى وجوههم الذابلة وأجسادهم الضامرة النحيلة تنطق بالحرمان والعرى والجوع .

وكنا فى سيرنا متمهلين مترفقين نسعى قليلا لنقف كثيرا ، ونحن نمد أبصارنا إلى هذه الناحية أو تلك لنرى هذا المشهد أو ذاك من مشاهد الفن والجمال ، نمد أبصارنا فى هذه الناحية لنرى (الفيلات) الجميلة النظيفة ، ونمد أبصارنا فى تلك الناحية لنرى قطرات الندى تتساقط من أوراق الشجر فتتلقاها زهور جميلة تحمل ابتسامة الشمس ورقة النسيم ، وعذوبة الندى وهدوء الليل ، وربما انحنى أحدنا فجأة إلى الأرض لايحاول ركوعا ولا سجودا ، وإنما دعته هذه الزهرات النضرات من زهر العشب الذى ينبت فى أعقاب الغيث ؛ ولحسن الحظ أن لرفيقى الإنجليزى سابق عهد بهذا البلد جاءه مرارا ودرس فى خلالها أخلاق السكان ، وعرف الشوارع

والمتنزهات ، وليس هذا فقط ؛ فهو يعرف اللغة الإيطالية ولولاه لما استطعت أن أتفاهم مع هؤلاء القوم الذين لايعرفون الإنجليزية ولا الفرنسية ولا العربية ، وقد بلغنا قهوة من قهوات أسمرة الجميلة فتلقانا خادمها باسم الثغر مشرق الوجه ، يعرض علينا ما عنده فى إيطالية ، وما نكاد نجلس إلى قهوتنا ونقبل على قليل من طعام حتى ننظر ، فإذا المعوزون والمعدمون يتساقطون علينا من كل وجه كلهم جائع يريد أن يطعم ، وكلهم محروم يريد أن يعطى ، وكلهم قد ظهر فى وجهه البؤس وألح عليه الضرر .

العرب

وهؤلاء من أنشط الجاليات الأجنبية فى أريتريا وأكثرها خبرة بشؤون التجارة ويملك بعضهم أفخم المبانى فى أسمرة ، لقد جاء هؤلاء العرب من حضرموت ولم يكن لديهم شيء ، ولكنهم بذكائهم وعبقريتهم ونشاطهم استطاعوا أن يشقوا طريقا لهم فى الحياة ويخلقوا لهم مركزا اقتصاديا ممتازا يشار إليه بالبنان .

وفى أكتوبر سنة ١٩٤٧ عند عودتى من حضرموت إلى مصر مررت بأسمرة واستطعت أن أتصل ببعض الشخصيات البارزة من إخواننا الحضارم ، فاحتفوا بى أيما احتفاء وأظهروا نحوى من العواطف النبيلة والإحساس الرقيق ما أعجز عن وصفه ، وقد ألحوا فى بقائى أياما بأسمرة ، ولكن لسوء الحظ لم يكن لدىّ متسع من الوقت فلم أقم بينهم سوى ليلة واحدة ، ولقد أعجبنى ما شاهدته فيهم من التكاتف والتعاضد ، ولهم ناد فخم يجتمعون فيه للنظر فى مصالحهم العامة ، ولترقية حالتهم الأدبية والاجتماعية ، وقد زرت هذا النادى فأعجبت به ، وعلمت أن لهم مدرستين ابتدائيتين ومعهدا دينيا ، ولكن الحاجة إلى المدرسين شديدة .

عدن

وفى الساعة الثامنة صباحا ركبنا الطائرة ودارت محركاتها ، ودرجت فوق أرض المطار ثم ارتفعت حتى ارتقت السحب رويداً رويداً ، ولم ير الركب سوى جبال من السحاب تتراءى عن اليمين وعن الشمال ، ولم نسمع سوى زئير الطائرة يهزم الفضاء ، يدوى فيصم الآذان .

بعد ساعة أخذت الحياة النباتية تختفى حتى وصلنا إلى منطقة جافة ، و بعد أن اجتزنا البحر الأحمر ظهرت لنا جبال غبراء وسوداء ، وفى الساعة ١١ صباحا وصلنا مطار عدن ، وهو مطار متواضع جدا لايتناسب مع موقع عدن الجغرافى ، الحر شديد جدا ؛ فرياح السموم تهب علينا ، و إشعاع القفار الماحلة يلفح الوجوه ، يا له من فرق شاسع ، ففى مطار أسمرة ومنذ ثلاث ساعات كنا نرتعش من البرد ، أما هنا فالحر يزهق النفوس .

وتكاد تنقسم عدن إلى أربعة أقسام :

(١) عدن القديمة : وتحيط بها جبال شاهقة تتخللها كهوف يسكنها جماعة من قاطعى الأحجار والصيادين الذين يجلبون السمك إلى سوق عدن ، وأرضها منخفضة والضغط الجوى ثقيل ، والحر فى الصيف شديد . وعند ما ينزل المطر تتحول الشوارع إلى نهيرات ومستنقعات وكل الشوارع ضيقة ، ومعظم السكان هنا عرب من اليمن وحضرموت ولحج والعوالق و بضعة آلاف من الصومال واليهود والهنود .

والمتاجر على أوضاعها القديمة ، وتشبه إلى حد كبير المتاجر فى شارع الغورية بالقاهرة .

(٢) الشيخ عثمان : وهو مجموعة من منازل ومتاجر صغيرة .

(٣) المَعَـلَّى : و يتكون من منازل ومتاجر صغيرة ومخازن ، و يقع على البحر .

(٤) التَّوَّاهى : و به الميناء ، و يعتبر أنظف منطقة فى عدن ، وهواؤه معتدل و يسكنه بعض الأور بيين ، وجميع أقسام عدن تنار بالـكهر باء ، والمبانى ليست عالية ولا تحمل شيئا من الزخرفة ، ولا تبعث على شيء من الإعجاب ؛ فهى تشبه الثكنات العسكر ية ، وأسواق عدن تموج بالتجار من مختلف الأجناس ، ومما تجدر الإشارة إليه أن ملامح معظم العدنيين خليط من ملامح العرب وسكان شرق أفر يقيا ، ولهجتهم تختلف كثيرا عن لهجة العرب فى حضرموت ، ففيها كلمات عامية لاتحصى ، وهى لاتختلف كثيرا عن لهجة سكان لحج و يافع واليمن .

وتزدحم المقاهى فى المساء بروادها ، وكلها قذرة ماعدا بعض مقاهى التَّوَّاهى . وفى عدن دور للسينما كثيرة بالنسبة للسكان الذين لايز يد عددهم عن ٥٥ ألف نسمة ، ومعظم الأفلام التى تعرض مصر ية وهندية وروادها كثيرون جدا ، وقد يشاهد بعضهم الفيلم الواحد لاسيما الفيلم المصرى أكثر من ستين مرة ، ولذا فقد يمتد عرض الفيلم المصرى أكثر من خمسة شهور متتالية ، وقد قلد بعضهم عبد الوهاب وأم كلثوم فى أغانيهما .

والمتسولون كثيرون و بعضهم مصابون بأمراض جلدية ، والعجيب أن الـكثرة الساحقة منهم لاتثير رؤيتهم رحمة أو شفقة ، فعلى وجوههم سيماء الرذائل التى ينطوون عليها ، وعلى أبدانهم الصحيحة دلائل القوة التى تمكنهم من العمل الشر يف ، واكتساب الرزق من غير التسول والاستجداء .

والماعز والقطط والكلاب تجول طول يومها بمنتهى الحر ية فى التلال والوهاد ، وفى الشوارع والحارات ؛ والماعز عادة تأكل من الفضلات التى تجدها فى الشوارع وتقنع بقليل من قطع قشور الفواكه والقاذورات . وتطعم الجمال بعد الظهر إذ تجلس على شكل نصف دائرة ، بينما يجلس الجمال فى مواجهتها على مكان مرتفع كالمرضعة تقص حكاياتها على الأطفال .

ومن المبانى الأثر ية فى عدن « الصهاريج » والشىء العجيب ضخامة أحواضها

واتساعها، فهى تحوى من الماء أكثر من ثلاثين مليون جالون ، وقد أنشئت بواسطة إدارة حربية فنية ، وتاريخ إنشائها مجهول وربما بناها الحميريون .

ويقوم مسجد عيدروس (ولى عدن وحاميها) كما يزعم العامة فى ركن بعيد عن المدينة الحديثة ، وهو يعد تحفة فنية فى الداخل ، وعلى مقربة منه مقابر مؤسس المسجد وعائلته .

وهناك أسطورة يتداولها الجهلة ؛ وهى أن مؤسس هذا المسجد من الصالحين كان فى حاجة إلى الأخشاب لعمل الأبواب فوصلتهم هـذه الأبواب عائمة من الهند إلى شواطئ عدن .

الحياة الأدبية

ولا تزال الحيـاة الأدبية هناك فى مراحلها الأولى ، ولـكنها تخطو إلى الأمام بفضل شبابها الذى يبذل مجهوداته لتنمية ثقافتهم بوسائل شتى، والعدنيون يستوردون الصحف المصرية والمطبوعات العربية ، وهناك نواد وجمعيات إصلاحية وثقافية ، ولـكن نشاطها لسوء الحظ ضئيل جدا . وفى سـنة ١٨٧٠ كانت فى عدن مطبعتان إحداهما فى السجن لطبع النشرات واللوائح الحـكومية ، والأخرى خارج السجن . ومن المرجح أنها كانت تطبع كتباً عربية ، وفى سـنة ١٩١٤ ظهرت مطبعة ثالثة ، وربما كانت هناك مطابع أخرى ، وتصـــدر فى عدن منذ سنة ١٩٣٩ صحيفة عربية أسبوعية .

وهناك مدرسة ابتدائية فى المَعَلّى ، وأخرى ثانوية فى الشيخ عثمان ، ومدرسة ثانوية للمبشرين فى التَّوَّاهى وأخرى فى عدن ، والمدرسة الخيرية فى عدن . وهناك مدارس أخرى كالمعهد التجارى ، والمدرسة الإسلامية الهندية ومدرسة الحجراتى ؛ وبعض المدرسين من مصر والهند . ولعدن بعثات علمية فى مصر والعراق ، ومنذ خمس وثلاثين سنة اقترح الـكابتن دارنفولد فـكرة إنشـاء كلية لأبناء سلاطين

المحميات التسع ورؤساء القبائل وقد لقيت فكرته قبولا ، ومن وقت إلى آخر كانت الفكرة تخبو إلى أن جاء السير برنادر يللى حيث أخذت شكلا حقيقيا ، وابتدأ فى إنشاء الكلية ، واستعان السير برنادريللى بالمستر أنجرامس الذى كان مستشاراً للحكومة القعيطية بحضرموت ، واختار أنجرامس الثكنات الواقعة خارج عدن لتكون مقرا للكلية . وكانت فيما مضى مقرا لفيلق من الضباط الهنود واستعمل للمنفى ، وكان زعيم مصر سعد زغلول باشا منفيا فيها .

والغرض من هذه الكلية أو المدرسة هو تربية أبناء الأمراء ورؤساء القبائل وتنمية عقولهم وأجسامهم . وفى إبريل سنة ١٩٣٦ فتحت الكلية .

احتلال الإنجليز لعدن

ومنذ عهود واغلة فى القدم كانت عدن من أعظم الأسواق التجارية فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، وقد خضعت لدول كثيرة . ولما تراكمت مشاكل العثمانيين وضعف مركزهم وانكمش سلطانهم صار أمر عدن وأبين ولحج إلى يافع (١٠٤٠ — ١٠٥٣ هـ) وجاء صفى الإسلام أحمد بن الحسن اليمنى بجيش سنة ١٠٥٣هـ ، وهزم الأمير حسين بن عبد القادر اليافعى واحتل عدن ، ثم آل أمر عدن إلى العبادلة سنة ١١٤٥هـ .

وعند ما احتلت الحملة الفرنسية مصر سنة ١٧٩٨ م بدأ اهتمام الإنجليز بجنوب الجزيرة العربية واحتلوا جزيرة « بريد » سنة ١٧٩٩ ليقفلوا البحر الأحمر فى وجه الفرنسيين ثم أخلوها لرداءة جوها وقلة مائها ، وولت السياسة البريطانية وجهها شطر عدن .

واستطاع السير هوم بوبهام فى سنة ١٨٠٢ أن يعقد اتفاقا تجاريا مع سلطانها ، ولم يجد الإنجليز مكاناً أصلح لتموين بواخرهم من عدن ، فاتفقوا فى عام ١٨٢٩ مع سلطان لحج على استعمال عدن محطة للفحم ، واستغل الإنجليز حادثة السفينة

(داريا دوات) أبرع استغلال ، فقد جنحت هذه السفينة فى يناير سنة ١٨٢٧ على مقربة من ميناء عدن ، وكانت ملك السيدة بيجم بنت أخت النواب الكارناتيك وكان العلم الإنجليزى يرفرف عليها وبها شحنة كبيرة تقدر قيمتها بعشرين ألف جنيه، فجاء إليها جمع من الأعراب وسطوا على البضائع ونهبوا ركابها ، وادعى الإنجليز أنه كان على رأس المهاجمين أكبر أبناء سلطان لحج ، وعلى أثر ذلك قدم السير روبرت جرانت حاكم بمباى تقريرا هاما ؛ ومما جاء فى هذا التقرير « إن تأسيس خطوطنا البحرية فى البحر الأحمر وتكوين أسطول صغير من البواخر المسلحة تجعل من الضرورى إيجاد محطة تابعة لنا على ساحل بلاد العرب ، كما هى الحال فى الخليج الفارسى ، ثم إن الإهانة التى ألحقها سلطان عدن بنا تجعلنى لا أشك لحظة فى شدة حاجتنا إلى امتلاك عدن » .

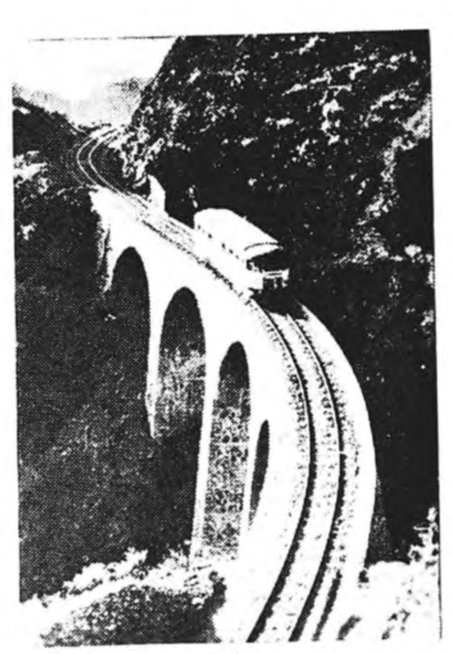
وفى ٢ فبراير سنة ١٨٢٨ تم الاتفاق بواسطة الكابتن « هينز » على أن يتخلى السلطان عن عدن للإنجليز فى مقابل مبلغ كبير من المال ، ولكن حدث ما لم يكن فى حسبان الكابتن « هينز » إذ عارض ابن السلطان فى الاتفاقية التى عقدها أبوه . وفى الوقت الذى استعد فيه الكابتن «هينز» للنزول بجنوده علم أن مؤامرة دبرت له حتى يستعيد السلطان الاتفاق الذى مهره بخاتمه ، وأن السلطان نفسه وقع تحت تأثير ابنه وأقاربه وأنه قرر المقاومة بكل ما لديه من قوة ، فأبحر هينز إلى بومباى .

وعند ما عاد هينز فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٢٨ تحرش العرب بالسفن الإنجليزية فتراجع هينز إلى جزيرة صغيرة ينتظر الإمدادات حتى وصلت إليه فى ١٦ يناير سنة ١٨٢٩ . وفى خلال يومين احتل هينز عدن .

ولا شك أن احتلال الإنجليز لعدن ضربة موجهة إلى محمد على باشا لإرغامه على الانسحاب من اليمن ، وفى الوقت الذى كان إبراهيم يكن باشا قائد الحملة المصرية فى اليمن يعمل على توطيد الحكم المصرى ، كان الكابتن هينز يتصل بمشايخ القبائل المجاورة لعدن ، والتى خضعت للحكم المصرى متوددا إليهم بالهدايا والمرتبات ، وشرع



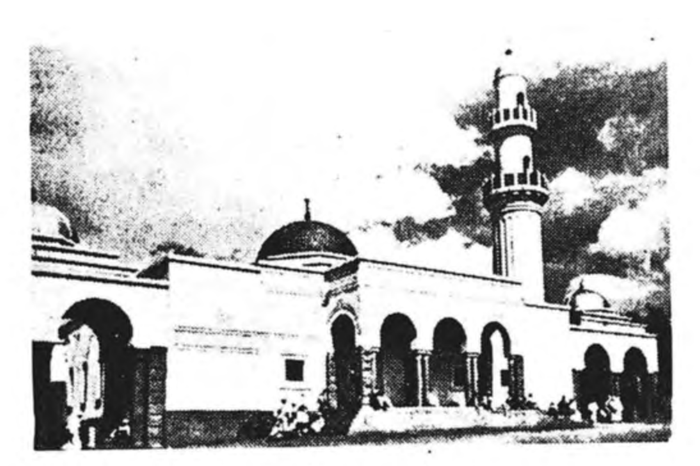
أحد شوارع أسمرة



فى أسمرة



منظر عام لمدينة أسمرة



أحد جوامع أسمرة



أحد شوارع أسمرة

عـــدن



التواهي (عدن)



الشيخ عثمان (عدن)



ميناء عدن

يحرضهم على عدم دفع الزكاة المفروضة عليهم لحكومة اليمن المصرية ، ولقد نجح إلى حد كبير .

وخاف محمد على باشا أن يقوى نفوذ الإنجليز ويمتد سلطانهم ، فكتب إلى إبراهيم يكن يستفسر عن صلة الإنجليز بالعرب ، ويطلب إليه عدم السماح بإرسال أحد من الصناع وأرباب الحرف من مخا إلى عدن ، وقبيل أن يتسلم إبراهيم يكن باشا الأمر السامى بعث إلى محمد على برسالة يقول فيها : « إن القائد هينز الذى احتل عدن مقيم بجوار الأماكن التى ألحقت حديثا بالحكومة المصرية ، وقد أخذ يقوى مشايخ بعض المراكز والقرى ، ويتودد إليهم ويجتذب قلوب الذين يتبعونه بالكسوة والمرتب ، وإن سلوكه هذا يؤدى إلى حدوث خلل فى المصالح المصرية فى اليمن » .

ونشط إمام صنعاء عبد الناصر لدين الله فى العمل لتقوية العلاقات بينه وبين محمد على باشا ، فقد أوفد رسولا من قبله هو السيد عبد الرب إلى أحمد يكن باشا حاكم الحجاز ليسهل له السفر إلى مصر للتفاهم مع محمد على .

وما كانت تلك الحركات لتخفى على السياسة الإنجليزية التى بثت عيونها فى اليمن خوفا من انضمام اليمن كله إلى الأمبراطورية العربية الكبيرة التى كونها محمد على ، ولا سيما أن بعض البلاد العربية بدأت تتجه إلى مصر .

فكانت ترد إلى محمد على تقارير من حضرموت وغيرها يطالب أصحابها بالانضمام إلى الحكومة المصرية التى بدأ ينشئها إبراهيم يكن باشا فى اليمن . وكان أهم هذه الرسائل رسالة حضرموت المحفوظة بدار المحفوظات الملكية بعابدين يطالبون فيها بإرسال موظفين وجنود لتنظيم أحوال حضرموت وإعادة الأمن إليها ، وكان على رأس موقعى هذه العريضة على بن عمر بن سقاف ، وسالم بن حماد باعبيد ، ومحسن ابن علوى .

ووردت التقارير على وزارة الخارجية البريطانية من قناصلها فى الشرق بأن محمد على سيرسل جيوشه لاحتلال مدخل البحر الأحمر عند باب المندب وسواحل

(٢)

حضرموت ، فكتب بلمرستون إلى القنصل الإنجليزى فى مصر «الكولونيل كامبل» ليقابل محمد على باشا ويخبره بأن مثل هذه الخطوة لاينظر إليها بعين الرضا فى انجلترا أو فى الهند ، وأكد محمد على لكامبل أنه لايفكر فى التوسع خارج البحر الأحمر ، ولا يبغى امتداد أملاكه شرق صنعاء ، وعند ما تعقدت المشاكل بين محمد على وسلطان تركيا ، واستحكم النزاع وثارت الحرب طلب بلمرستون من محمد على جلاء الجيوش المصرية عن اليمن بأجمعه ، فأجابه الباشا « سأضع هذا الطلب موضع النظر عند ما تفرغ الدول من بحث المسألة الشرقية » .

ولقد ذكر الكولونيل كامبل فى رسالته إلى بلمرستون أن الباشا لم يذعن لهذا التهديد ، وأراد اكتساب الوقت بقوله : « لست أستطيع فى الوقت الحاضر اتخاذ الإجراءات للجلاء عن اليمن ، ولكنى سأصدر أمراً إلى بوغوص بك بإرسال رد على طلب وزير الخارجية الإنجليزية » .

وشاءت السياسة الدولية إذ ذاك أن تقف موقف العداء من محمد على ، فاضطر إلى سحب جيشه من اليمن فى فبراير سنة ١٨٤٠ وتسليم أقسامها المختلفة إلى بعض شيوخها الأحرار .

وهكذا خدمت الظروف الإنجليز فتوطدت أقدامهم فى عدن .

فى جنوب شبه الجزيرة العربية حوالى خمسين من أمراء ورؤساء المقاطعات المختلفة ، وأهم الحكام سلطان الشحر والمكلا وسلطان لحج ، ويليهما فى الأهمية سلاطين يافع العليا والسفلى ، والكثيرى والفضلى والحشابى ، وأقل هؤلاء مشايخ يحكمون مناطق من الأرض محدودة ، وكان على رؤساء القبائل زيارة عدن مرة فى السنة ، وكانوا يأتون ومعهم عدد من أتباعهم وخدمهم ودوابهم ، ويقضون أياما على حساب حكومة عدن .

وكانت اضطرابات القبائل ومشاحناتها والإخلال بالأمن كل ذلك كان يأخذ وقتاً كبيراً من حكومة عدن ، وكقاعدة عامة كانت هذه الأمور تعالج بتحرير كتب

إلى رؤساء القبائل وبإرسال هدايا لهم ، وفى عهد السير برناردللى تغيرت الأوضاع فمنعت الهدايا وخطابات التوصية ، واكتفت حكومة عدن بالعمل لإنشاء السدود والإكثار من الزراعة ، و إنشاء المدارس ، ومراكز الشرطة ، و إقامة المستوصفات فى المناطق الموبوءة .

وتختلف كل مقاطعة عن الأخرى فى أنظمتها السياسية وأوضاع حياتها ، ففى المقاطعات لرئيس القبيلة كل النفوذ وهو المرجع الوحيد فى كل شىء ، وفى جهات أخرى ما هو إلا صورة يحكم ما دامت قبائله راضية عنه ، ومعظم الأحكام عرفية . وتوجد فروق اجتماعية بين طبقات الناس ، فهناك حملة السلاح و يعرفون بالقبائل ومن هؤلاء الأمراء والرؤساء والحكام ، وألقابهم سلاطين أو مشايخ أو نقباء ، ولقب شيخ أشهرها استعمالا فى البادية .

وطبقة الروحانيين ثم التجار والزراع وأصحاب الحرف .

وللقضاء عند بعض قبائل البادية طريقان : التحكيم والامتحان القاسى .

ومعنى التحكيم أن أى شخص مدين أو مرتكب جريمة يمكنه استحضار عشرة أشخاص ليقسموا له بصحة ما يعرفونه عن القضية .

وطريقة الامتحان القاسى هى الطريقة الهامة ، يحلف المتهم أولا ببراءته وله بعد ذلك أن يختار أحد الأمرين :

الامتحان بالنار و يسمى عندهم (البيشا) .

أو (قطعة العذاب) وهى عبارة عن قطعة يابسة من الخبز يطلب من المتهم بلعها فإن بلعها بسهولة فهو برىء ، و إن وقفت فى حلقه فقد ثبتت التهمة عليه ، وكل جرح له دية ، فالذى كسرت ذراعه أو فقدت ساقه أو قطعت أذنه تدفع له دية تتناسب مع مقام المجروح . و بين هذه القبائل أصبحت الحياة رخيصة . وتوجد بين حكومة عدن و بين بعض الرياسات القبلية معاهدات لحماية الطرق ، ومن أجل هذا تدفع الحكومة لهم مبالغ معينة من المال شهريا .

الأصابح

ويقال لهم الأصبحيون: بطن من حمير يعيشون فى الصحراء وعلى سفوح الجبال والتلال الواقعة بين إمارة العِبْدِلِّى ومقاطعات باب المندب غربى عدن ؛ ويحمل بعضهم السلاح ، الأمر الذى دفعهم إلى تمزيق وحدتهم إلى طوائف كل طائفة تنازع الأخرى فى البقاء ، وتتوقف حياتهم على زراعة بعض الحبوب بمياه الأمطار ، وهى لاتقوم بحاجتهم الضرورية ، ولذا يشتغل بعضهم بنقل البضائع من بلد إلى آخر .

ويعتبر الأصبحيون سلطان لحج زعيمهم الأكبر يخضعون له أكثر مما يخضعون لشيخهم ، ويعبث بعضهم بالأمن ينهبون قوافل القات التى تأتى من اليمن فى طريقها إلى عدن ، والقات شجرة تنمو فى اليمن ويهتم اليمنيون بزراعته كثيرا ، ومضغه ليس هو تسلية أهل اليمن فقط ، بل وأهالى عدن أيضا ولا أثر له — والحمد لله — فى حضرموت ، وتجارته رابحة لكثرة عشاقه ، وتكاف الحزمة المكونة من ستة أغصان حوالى ١٢ عانة ، ولكنّ المولعين به يصرفون أكثر مما يصرفه المدخنون فى السجائر ، وحين كنت فى عدن مضغت ورقة منه مندفعا بحب الاستطلاع فشعرت بأنه قذارة ، ولكن عند ما يتعوده الإنسان يجعله يشعر بنكهة غريبة تدوم ما دام الشعور غير مفقود ، وهو كما يزعم بعضهم ينبه الشعور و يرهق الذكاء ، و إنى لأعرف أن أكثر المدمنين على القات فى أشد الحاجة إلى شحذ ذكائهم ، ونتائجه لاتدوم إلا وقتاً قصيراً ، وأحب الأيام لتعاطيه هو يوم الجمعة وذلك عند ما يجتمعون ، فكل منهم يذهب إلى مكان الاجتماع حاملا معه حزمة من القات ، وكل ما يعمله المضيف إحضار المبصقات ، و بعد حوالى ساعة تبدأ النكت والقصص ، ويا لها من قصص يرويها الصيادون وغيرهم ، ومجالسهم تشبه إلى حد كبير مجالس الصينيين المدمنين على الأفيون .

ويجب أن يكون القات طازجا وإلا فإنه عديم النفع وتجمع غصونه فى الصباح المبكر وتحزم داخل حشائش وأغصان خضراء لحفظه طازجا ، وتحمل هـذه الحزم على ظهور الجمال كل حمل ٣٠٠ حزمة ، وتصل القافلة إلى لحج فى الصباح الثالث إذا واصلت القافلة سيرها ، وفى عدن تحمل فى سيارات .

الحواشب

وتقع المسيمير عاصمة بلاد الحواشب على بعد خمسين ميلا تقريبا من عدن، والأمن بينها و بين لحج مضطرب، لذلك يجب على المسافر فى هذه المنطقة أن يستصحب بعض حملة السلاح لحراسته ، وتشغل الكثبان الرملية بضعة أميال ، وتوجد حقول الذرة والنخل فى وادى تيبان ، وتقترب التلال بعد ذلك و يصبح سطح الأرض حجريا ، وفى منطقة عارية جرداء يقوم حصن العناد ، وقد أخذت عوامل التعرية تهاجمه ولابد أن يأتى يوم يصبح فيه كومة من الثرى ، وفى وادى تيبان تكثر المرتفعات والمنخفضات ، وتعتبر هذه المنطقة من أخطر المناطق، ومن المناظر الرائعة جبل وارواح وهو جبل أخاذ يشعر الإنسان نحوه باهتمام خاص ، وصورته موجودة فى الكتب العربية التى تدرس فى معهد الدراسات الشرقية بلندن ، وعدد الحواشب لايزيد على عشرة آلاف نسمة ، ويحكمهم السلطان محسن بن على بن نافع الحوشبى ، وهو ذو شخصية قوية ، ويخضع له قومه خضوعا تاما ، ويلبس السلطان فوطة يلفها حول وسطه إلى الركبتين و يضع على كتفه رداء وعلى رأسه عمامة ذات ألوان فاتحة ، وفى وسطه حزام به خنجر ثمين .

والمبانى فى مسيمير من الطوب النىء ماعدا قصر السلطان المبنى من الحجر الأصم ، والطابق الأول منه يستعمل للسجن ، وغرفة الضيافة مستطيلة ضيقة بها منضدة سطحها من الرخام وحولها بضع كراسى ، وأرضية الغرفة مغطاة بالحصير والسجاجيد ، وفى جوانبها مخدات مغطاة بقماش من الحرير اللامع . وللسلطان حدائق جميلة بها

نواع كثيرة من الفواكه ، و يملك أطياناً كثيرة يزرعها ذرة ونخلا ، والحر شديد ولذلك ينام الأهالى فى سطوح المنازل صيفا ، و يكثر عواء الكلاب ونهيق الحمير فى الليل ، ولكن الناس هناك لا يكترثون لذلك . ومن الأمراض الشائعة الرمد الحبيبى وحمى الورد ؛ والكىّ أهم طريقة للعلاج عندهم ، وتكثر الأفراح والسهرات فى الصيف فى الليالى القمرية ، والحواشب مولعون بالرقص على دقات الطبول . ولون الحواشب يميل إلى السواد وشعرهم خشن و يكاد يكون مفلفلا ، ولعلهم يمتون بصلة إلى الأحباش الذين غزوا الجنوب الغربى من بلاد العرب فى القرن السادس بعد الميلاد وطردوا منها سنة ٧٥٠ م ، ولكن لبعضهم ملامح أكثر دقة ، والحواشب يحبون العمائم الزرقاء و يلفون حول وسطهم فوطة و يثبتونها بحزام مملوء بالخراطيش .

الضالع

آل قطيب : تبعد الضالع عاصمة القطيبيين عن عدن بنحو ٣٥٠ ميلا ، وتوجد هناك محطة لاسلكى على مسافة ٤٠ دقيقة بالطائرة ، وليس هناك مطار منظم ولكن هناك مساحة من الأرض مسطحة ممهدة على ارتفاع ٤٠٠٠ قدم من سطح البحر ، وآل قطيب من القبائل الضارية على طريق اليمن ، وكانوا ينهبون القوافل بالقوة ، وقد عانت حكومة عدن الأمرّين فى إخضاعهم ، وفى قطع دابر قطاع الطرق منهم ، والضالع من المحميات التسع و يدعى حاكمها حسن على ؛ وهو قصير القامة يلبس إزاراً إلى الركبتين وفى وسطه حزام ، و يلبس جاكتة وعمامة على الطراز الهندى ، ولكنها غير مرصعة بالجواهر و يساعده فى الحكم عمه مقبل ، ولهذا وجه جذاب وشخصية قوية وقد اشتهر بالدهاء والمكر ، وهو الذى أثار الحرب بين آل قطيب و بين حكومة عدن ولم تستطع الحكومة إخضاعهم إلا بعد أن ألقت عليهم القنابل بالطائرات . ومن يبحث عن مصدر معظم الاضطرابات بين القبائل يجد سببها مطامح الرؤساء .

بلاد الفضلى

تتكوّن أراضى الفضلى من جزء كبير غربى عدن ، وتمتد على طول الشاطئ من عدن إلى مساحة كبيرة ، وخلفها وخلف الجزء الغربى منها تقع بلاد يافع ، وتشغل الواحات الخصبة جزءاً صغيراً من منطقة أبين فى إمارة الفضلى . وأهم الغلات الذرة والنخل و بعض الفواكه ، و يعتمدون فى رى الأراضى على مياه الأمطار التى تسقط صيفا على جبال يافع وتنحدر فى نهر النازى وفروعه . وتقع العاصمة «شُقْرَا» على ساحل رملى و بها قصر السلطان ، و يبلغ السلطان عبد القادر بن حسين الفضلى حوالى السبعين من عمره ، وأولاده أقوى شخصية منه ، وهو عديم اللحية تقريبا ، وشعره غامق مجعد ، وعمامته معقودة كضفيرة من أكاليل النصر ، و يلبس قميصا موشى بخيوط خضراء فاتحة ، وفى وسطه فوطة تشبه مايلبسه الإسكتش ، وعمامته على الطراز الهندى ولونها أخضر مائل إلى الحمرة ، وتختلف هيئة شخصيته عن أولاده كل الاختلاف ، وأبرز أبنائه حسن و يبلغ من العمر حوالى العشرين ، وشخصيته قوية مملوءة شرفا وعزة وطيب أخلاق ، يحترمه كل أفراد الأسرة حتى إخوته الذين يكبرونه كثيرا ، تعلم القراءة والكتابة فى مدرسة الأمراء بعدن .

و يبدو « صالح » الابن الأكبر للسلطان ذا وجه ملىء بالشخصية والقوة ، تنم نظراته عن الجد والحزم والهدوء ، وكل الذى يلبسه قطعة من القماش حول وسطه ، و يربط حول شعره المجعد الأسود قطعة من القماش المصبوغ ، وهو بالطبع أصلح وأكفأ للحكم من أبيه ، ولكن قضت العادة فى بلاد العرب أن يخضع الأبناء للآباء خضوع العبيد لأسيادهم ، وقد يحدث نزاع بينه و بين أبيه بسبب إصرارهم على التمادى فى النزاع القائم بينهم و بين يافع الذى استمر أكثر من ثمانين عاما ، ومنشأ هذا النزاع والخلاف قناة النازى التى تخرج من نهر يانا فى أراضى يافع ، وتشق طريقها فى أرض الفضلى ، واتفاق سنة ١٨٧٢ يمنح الفضليين حق إمدادهم بالماء بواسطة

اليافعيين ، وليس من شك أن الفضليين يحبون أن يأتيهم الماء بدون انقطاع لري أراضيهم . وأدرك اليافعيون أنه لابد أن ينفذ الاتفاق ولكن تاريخ المشكلة معقد ؛ وفي الفريقين أفراد دأبهم المشاغبات ، ولذلك استمرت الإغارات على الجمال والأغنام بالرغم عن الفترات من الهدنة التي كان سلطان لحج يعقدها بينهم ، وأخذت حوادث القتل مكانها في مساحة مستديرة من ـ حيد جليمة ـ وهو تل يقع في حدود الفريقين ومنذ خمسة وعشرين عاما اتفق الفريقان على أن يعطى اليافعيون الفضليين ماء قناة النازي نظير مبلغ من المال وكمية من البلح سنويا ، وقد نفذ هذا الإتفاق وانقطعت المشاغبات ، ولكنها عادت بعد بضع سنين . وفي سنة ١٩٢٩ عقد بينهم صلح بواسطة سلطان لحج على أساس المعاهدة السابقة ، ولكن هذا الصلح لم يستمر طويلا وهكذا صارت مياه النازي سببا للاضطرابات والقلاقل ، وقد سماها المستر إنجرامس ـ وقد ذهب إليهم سنة ١٩٤٠ للصلح ـ « المياه الصاخبة » .

براميس

وهذه المقاطعة خاضعة للفضليين ، وتقع في وادي مثوان شمالى بلاد الفضلى على مقربة من جبال جدم بقممها الكثيرة ، ويخترق الطريق وادى رخامة العميق المحفور في صخور بركانية سمراء ، وفي وادي مثوان تصبح الأرض مسطحة تماما تعلوها طبقة من الرمل ، وهناك تنبت أشجار ويأخذ الأهالى وقودهم منها بعد قتل الثعابين الرقطاء التي تكثر في أوراقها . وهناك مجموعة من المنازل الصغيرة يسكنها جماعة قد أنهكهم الجوع والحرمان فأصبحت أجسامهم نحيلة كأنها الشجر المسلوب ؛ ويأخذ الطريق في الصعود ، وتنمو الأعشاب على جانبي التلال والوهاد ، وتأخذ الجبال منظر المتدفق حين انصهارها ، وفجأة تصبح كالبلاط وكل الطبقات العليا تهبط نحو الأرض في زاوية مقدارها ٤٥° ، وبعد ساعتين يظهر وادي براميس بمياهه الجارية وأعشابه الخضراء وحقوله الخصيبة . وأهم الغلات الذرة والبلح والمواشى ، والسكان مشهورون بالكرم .

والسلطان حيدرة رجل طاعن في السن قد تساقطت أسنانه وضعف سمعه ، ولكنه نشيط مرح ذو ابتسامة كابتسامة الأطفال . وتقع الروضة على الضفة اليمنى لوادي براميس ، ويقيم السلطان وأولاده وحاشيته فى دار متواضعة بالروضة مكونة من عدة غرف، إحداها يستعمل المحكمة وأخرى للضيافة، وهذه مفروشة بالحصر والسجاجيد، وليس للشبابيك زجاج وتبقى دائما مسدودة .

ويحكم السلطان حيدرة مقاطعة براميس ، ونظام حكمه يشبه إلى حد بعيد نظام الإقطاع، وهو كما ذكرنا خاضع للفضلى ، ولكنه كثيراً مايتمرد ويخرج عليه ، وعلى الحافة الثانية للوادى يقع بيت ابن أخيه يعبل بن حسين ويقيم معه أخوان له ، والمنازل لاتبعد أكثر من مائة ياردة ، وتنازع يعبل وأولاده مع عمهم وأبناء عمهم ، واشتد الخلاف ، فلو خرج عمه أو خرج أحد مواشيه من سور الدار فإن يعبل يضربها ببندقيته ، وبالعكس لو أن يعبل اجترأ فى وضح النهار وخرج من منزله فإن عمه وأولاد عمه يضربونه بالرصاص ، ولذا رأى أصحاب المتاجر أن الحياة لاتطاق بين هؤلاء المتنازعين فغادروا الروضة بمتاجرهم فخمدت الحركة وركدت الزراعة وانتشرت المجاعة . وفى شهر يونيه سنة ١٩٣٤ استطاع المستر أنجرامس أن يصلح بين الفريقين فهدأت الحال واستعادت الروضة نشاطها الاقتصادى والزراعى وخلت من نباح الكلاب التى كانت تأكل الرمم .

يافع

وهم سلالة يافع بن زيد بن مالك بن زيد بن رعينى الحميرى ، ومنهم مبرح ابن شهاب بن الحارث بن ربيعة بن سعد بن شحيت بن شرحبيل بن حجر بن عمرو ابن شرحبيل بن عمر بن يافع الرعينى الصحابى، وهو أحد وفد رعينى الذى هبط مصر وكان ميسرة عمرو بن العاص يوم دخل مصر . وهناك علماء محدّثون من يافع منهم

عبد الله بن موهب وعبد الله بن سعيد بن الصعبة وغيرهما . ومن متأخريهم قطب الحرم المكى عبد الله بن سعد اليافعى نزيل مكة .

جاء فى التاريخ أن مرتا القبطية وجدت نفسها أمام جثة رومانى فى بيتها فوقفت واجمة وتوجهت بصلاتها إلى الله أن ينقذها من موقفها الحرج ، فبينما هى فى صلاتها إذا بالباب يفتح بعنف ، و إذا بصوت أجش مرعب : لقد قتلت هذا الرومانى أيتها المصرية الخائنة. فانتفضت مذعورة ، و إذا بها أمام جنديين رومانيين يهددانها ، فتراجعت إلى الوراء ، وفى تلك الساعة الحرجة دخل من الباب عربى كالح الوجه براق العينين ، فى يده سيف يقطر دما ، وما إن وقع نظره على الجنديين الرومانيين حتى وثب صائحاً : لن تفلتا منى ورب الكعبة فأغمى على تلك المرأة ، و بعد أن أفاقت وجدت نفسها مستلقية وعلى مقربة منها ثلاث جثث والأعرابى جالس إلى جانبها ، ذلك الأعرابى هو حسان بن زياد اليافعى الذى التحق هو وأخواته وأبناء عمه بجيش عمرو ابن العاص ، واجتازوا نهر النيل فى طليعة جيش المسلمين وركزوا العلم فى الضفة الغربية للنيل ، ومنذ ذلك اليوم سميت تلك المنطقة « الجيزة » وهذا الجيش هو الذى كان الخليفة عمر بن الخطاب يعنيه عند ما كتب لعمرو بن العاص يقول لاتجعل بينك و بين قومك بحرا فابن سوراً يحمى المسلمين فى جيزة الفسطاط ، وقد أراد عمرو أن ينزل عند رغبة أمير المؤمنين ، ولكن اليافعيين ومن كان معهم من أبناء القبائل العربية أبوا إلا أن تظل مكشوفة من أمامهم ومن ورائهم ، وقالوا لقائدهم عمرو ابن العاص دعنا من السور يا عمرو فإنما أسوارنا صدورنا .

وتقع بلاد يافع فى الشمال الشرقى لعدن ، وتنقسم إلى ولايتين يقال لإحداهما « يافع العليا » والأخرى « يافع السفلى » .

وتشمل يافع العليا : قبائل الموسطة والضبى والمفلحى وعشائرهم. وتمتاز هذه القبائل بقوة الشكيمة والشجاعة والدهاء ، وهم أقرب إلى المدنية منها إلى البداوة ، و يدينون

بالطاعة لآل الشيخ عليّ؛ وسلطانهم الحالى هو محمد صالح بن عمر بن هرهرة اليافعى ، ويقيم فى المحجبة ، وقد كان أبوه ذا شخصية قوية ، وقد اغتيل فى شهر فبراير سنة ١٩٤٩ بيد أبناء عمومته .

ومجمل الحادث أن محمد بن ناصر هرهرة وأحمد بن سيف هرهرة ، وهما من أبناء عمومته وفدا على حصن هيلين ليزورا السلطان ، وليعرضا عليه اقتراحا لتسوية بعض المنازعات المتصلة بالمراعى وقد دعاهما السلطان لتناول العشاء معه ، وظلوا بعد ذلك يتسامرون إلى أن بلغ الليل نصفه ، فنهض السلطان وابنه ورجال الحرس إلى حيث آووا إلى فراشهم جميعا ، وفى الساعة الثانية صباحا فتح الزائران باب الحصن الكبير وأدخلا منه عشرة من رجالهما كانوا مختفين فى موضع قريب ، وما هى إلا لحظة حتى انقضوا جميعا إلى حجرات النوم وقتلوا السلطان وابنه ، وساقوا كل من كان فى الحصن من الحرس والنساء إلى مدينة « أهل الحد » ثم احتلوا بعد ذلك المنطقة المحيطة بالحصن ، واستولوا على كل ما فيها من السلاح والأشياء الثمينة .

ولحسن الحظ أن للسلطان ولداً آخر اسمه محمد صالح كان أثناء الحادث فى مدينة الناجرة الواقعة على مقربة من المحجبة ففزع إلى بعض القبائل وشكا إلى رجالها تلك الجريمة الشنيعة .

وعقد رجال هذه القبائل مؤتمراً نادوا فيه بمحمد صالح بن عمر وريثاً شرعياً وخلفاً لأبيه على ولاية المحجبة .

ويمتاز مسطح يافع العليا بسعة الأراضى الزراعية وقلة الجبال ، وأهم الغلات الحبوب والورس وبعض الفواكه كالتين وبعض التوابل والسمن والزيت ، وخبرتهم واسعة بالزراعة وتربية المواشى والدواجن ، ويعتمدون فى رى الأراضى على مياه الأمطار .

<u>يافع السفلى</u> : وبها قبائل آل سعد وكلد والناخبى واليزيدى وغيرهم ، ويشتهر هؤلاء بالشجاعة والطاعة العمياء لسلطانهم عيدروس بن محسن العفيفى اليافعى ، وهو

في العقد الرابع من عمره ، حسن المنظر قوى الشخصية يترك أثراً فى كل من يقابله ، شجاع كريم ، عديم الثرثرة فى حديثه ؛ استطاع بحزمه وسياسته ولباقته أن يقبض زمام القبائل اليافعية فى يافع السفلى ، يلبس عمامة من الحرير ملفوفة على طريقة لحج وسترة هندية طويلة مزررة وسروالا من المخمل وحذاء من الجلد ، ويربط فى وسطه خنجرا محلى بالذهب ، ويفضل ركوب حصانه الأسمر أثناء انتقاله من بلد إلى آخر .

وتحيط بيافع السفلى جبال شاهقة جرداء تخترقها أودية عميقة، والتربة هناك خصبة تكوّنت من الطمي والغرين ومعظمها خضراء بأشجار البن ، وهو ثروة الأهالى هناك . ويصدر منه كميات وافرة إلى عدن وحضرموت ولحج وظفار وشرق أفريقيا وتزرع به أيضا بعض الحبوب والفواكه كالموز و (البابای) .

وتقع مدينة القارة فى مساحة من الأرض منبسطة ، وبها قصر السلطان ذو الست الطبقات ، وهناك مسجد كبير جميل بمئذنته اللطيفة الجاثمة والتي تشبه قدحا من الزجاج معكوسا وسط حوض واسع عميق .

وقبائل يافع سواء فى المناطق العليا أو السفلى لاتزال تحتفظ بالصفات العربية كالكرم وحماية المستجير والدفاع عنه ، والجهل ضارب أطنابه فى طول البلاد وعرضها ، والنساء سافرات الوجوه ، والعفاف والحياء من أهم مزاياهن ، ومن العيب أن تذكر المرأة أى شخص ولو كان قريبها بالقوة أو الجمال ، وهن يشاركن الرجال فى فلاحة الأرض وزراعتها وتربية المواشي والدواجن ، وقد يشاركنهم أيضا فى الحرب ويعتمد محور القرابة عندهم على ناحيتين : النظام الأمى والنظام الأبوى مع أرجحية ناحية الأب على ناحية الأم ، ووصلت الأسرة عندهم إلى أضيق نطاقها فأصبحت لاتشمل إلا الزوج والزوجة وأولادهما ما داموا فى كنف الأسرة ، غير أنه لاتزال يوجد لديهم رواسب من النظم القديمة ، فكل فرد ينتمى إلى أسرتين علمتين : هما أسرة عمومته وأسرة خؤولته ، ويرتبط أفراد كلتيهما بطائفة كبيرة من الروابط

الاجتماعية والقانونية و بكثير من الحقوق والواجبات ، وذلك إلى جانب انتمائه إلى أسرته الخاصة الضيقة التى تتألف من أبويه وأولادهما ، و إجراءات الزواج عندهم مبسطة ، وسلطة الآباء على الأبناء لا حد لها ، وتخضع الزوجة لزوجها خضوع الأمة لسيدها ولا تطلب الطلاق من زوجها مهما كانت معاملته قاسية ، ومتى طلقت يصبح أمر زواجها فى يدها ، ولكن ليس لها أن تختار إلا بعد موافقة أبيها أو من يقوم مقامه ، وهذا عكس البنت البكر فلا يؤخذ رأيها عند زواجها ، وزواج ابن العم من ابنة عمه له المقام الأول حتى ولو كان أحدهما غنيا والآخر فقيرا ، وهذه الأوضاع الاجتماعية تكاد تكون موجودة عند جميع القبائل العربية ، والحماة من أكبر الأسباب لتوطيد الروابط وتوثيق الصلات بين الزوجين ، وتعطف كل العطف على زوج ابنتها ، وهذا عكس ما نشاهده فى مصر ، فإن الحموات يتدخلن فى كل شىء يتعلق بشؤون أزواج بناتهن ، ومن هنا ينشأ الخلاف بين الزوجين ذلك الخلاف الذى كثيرا ما يؤدى إلى الطلاق ، أما الثقافة فلا أثر لها هناك البتة ، ولهجة اليافعيين غامضة وهى لا تختلف كثيرا ولا قليلا عن لهجة سكان المحميات التسع ما عدا حضرموت ، فإن لهجة الحضارم واضحة كل الوضوح لا سيما فى الحواضر، وتشبه كثيراً لهجة المصريين فى الصعيد .

و يوجد بينهم شعراء وأشعارهم مزيج من العامية والفصحى . وتكثر الأغانى الشعبية فى المواسم ، وكثيراً ما تنتقل أغانيهم إلى البلدان المجاورة لهم كلحج والفضلى ولكنها لا تحمل شيئا من صفات الخلود ، فسرعان ما تختفى وتحل محلها أغان جديدة ، وكل أشعارهم وأغانيهم تتناول المدح والغزل ووصف الشجاعة والبطولة .

و يبلغ تعداد سكان يافع العليا والسفلى حوالى المائة والأربعين ألف نسمة ومعظمهم يحمل السلاح ، ولآل الشيخ أبى بكر سلطة روحية قوية عليهم و يقدسون المنصب أعظم تقديس حين يزورهم فى بلادهم و يبعثون له الهدايا الثمينة ومنها البن تبركا به ، ولكن هذه السلطة بدأت فى بعض المناطق تنكمش وتتضاءل ، وليس من

شك أن مآلها التلاشى والانهيار متى ما انتشر التعليم بين طبقات الشعب ، وتثقفت عقولهم وتنورت أفكارهم .

ولقد سطع نجمهم فى حضرموت سنة ١١١٧ فقد أتى السلطان بدر بن محمد المردوف الكثيرى بستة آلاف محارب منهم سنة ١١١٥ لنصرته ضد قومه الذين خذلوه ولم يخلصوا له .

العوالق

تقع بلاد العوالق شرقى بلاد يافع والفضلى، ويحدها من الجنوب المحيط الهندى ، ومن الشرق حضرموت وآل عبد الواحد ، ومن الشمال وادى بيحان . وتنقسم العوالق إلى عليا وسفلى ، ويعنون بالعوالق السفلى تلك القبائل التى تسكن السهول الجنوبية من بلاد العوالق . ويحكمهم السلطان عيدروس بن على ، ومقره الرسمى مدينة أَحْوَر التى تبعد عن البحر ببضعة أميال ، وبالرغم عن وقوعها فى منطقة ماحلة جرداء فإنها مركز تجارى حيث تمر بها القوافل الذاهبة إلى عدن والواردة منها إلى المناطق الشمالية والشرقية ، ويأخذ السلطان عليها عشوراً . ولأحور مرسى صغير تؤمها المراكب الشراعية ، ومن القرى الهامة « المحفِدْ » وهى السوق الرئيسى لقبائل آل باكازم الشهيرة بقوة الشكيمة وشدة المراس ، ومن بطونها الشهيرة « آل شمعة » ويسكنون فى قرية المنقعة ، ومن أعلامهم محمد بن فريد ، وبيت « البَسَمْ » ويسكنون بالمحفد ، وفى قبائل آل باكازم بيوت دأبها قطع الطرق والنهب والسلب ، والسلطان عيدروس نحيل الجسم قصير القامة يحب التأنق فى ملابسه ، يلبس إزاراً وجاكتة مزررة وعلى رأسه عمامة تسمى الدسمال المصنوعة فى بونه من بلاد الهند ، وهو محب للسلم والهدوء ، ولكن ليس له نفوذ قوى على قبائله التى قد تخرج عليه وتتمرد ضده ؛ ومن أهم أودية العوالق السفلى، وادى المحفد ووادى المنقعة ووادى ضَيْقة الذى ينحدر

سيله المتجمع من شعابه ويتجه إلى منطقة أحور ويصب فى البحر ، ويعتبر وادى ضيقة أطول الأودية تقطعه القوافل فى ثلاثة أيام .

أما العوالق العليا فكلها جبال وتلال وهضاب ، وتتكون قبائلها من قسمين رئيسيين : « المحاجر » ويسكنون فى شمال المنطقة ؛ ومن أهم فخائذها المزاريق والمطوسلة وهَمَّام و « آل على » ويسكنون فى جنوب المنطقة وهم أكثر القبائل عدداً وأشدهم بأساً ، ومن أشهر فخائذهم آل أبو بكر وآل باريس وآل عتيق وآل مِدحج ، وشيخ العوالق العليا من آل على ويطلقون عليه « العاقل » وبيت المشيخة هم آل فريد ، وينتمون إلى آل أبى بكر المذكورين والمشهورين بالإقدام والكرم والعاقل أو الشيخ الآن هو محسن بن فريد العوالقى ، وهو محبوب من سائر القبائل العولقية ، وله نفوذ قوى ولكنه يعترف بسلطة السلطان عوض بن صالح العولقى ، ويقيم السلطان عوض هذا الذى ينتمى إلى قبيلة المحاجر فى مدينة « نصاب » وأهم أودية العوالق العليا وادى ضرا وعَبَدَان ووادى يَشْبُمُ ، وتسكن المحاجر والسلطان فى وادى ضرا وعَبَدان ، كما أن العاصمة نصاب تقع فيها ، وتكثر فى هذه المنطقة الأراضى الزراعية وفيها بعض السهول الفسيحة التى لو تناولتها يد العمران لازدهرت ولأصبحت غنية بغلاتها . ومن أهم قرى هذه المنطقة المصينعةُ وبها المشايخ آل أبى حربة ، وتسكن قبيلة آل على فى وادى يَشْبُمْ ، وهو واد ضيق محصور بين سلسلتين من المرتفعات ، وعلى جانبيه توجد مساحات محدودة من الأراضى الزراعية ، وتتصل به أودية صغيرة عرضية أهمها مَرْبُون والعظمة والشعبة ؛ ومن أهم القرى يشبم وبها آل الجفرى وآل بانافع وأصحاب المهن المختلفة ، وقرية الصعيد وينطقونها بفتح العين وبها آل فريد والسُّفال وبها آل سليمان ، ويمر وادى يشبم بمدينة حبان التابعة لمنطقة الواحدى ، وكثيرا ما حاولوا احتلالها لاعتقادهم أنها داخلة فى حدود بلادهم ، وقد كانت تابعة لهم منذ بضعة عشر عاما . وأهم البيوتات فيها آل المحضار وآل ذيبان وآل الشبلى وآل عليوه .

والسلطان رمز صورى للحكم ، فكل السلطة فى أيدى المشايخ ، فلكل قبيلة شيخ يلجئون إليه عند ما تتعقد المشاكل ، وهؤلاء يشبهون كل الشبه بعهد الإقطاع فى القرون الوسطى، وكل الأحكام تقريبا عرفية لاتتقيد بقانون مدون ، ولآل الجفرى نفوذ روحى قوى ، وقد يتدخلون فى حل مشاكل القبائل و إصلاح ذات بينهم ونفوذهم ليس فقط على آل على بل على جميع قبائل العوالق تقريبا ، وعلى قبائل القموش و يسمون أنفسهم حِمْيَر ، وآل خليفة وآل سعد ، وكذلك لهم نفوذ على قبائل لحج . ورئيس هذه العائلة هو السيد علوى بن حسن الجفرى ، ولآل الحداد نفوذ روحى على المحاجر ومقرهم نصاب عاصمة العوالق العليا، كما أن لآل الحامد نفوذا روحيا فى العوالق السفلى ومقرهم فى أحور . والحالة الاقتصادية فى بلاد العوالق سيئة ؛ فالجفاف يسود أراضيها طول السنة تقريبا ، وزراعتهم تتوقف على سقوط الأمطار وهى شحيحة جدا .

أما التعليم فلا أثر له البتة .

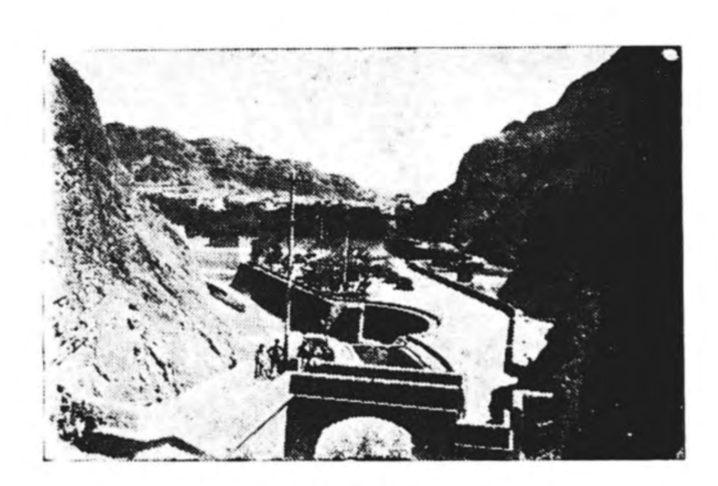
لحج

تقع لحج شرقى عدن وتبعد عنها بحوالى عشرة أميال، والطريق بين البلدين ممهد فى منطقة صحراوية ، ولكن يسودها الأمن ليلا ونهارا ، وحركة المرور لاتنقطع ؛ فالسيارة المزدحمة تسير بسرعة ، والقوافل ذات المنظر الهادئ تسير ببطء ، والجمال تعرف طريقها جيدا فقد ينام الركاب على ظهورها أثناء سيرها ، ولحج من أخصب الواحات فى جنوب شبه الجزيرة فتربتها تحتوى على كل عوامل الخصب ؛ ففيها الملح والرمل ورواسب الصلصال والمواد الفسفورية والنتروجين وأكسيد البوتاس والمغنزيا .

وتتدرج سفوح التلال نحو البحر مكونة رؤوسا من الرواسب النهرية ، وفى ديسمبر ومايو تهب الرياح على البر غالباً من الشمال الشرقى .



عظمة السلطان فضل بن عبد الكريم العبدلي سلطان لحج



خزان عدن

وتنقسم لحج قسمين رئيسيين : شرقى ويسمى الوادى الصغير، وكان يسمى وادى الزان ؛ ويبتدئ من قرية زائدة ، وينتهى بالقرب من قرية العماد . وغربى ، ويسمى الوادى الكبير ؛ ويبدأ من قرية زائدة أيضا ، وينتهى على مقربة من مرسى التَّوَّاهى بعدن ، وتخترق هذين الواديين وديان عرضية وطولية يقال لها أعيار ، وعلى امتداد الأودية تقوم القرى . وفى عصر التبابعة بنى سد لحج العظيم ، وهو سد العرايس لخزن مياه الوديان وتوزيعها على الأراضى الزراعية ، ولكن لا أثر لهذا السد اليوم ، ولا يعرف مكانه بالضبط ، ولكن الأمير أحمد فضل العبدلى . قال فى كتابه [هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن] إنه كان بالمسيد قرب العند حيث توجد أحجار ضخمة مبعثرة فى جوف الوادى . وفى لحج تكثر أشجار الموالح ، وتزرع الذرة والخضروات والفواكه ، ومنها : الموز والعنب والتين والبابايا وجوز الهند والمانجو والشيكو وهو من أشهر فواكه الهند وألذها طعما ؛ ويقال للبستان حيط ، وأشهر البساتين حيط الصمصام وحيط الجريبى وحيط باقى نسبة إلى ناصر فضل الصمصام ومحمد صالح الجريبى والشيخ باقى . وكان السلطان فضل بن على أكثر سلاطين العبادلة اهتماما بالزراعة ؛ فقد جلب تقاوى الأشجار من الهند ومصر وصنعاء وزبيد ، وجلب السلطان عبد الكريم فضل الآلات الحديثة لرفع المياه من الآبار ؛ وتتكدس غلات لحج فى أسواق عدن . وأشهر مدن لحج الحوطة وهى العاصمة وسكانها نحو ١٥ ألف نسمة ، وبها نحو ثلاثين بئرا وتستعمل للشرب ، ونحو ١٢ مسجدا أشهرها جامع السيد عمر ابن عبد الله بن حسين المساوى الذى بنى سنة ١٠٨٣ هـ ، وجدد بناءه السلطان عبد الكريم ؛ ومسجد الدولة ، وبناه السلطان أحمد محسن فضل العبدلى وهو جميل ، ويشبه مساجد الهند الفخمة ؛ ومسجد « الجامع » وفيه تقام صلاة الجمعة ويصلى فيه السلطان وحاشيته .

وقبائل لحج خليط من المجالم والجحافل والأعمور والحواشب والعقارب والأبقور وذى أصبح . وفى لحج من يافع مشايخ آل على بهيب والحرمان مشايخ آل قطيب ؛

فالحرمان من آل الـكساوى وآل على من ذى ناخب، وذى تستعمل عند بعض قبائل البادية بمعنى أل التعريفية وهى من بقايا لغة مدحج ؛ ويقال لقبائل لحج العبادل أو العبادلة نسبة إلى الشيخ فضل بن على العبدلى السلامى الذى استولى على لحج ؛ والمعروف فى التاريخ أن بلاد لحج كانت تحت حكم الأمير حسين بن عبد القادر اليافعى. ولما احتلها أحمد بن الحسن اليمنى جاء الشيخ فضل بجيش من يافع وهجم على لحج واحتلها ، والمصاهرة بين أمراء العبادل وأمراء يافع معروفة . ولما قتل أحمد بن صلاح السلامى انتقلت زوجته وهى من أميرات يافع بأولادها إلى يافع ، وسكنت فى خنفر وجاء فى كتاب [نزهة الجليس وأمنية الأريب الأنيس] للشيخ ابن العباس بن على نور الدين المكى : أن آل سلام العبادلة فخذ من يافع من قبيلة كلد وقريتهم فى بلاد يافع تسمى بركات غربى جبل موفجة .

وكان يحكم بلاد لحج السلطان عبد الـكريم فضل العبدلى الذى توفى فى عام ١٩٤٧ . وهو فى العقد السابع من عمره كان طويل القامة أهيف ذا ذقن مدببة وعينين حادتين ، وكان ذكيا رزينا شديدا فى مواضع الشدة ليناً فى مواضع اللين ، وليس من شك فى أنه كان الحاكم الحازم الذى استطاع بسياسته إخضاع قبائل لحج وبسط نفوذه على الحواشب والصبيحيين، وبدون تدخل منه فى الشئون الداخلية لجيرانه الشماليين والشرقيين أظهر كياسة ولباقة فى معاملته لهم وارتضوه حكما فى منازعاتهم حتى بعض ذوى الآراء المستقلة من يافع لم يحرموا من مشورته التى كانت ترضيهم كثيرا .

وكان يحكم بالعدل فأحبه الناس، كان قطب نهضة لحج ، ولاغرو فمن عام ١٣٤٧ أخذ يبذل أقصى مجهوده لإصلاح بلاده والنهوض بها إلى المستوى اللائق بها . فقد نظم المحاكم الشرعية ، واهتم بالتعلم فأنشأ المدرسة الحسينية وأرسل البعثات إلى معاهد مصر، واهتم بالزراعة فأدخل الآلات الحديثة لنزح المياه من الآبار ، وساعد المزارعين بالمواشى والبذور وأنقص الضرائب وجعلها تتناسب مع المحصول . مات رحمه الله منذ

سنتين فخسرت لحج حاكما ماهرا عرف بتفانيه فى أداء واجبه و إخلاصه فى النهوض بشعبه إلى المستوى اللائق به .

وقام بالأمر بعده ابنه السلطان فضل بن عبد الكريم فضل فاستبشر به شعبه استبشارا عظيما ، ولاغرو فهو سلطان نشط حرّ فى تفكيره وآرائه، عمره العقلى سابق لعمره الزمنى على حد تعبير علماء النفس ؛ فهو فى نهاية العقد الرابع من عمره ، ولكنه يبدو شابا فى مظهره كبيرا فى تفكيره وبعد نظره ؛ وهو فى حرصه على خير بلاده ورفاهية شعبه يتتبع أحوالهما بعناية ، بلغ من تدقيقه فيها أن كل كبيرة وصغيرة فى شؤون مملكته تلقى ماهى جديرة به من التفاته واهتمامه .

ولآل الجفرى سلطة روحية على قبائل لحج ، وهم من خيرة الرجال الذين تعتمد عليهم حكومة لحج . هاجر جدهم السيد علوى بن على الجفرى من بلدة تريس بحضرموت وأقام بِيَشْبُمَ من بلاد العوالق .

وفى سنة ١٢٩٧ نزح السيد حسن بن علوى الجفرى بعائلته إلى لحج بدعوة من السلطان فضل بن على ، وكان السلطان لشدة تعلقه به وثقته فيه لايبتّ فى أمر قبل أن يأخذ رأيه فيه .

حضرموت

والآن تعال أيها القارئ نطلّ من علُ على حضرموت موطن عاد وهود وأقيال التبابعة وملوك حمير وكندة . يالروعة هذه البقعة من الدنيا، جبال طاعنات فى السماء تشارف المحيط الهندى تخترقها أودية فسيحة منبسطة ، وفى بطون هذه الأودية تقوم المدن والقرى . وقديما كانت حضرموت تسمى [الأحقاف] «واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » وأول ذكر لاسمها فى التوراة فى سفر التكوين ١٠ — ٢٦ حيث ورد اسمها « حضرموت » وقد حصل خلاف شديد بشأن هذه التسمية وفرضت فروض كثيرة ، ولكن أفضلها أن هوداً لما دعا الله أن ينتقم له من قوم عاد حلت

بهم النكبات فقال « حضرموت » وكانت حضرموت خاضعة للدولة المعينية ، ولما أدركتها الشيخوخة غلب عليها السبئيون[1] وانفردت سبأ آخر الأمر بامتلاك ناصية الحكم منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، وفي عصرهم كانت حضرموت جنة الله في أرضه، وما تزال الآثار الباقية من خزانات وسدود تدل على ذلك ، وكانت شهيرة بعطورها وتوابلها وفواكهها ، وكانت تمر بها المتاجر من الهند إلى اليمن ثم مصر وسوريا . ولما دنا القرن الأول الميلادى من ختامه قام بنو حمير وهم غالبا سلالة سبئية واغتصبوا من سبأ الملك وانفردوا بالزعامة من بين شعوب الجنوب وأكملوا حلقات الحكم السبئي السابق وأخذ نجمهم يتألق منذ ذلك الحين حتى القرن السادس الميلادى ونقلوا حاضرتهم من سبأ إلى ريدان (ظفار) ليكونوا على مقربة من البحر ، لاسيما بعد أن أصاب بعض مدن الجنوب من التخريب فى حملة القائد الرومانى إليوس جالوس سنة ٢٤ ق. م ، ويقول الطلاب الإسكندريون : إن حضرموت كانت مملكة مستقلة وكان لهم إلههم المسمى (سين) وكان لكندة ثلاثة ملوك وملكة واحدة وكان لهم صنم يسمى (حسلد) .

جغرافية حضرموت

وتقع حضرموت على بعد خمس عشرة درجة عرضا شمالى خط الاستواء وخمسين درجة طولا شرقى جرينوتش Greenwich وما بين ظفار شرقا وعدن غربا والربع الخالى شمالا والمحيط الهندى جنوبا . ويمتد إقليم الساحل من عين بامعبد غربا إلى سيحوت شرقا ، وتبلغ مساحته نحو ٤٥٠٠ كيلومتر مربع ، وهو يمتد إلى الداخل إلى مسافة ٨٠ كيلومتراً من رأس الكلب وعشرين كيلومترا عند الحدود الشرقية ، وأعلى نقطة فيه تقع فى وسطه وارتفاعها ٢١٨٧ مترا ، ويتدرج الإقليم نحو الشاطئ شرقا وغربا ، ويتراجع فى الوسط فيضم بينها سلاسل جبلية احتفرت الأنهار لنفسها فيها وديانا إلى البحر، وتتدرج سفوح الجبل نحو البحر مكونة طبقات من الرواسب النهرية،

(١) « بين الحبشة والعرب » .

وعلى امتداد الوديان توجد أخواض من الأرض بها بعض المزروعات ، وأهم الغلات الأذرة والقمح والبلح ، وتروى الأراضى بمياه الأمطار التى قد تسقط صيفا وبمياه الآبار الارتوازية .

وجبال حضرموت مركبة من صخور نارية تعلوها طبقة من الحجر الجيرى من العصر الجوارسى ، وتلى هذه طبقة من الصخر من العصر الطباشيرى ثم قشور أردوازية وجيرية. وتتكون الطبقات الحديثة من الطمى والرمل وفى الوديان من الرواسب الغرينية وتهب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، وفى ديسمبر ومايو تهب على البر غالبا من الشمال الشرقى ، وعلى طول الساحل يشعر المرء بنسيم البر والبحر، ويمتد تياره إلى بضع كيلو مترات داخل الوديان ، ويشتد البرد شتاء وترتفع درجة الحرارة صيفا، وفى مارس تصبح أشعة الشمس محرقة ولا يشعر المرء بالرطوبة ليلا إلا على الجبال المكشوفة، والجو الداخل ـ لاسيما فى حضرموت ـ جاف ملائم للصحة ، والتغير فى الطقس بين الساحل وداخل الوديان محسوس جدا ، وفى المكلا يبلغ أدنى حد لدرجة الحرارة فى مايو ٦٥ فرنهيت . وتحدث بعض كتاب اليونان والرومان عن حضرموت على أنها بلد غير صحى المناخ نظراً لأن حرارته الشديدة تصطحب بالرطوبة الشديدة . وقد يكون هذا سر ما تخلف فيما بعد فى اللغتين العبرية والعربية من اسم وادى « حضرموت » الذى يفسره بعض الباحثين على أنه مركب من لفظى « حضر » و « الموت » نظراً لعدم صلاحية مناخ الإقليم من الناحية الصحية، ولكن هذا غير صحيح فإن وادى حضرموت يمثل واديا جافا ، ويعتبر من أصح وديان الجزيرة العربية وإن كانت واحاته لا تزرع غير النخيل وبعض الحبوب .

نهر حجر

ومن الظواهر الطبيعية نهر حجر الذى يصب بالقرب من رأس الكلب، ويكون دلتاه إقليم ميفع ، وهو يشق طريقه فى ثلاث خوانق ، وعلى امتداده توجد قرى بها

مساحات واسعة من الأراضى الزراعية ؛ و يبلغ طول النهر ٢٠٠ كيلو متر وعرضه من ٥ — ١٠ أمتار وعمقه من ٥ — ٢٠ سنتيمترا ، و يعتبر وادى حجر أغنى منطقة من الناحيتين الجيولوجية والنباتية ، فالطبقات هناك عكسية مكونة من الحجر الجيرى الأسود والحجر الرملى ، وهناك تغزر الحياة النباتية . وتروى حقول الأذرة والسمسم والبلح قنوات تستمد ماءها من ينابيع ذات ماء حارّ جدا قد يصل إلى درجة الغليان ، وهناك برك ومستنقعات عليها طبقة من الملح وتتوسطها أنواع غريبة من النخل .

المعادن

وفى إقليم الساحل يوجد نحو خمسين نوعا من المعادن منها اللجنيت والقار البيريت و يظنونه ذهبا والنحاس والحديد والفحم والأحجار الزيتية ، ولكن بعض هذه المعادن لا يوجد منها إلا مقادير قليلة ؛ وأهم هذه المعادن معدن اللجنيت Lignite فى جبل كسعى وجبل ضلعيه ، وتتراوح عروقه المعدنية ما بين نصف متر ومترين ، وهو يشتعل بلهب أزرق لامع ، وله رائحة كبريتية و يبيضّ لهبه بعد ساعة و يتصاعد منه دخان ثم يصبح بعد ساعات أزرق باهتا تنبعث منه رائحة أول أكسيد الكربون ؛ و يوجد بكثرة فى أسفل العين على ارتفاع ٤٠٠ متر من سطح البحر . و يوجد الكحل أو الإثمد Antimony بكثرة ، ولا تزال النساء يستعملنه فى تجميل وجوههن بتكحيل عيونهن ، و بعض الرجال يكحلون عيونهم به ظنا منهم أنه يقوى النظر . أما فى الشعوب الصناعية فيستخدم فى إكساب الرصاص صلابة وشدة لاستخدامه فى صنع البطاريات والمواسير والصناعات الكيميائية خصوصاً فى صنع الأشياء التى تحتاج إلى مناعة ضد تفاعلات حمض الكبريتيك ، وليس هذا فقط فللأنتيمون (الإثمد) أهمية كبرى فى الصناعات الحربية لأنه يستخدم فى تقوية الرصاص والشظايا عند صنع القذائف . و يقول الخبراء إن فى حضرموت حقولا للبترول ؛ وفى عدن عند عودتى من حضرموت إلى مصر فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٧ جاءت بعثة من شركة شل مكونة من عالم

جيولوجى ومهندس وطبيب وهى على أهبة السفر إلى حضرموت للبحث عن البترول، وليس ببعيد أن تكون هناك معادن لم تعرف بعد لاسيما فى المناطق التى تقع بين المكلا وحجْر و بين حجر وشَبْوَةَ وفى غير ذلك من المناطق الجبلية القديمة والتى تعرضت فيها الصخور للالتواءات ولعوامل التعرية ، لأن ظاهرتى الالتواء والتعرية من شأنهما أن يقربا الصخور الحاوية للغازات إلى سطح الأرض . وليس من شك أنه متى ما اكتشفت حقول البترول واستخرجت منها هذه الثروة المعدنية العظمى سيصبح لحضرموت مركز اقتصادى هام وسيتغير وضعها من فقر وتأخر إلى رخاء وتقدم ومن بؤس وشقاء إلى سعادة وهناء .

السياح الأجانب

ومنذ أكثر من مائة سنة اهتم الأوربيون بجنوب الجزيرة العربية اهتماما عظيما ؛ فقد ذهب إلى حضرموت كثيرون من الألمان والانجليز والهولنديين ، وأول شخص يعد رحالة بالمعنى العلمى الصحيح هو أدولف فون ريدى Adolph Von Wrede ، ولكن بكل أسف لانعلم شيئا عنه إلا ما أخبرنا به هنريك فويهرفون موالنز الذى نشر كتاب ريدى عام ١٨٧٠ . ولد ريدى فى وستفاليا ، والتحق بالجيش اليونانى عام ١٨٣٠ ، ورحل إلى مصر عام ١٨٤٣ ، ومنها ذهب إلى حضرموت ، ولما عاد إلى بلاده لم يستطع طبع كتابه فذهب إلى انجلترا ودفع بالكتاب إلى أحد الناشرين ، ولكن لسوء الحظ انتحر هذا الناشر، ولم يبق من الكتاب سوى سرد الرحلة فقط، أما الخرائط والرسوم الملونة ففقدت . و بالقرب من المكلا توجد كومة من الأحجار يزعم الناس أنها قبر أحد المسيحيين الذى قتل منذ مائة سنة فى محاولة دخوله حضرموت . و يقول البعض إنه قبر ريدى ، ولكن الجمعية الجغرافية نشرت فى المجلة التى تصدرها أنه بعد أن ترك انجلترا التحق بالجيش التركى ومات فى مستشفى بالأستانة فى حالة بؤس شديدة ، وظل الحال حتى سنة ١٨٩٣ . حيث قام ليوهيرش

Les Hirsch الألمانى ونشرها فى كتابه سنة ١٨٩٧ بعنوان «رحلة فى جنوب بلاد العرب فى مهرة وحضرموت» وقد استمر سنة فى طريقه إلى داخل البلاد ذهب من عدن إلى الشحر ثم إلى سيحوت فالقشن ثم إلى المكلا، وهنا خانته شجاعته وآب إلى عدن، ولكنه عاد ثانية مزودا بحماية الحكومة البريطانية إلى المكلا، وهو أول أوربى وقع نظره على شبام وسيون وتريم، وفى نفس السنة بعد هرش بزمن يسير. قام المستر تيودور بنت وزوجه برحلة، ولكنهما لم يبرحا شبام، ولم يصرح لهما بزيارة قبر هود و برهوت، وقد نشرت الرحلة سنة ١٩٠٠ فى لندن، وفى عام ١٩١٨ أرسلت الحكومة الانجليزية ضابطين أحدهما و ه. لى وارنر فى مهمة سياسية إلى شبام ونشر تقريرها كذيل مقال نشره و. ا. كوشرين فى المجلة الجغرافية عدد ٧٧ ص ٢٠٩ — ٢٢٢ سنة ١٩٣٠ وهو من ضباط الأسطول الجوى، ونشر الدكتور ويلهلم هين مقالة فى المجلة الجغرافية الألمانية عدد ٥٧ ص ٣٢ — ٥٨ سنة ١٩١٤، وكان قد اصطحب معه تروهين فى سنة ١٩٠٢ وذهبا إلى القشن، وهناك ظلا أسيرين لمدة شهرين جمعا فى خلالهما معلومات لابأس بها عن حضرموت، وفى سنة ١٩٢٤ طلبت الحكومة القعيطية إلى الحكومة المصرية أن تبعث لها مهندسا ليعمل مساحة تفصيلية عن المنطقة الواقعة بين المكلا ووادى حجر وليبحث عن المعادن فيها فأوفدت ا. ه لقتل O. H. Little ونشر تقريرا تحت عنوان The Geography and Geology of Mukalla طبع فى المطبعة الأميرية فى القاهرة سنة ١٩٢٥؛ وفى مايو سنة ١٩٣١ أرسلت الحكومة الهولندية فان درميلن وويزمان إلى حضرموت للوقوف على حالة الحضارم فى بلادهم نظرا لوجود جالية كبيرة منهم فى أندونسيا وألفا كتابا عن رحلتهما بعنوان Hadramaut ويشمل مؤلفهما معلومات قيمة عن حضرموت، وبعدهما بزمن ذهبت مس ستارك إلى حضرموت ثلاث مرات وأصدرت ثلاثة كتب عن رحلاتها وبعدها سافر هارود انجرامس H. Ingrams هو وزوجه وأصدر كتابا طبع سنة ١٩٤٢.

وفى سنة ١٩٣٩ ذهب ڤان در ميان المرة الثانية إلى حضرموت وأصدر كتاباً عن رحلته .

وألف الدكتور ڤان دن برخ كتاباً بأمر الحكومة الهولندية طبع سنة ١٨٨٦، ومع أنه لم يذهب إلى بلاد العرب مطلقا إلا أنه كتب كتابه « حضرموت والمستعمرات العربية فى الأرخبيل الهندى » بمساعدة بعض الحضارمة المثقفين فى بتافيا ، ولكن بالكتاب والخريطة نقص كبير وأخطاء فاحشة ، وقد استعمل ضباط سلاح الطيران هذه الخريطة .

الآثار

ولعل الذى دفع بالأوربيين للسفر إلى حضرموت وجود الآثار القيمة والمعالم الأثرية الهامة مع مافى ذلك من الأخطار والمتاعب التى كانت تعترضهم لاسيما فى البوادى حيث المسالك وعرة والماء شحيح والأمن كان مفقودا. وفى سنة ١٩١٨ حاول والدى المرحوم السيد عبد القادر البكرى دخول المغاير الأثرية فلم يستطع الوصول إلى غايته لعدم وجود أجهزة علمية ولكنه عثر على بعض قطع أثرية، كمانقل كثيرا من الكتابات والرسوم ، ولسوء الحظ وافته المنية فى البحرين وهو فى طريقه إلى برلين ليعرض تلك الكتابات والرسوم على علماء الألمان ففقدت جميع مذكراته ومقتنياته الأثرية ، كما فقدت مخطوطات نادرة كان ابتاعها فى أثناء رحلته بحضرموت .

ومن المناطق المشهورة بالآثار المشهد. فهناك أحجار كثيرة عليها كتابات حميرية، وتوجد تلال تعلو إلى ٣٠ قدما على سفوحها أنقاض جدران وعلى إحدى هذه التلال بئر اتساعها ٣٠ قدما وعمقها ٦٠ ؛ وعثرت فرياستارك على آثار قيمة فى هذه المنطقة ، وعلى مقربة من غيبون وفى وادى ثقب أطلال يقال لها ديار عاد ومنازل من الصخر طول الواحد منها عشرة أقدام وعرضه ستة و بعضها مسدود بالصخر وعلى الحيطان نقوش باللون الأحمر فحصها الأستاذ موردتمان فى برلين فوجدها أسماء أعلام ، وتقع

المنازل على ارتفاع ٤٥٠ قدما ، وموردتمان درس وحلل الـكتابات التى اصطحبها فان درميلن وو يزمان فوجد أن أقوام حضرموت غلبت عليهم الصفات الحر بية فى عصور متقدمة ، وعلى قوله فقد ذكر الإقليم وملوكه فى النقوش السبئية القديمة وفى نصوص متأخرة .

وفى سوم أطلال من الحجر غير المنحوت وأنقاض حائط ضخم من الصوان الطبيعى كان متصلا بالجبل وهو بقايا سدٍّ كان يخترق الوادى فيما يرجع إلى ما قبل الإسلام . وفى فغمه منطقة حافلة بالأطلال . وعلى مقربة من سوم تقوم أطلال مكنون يتصل بها بقعة متسعة كانت مقبرة لسكان المدينة والقبور طويلة، وتوجدهناك قلاع متهدمة لها استحكامات حر بية ، وهذا دليل على أن الإقليم كان منطقة حدود بين مملـكتين وليس من المناسب عمل نقوش على تلك الصخور ، ومناطق الحدود ما كانت مركزا للثقافة ، كما أن الحجر فى تلك المنطقة لايساعد على الحفر لأنه حشن جداً .

وفى وادى عمد أغنى منطقة أثرية ، وهى تمتد إلى مسافة ميلين ونصف ميل ولـكن السيول جرفت بعضها، كما أن لعوامل التعرية أثرا كبيرا فى محو معالمها . ومن الصور المرسومة على بعض الأطلال صور للفيل ولذا يرى بعضهم أن هذه الفيلة كانت تستعمل فى جر الأحجار الضخمة المستعملة فى الأبنية فى الأزمنة التى سبقت ظهور الإسلام ولـكنى أشك فى صحة هذا الفرض ولو أنه من الثابت أن الفيلة لعبت دورا عظيما فى تاريخ بلاد العرب .

من عدن إلى حضرموت

ها أنذا أغادر عدن بعد أن قضيت فيها أياما استطعت فى خلالها أن آخذ فكرة واضحة عن هذه المدينة ذات التاريخ المجيد وأضمها إلى معلوماتى التى استقيتها من المصادر العلمية؛ ولقد ساعدنى فى ذلك السيد محمد صالح بارحيم، فقد كان يضحى بمعظم

أوقاته و يأخذنى فى سيارة لمشاهدة معالم عدن ومآثرها القديمة والحديثة وضواحيها المتباعدة الأطراف .

لقد كان الحر شديدا حين قامت بنا الطائرة من المطار ، و بالرغم من ضخامة الطائرة فلم يكن بها مقاعد مريحة و يظهر أنها كانت تستعمل لنقل الجنود إبان الحرب العالمية الثانية . وتستعمل اليوم لنقل الركاب بين أديس أبابا وعدن وحضرموت .

ولحسن الحظ لم تكن سريعة فى طيرانها ولا عالية جدا ، لذلك استطعت أن أشاهد بشىء من الوضوح الهضبة متسامية نحو السماء و بير على ببراكينه الخامدة القاتمة ووادى حجر بمزروعاته الخضراء وثغر بروم بمجده وقصره الناصعين .

و يلاحظ أن بعض الجبال التى تطل على البحر مكونة من صخور سوداء (بازلت) تظهر من بعيد كأنها غابات كثيفة .

بعد ساعتين هبطنا فى مطار الريان وهو مطار فسيح بناه سلاح الطيران البريطانى خلال الحرب العالمية الثانية ، والمطار بعيد عن المكلا ؛ ولقد استقبلنا فى المطار السيد عبد الله أحمد الناخبى مندوبا من قبل عظمة السلطان وأحد سراة المكلا السيد محسن محمد الناخبى .

انطلقت بنا السيارة إلى مدينة المكلا مخترقة هضابا وتلالا ووديانا حتى وصلنا مدينة المكلا . ودخلت بنا السيارة من باب المكلا العظيم الارتفاع والمخفور برجال من البوليس .

وتمتد مدينة المكلا على ساحل البحر فى غير تحفظ ولا احتياط كما تستلقى الغادة الهلوك على الشاطىء فى غير تحرج ولا احتشام . وهى تداعب النهار حين يقبل عليها مشرقا بما تظهر له من زينتها ، ياروعة هـذا المنظر مدينة أنيقة بمنازلها ومساجدها البيضاء . وخلفها سور جبلى شاهق يبلغ ارتفاعه ٦٠٠ قدم، وقصرا السلطان القديم والجديد يطلان على البحر من ربوة . وفى أقصى المدينة من الجهة اليمنى يقوم قصر ثالث للسلطان . حقا إن للألوان سحرا عجيبا ، و بين تلك القصور العالية يمتد لسان

من الأرض هو وسط المدينة ، وعلى أحد جانبي هذا اللسان يقوم الميناء التي ترسو فيه السفن ، وعلى مقربة من القصر القديم تقوم المقابر تتوسطها قبة على ضريح الشيخ يعقوب ، ولم نر أثراً لأشجار الأثل التي تحدّث عنها الرحالون القدماء .

سرنا في الطريق الرئيسي الذي يخترق المدينة من الشرق إلى الغرب ، فوجدناه يعجّ بالناس من الذين يمثلون كل القبائل الحضرمية ، ورأينا متاجر مختلفة من البهارات والحلوى والبلح والطباق الحمى والسمك المجفف والطازج وألوانا من البضائع الهندية ، تشبه المتاجر هناك المتاجر في باب الشعرية والموسكي بالقاهرة ، وتنار بعض المنازل بالكهرباء ، ومعظم الشوارع ضيقة جدا وأزمة المساكن على أشدها ، والمكلا على كبرها ووجاهة منازلها لا تعرف نظام المجاري ، والفضلات تجمع في مخازن يكسحها أناس بالأجرة ، وإذا عدنا بالسنين القهقرى أكثر من قرن نجد أن المكلا كانت مرعى تنبت فيه أنواع من الكلأ تأكله الإبل والأغنام ، وكانت تقـــوم هناك أكواخ الرعاة والصيادين وصغار التجار ، ثم أخذت تنمو وتترعرع شيئا فشيئا حتى وصلت إلى إلى ماوصلت إليه اليوم . لقد ازدحمت بالسكان من الوطنيين والهنود والصومال .

وأنشئت المباني العالية . وهي وغيرها من مباني المدن بحضرموت أكثر شبها بهندسة نيويورك منها بالهندسة العربية . قال بودلي R. V. C. Bodley, في كتابه « The Messenger » ووفدت الوفود من حضرموت ، وهي دولة أخرى جنوبية لاعتناق الإسلام ، وقد أرضى ذلك محمدا أكثر مما أرضته معاهدته مع عمان ، وإن أهل حضرموت من جنس غنيّ متحضر يعيش في مدن فخمة تطل على خليج عدن ، وإن منازلهم يجب أن تكون أصل ناطحات السحاب الحديثة في العالم ، وإن هندسة هذه المدن الآن ومن قرون قبل الآن أكثر شبها بهندسة نيويورك منها بالهندسة العربية . ويقول : كان أهل حضرموت رحالة وتجارا عظاما ، وإن اعتناقهم الإسلام سيسبب انتشاره ؛ كما قدر محمد خارج جزيرة العرب ، وإن هؤلاء النازلين في الدور المرتفعة قد حملوا الإسلام إلى الملايو وجاوه والفيليبين ، ومن المحتمل أن أهل

مورو فى منداناو ، وقد أطلق عليهم هذا الاسم بسببهم، فإن الأسبانيين الذين كانوا أول من وضع الفيلبيين على الخريطة كانوا يعتبرون كل مسلم (مورو) وهـذا الاسم مشتق من الاسم اللاتينى Uaurus ومعناه (مواطن) من دولة المغرب فى شمال أفريقيا ؛ فلما وجدوا أناسا لهم نفس الشعائر الدينية التى لمسلمى البحر الأبيض قرر الأسبان أنهم جاءوا من نفس المكان وسموهم مورو .

لقد أصبحت مدينة المكلا مزدحمة بالسكان واستحكمت أزمة المساكن بصورة منقطعة النظير ، وقد بدئ فى إنشاء المبانى فى منطقة الشرج التى كانت إلى عهد غير بعيد مهجورة ، ولا تزال هناك مساحات واسعة خالية من المبانى ، ولهـــذه المنطقة مستقبل عظيم لاسيما لو ردمت البقعة المنخفضة التى تفصلها عن المكلا وأزيحت كثبان الرمال التى تراكمت بين البحر والجبل ، وستمتد المبانى إلى ما بعد النقعة فى المستقبل وربما تنتقل رقابة التفتيش من باب المكلا إلى المنطقة التى بها مدرسة أبناء البادية أو إلى شمالها الشرقى ، وسيكون من العبث بقاء الباب والسور .

ترحيب الوفود

وفى نفس اليوم الذى نزلنا فيه بمنزل السيد عبد الله أحمد الناخبى اليافعى مدير المعارف بالنيابة وقتئذ جاءنا معظم الشخصيات البارزة بالمكلا يهنئوننا بسلامة القدوم ووجوههم تطفح بالبشر والسرور ، ولم يكن بيننا و بينهم سابق معرفة ماعدا صديقنا الوفى الشيخ محمد باجنيد أحد قضاة المكلا الأعلام، فقد عرفته حين كان طالبا بالأزهر الشريف بمصر. أجل جميعهم سوى الشيخ باجنيد لم أتشرف بمعرفتهم من قبل ؛ فقد غادرت حضرموت وأنا إذ ذاك فى أوائل العقد الثانى من عمرى وغبت خمسا وعشرين عاما قضيتها فى أندونسيا ومصر ؛ ولكن شعورهم الحى ، و إحساسهم الرقيق دفعاهم للترحيب بى بإخلاص وحب صادرين من أعماق قلوبهم وقرارة نفوسهم، وأبى هؤلاء القوم إلا أن يعبروا عن عواطفهم الكريمة ، فأقيمت لنا حفلات التكريم من جمعيات

وأحزاب على اختلاف مشاربها ومبادئها ، وأعظم تلك الحفلات حفلة التكريم التي قام بها أعيان يافع وشرّفها بالحضور عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطى ، وسعادة المستشار المستر شبرد وصاحب العزة سكرتير الدولة الشيخ سيف بن على ، وعشرات من الوجهاء والأعيان .

فى قصر السلطان

وفى المساء ذهبت بصحبة السيد عبدالله الناخبي إلى القصر، وتشرفنا بمقابلة عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطى رأس الدولة القعيطية، و باعث النهضة الحضرمية وراعيها وكانت هذه ثانية مرة أتشرف فيها بمقابلة جلالته . فالمرة الأولى كانت فى مصر حين زارها قبل الحرب، وكنت وقتئذ طالبا بكلية الآداب بالجامعة المصرية . تشرفت بمقابلة عظمته فخرجت من هذه المرة بشعور زادته الأيام رسوخا ، وهو أنه سلطان ذو قلب عظيم ، وأن الله حباه بتلك القوة التى تجتذب القلوب إليه ، وكنت بعد ذلك كلما تشرفت بلقاء جلالته أدهشنى بطلاوة حديثه وعمق تفكيره وغزارة معلوماته سواء أكان ذلك فى الشئون الداخلية أم فى الشئون الخارجية ، ورأيت صورا جديدة لتلك القوة الإنسانية .

وعظمة السلطان صالح الحقيقية لاتتجلى بأجمل صورها إلا فى المواقف غير الرسمية لأنك تدرك عندئذ أن سجاياه التى يتحدثون عنها فى المواقف الرسمية هى طبيعة فطر عليها ، وهو يبهرك بتواضعه وتسامحه وبساطة معاملته فيمكنك أن تحظى بمقابلته ليلا أونهارا، و يمكنك أن تتحدث مع عظمته وتتبسط فى الكلام إلى أقصى حدود البساطة.

وقد يدعو جلالته إلى مائدته بعض الناس من الذين يعرفهم شخصيا فيدور الحديث على شؤون شتى ، وفى مثل هذه الجلسات البعيدة عن قيود الرسميات وتقاليد القصور تتجلى ديمقراطية جلالته بأجمل مظاهرها ، ويتجلى معها مدى اطلاعه الواسع على شتى الأمور .

وعظمة السلطان صالح أولع بالميكانيكا منذ صغره ، وهو بلا ريب من أمهر الميكانيكيين ولديه فى قصره آلة سينمائية يديرها بنفسه و يدعو الناس لمشاهدة الأفلام العلمية فى إحدى قاعات القصر .

وتسمع أن جلالته يعرف كثيراً وتسمع من كبار الأجانب الذين يتشرفون بمقابلته أنه يبهرهم بحديثه ويدهشهم بمعلوماته . ولعظمته مؤلفات قيمة وهى :

(١) « مصادر الأحكام الشرعية » ٣ أجزاء وقد طبع الأول والثانى منه .
(٢) « الآيات البينات » .
(٣) « رحلة إلى دوعن » .
(٤) « الملاحة البحرية » .
(٥) « رسالة فى الهندسة » .
(٦) « رسالة فى الأصول » .

ولجلالته شغف عظيم بالكتب ومما ساعده على كثرة الاطلاع أنه سريع القراءة مع التيقظ التام لكل عبارة أو فقرة تستوقف النظر ، وكانت لديه مكتبة فيها كتب قيمة قديمة وحديثة، دينيةوفلسفية واجتماعية وأدبية وتاريخية وعلمية بالعربى والانجليزى وقد أراد ألا يحرم الشعب من الانتفاع بها فأهداها للمكتبة السلطانية بالمكلا ، فأصبحت هذه المكتبة أعظم مكتبة فى جنوب شبه الجزيرة العربية .

أما فيما يتعلق بحضرموت بالذات ؛ فالحقيقة هى أن السلطان يعرف عنها أكثر جدا مما نظن ، وهو محيط بشؤون البلاد والشعب أكثر جدا مما يتبادر إلى الذهن .

الرحلة إلى الشحر والغيل

تفضل مولانا صاحب العظمة السلطان صالح واصطحبنى فيمن اصطحب معه فى رحلته إلى الغيل والشحر ، وفى اليوم الرابع من شوال سنة ١٣٦٦ ، ١٩٤٧/٨/٢٣ وفى الساعة السادسة صباحا بدأنا الرحيل من باب المدينة العظيم الارتفاع ، وأمامه يقع

وادى سديد حيث جرف البحر جانباً عظيما من الأرض وأوغل فى الرقعة فكون ثغرة . هنا على الساحل كانت القوافل تحط رحالها فى ذهابها وجيئتها من الداخل ، وهنا شاهدنا جمعا من الجمال جاثمة فى هيئة دائرية تأكل الطعام الموضوع فى الوسط و بينها بضع حمير ، و ينام البدو ملفوفين فى معاطفهم أو يجلسون حول نار قليلة يأكلون فى صحاف من الخشب الفتة المصنوعة من الخبز ، و بعضهم يشغلهم عملية تحميل الدواب ، و بعد أن توزن الأحمال بطريق رفعها ، و بعد أن تقسم توضع فوق ظهور الدواب ، وكان لهـذا النوع من المواصلات رواج عظيم . أما اليوم فقد بدأ يتضاءل و يقل الإقبال عليه إلى حد كبير لظهور السيارات العظيمة التى تخترق الوديان والجبال بين السواحل والمناطق الداخلية ، وسيشتد التنافس بين الجمال والسيارات ، وستكون الغلبة طبعا للسيارات

و يجمع الأطفال فى سلال روث الجمال الذى يستفاد منه كوقود ، وقـد تسللت من أحدهم إلى أذنى أغنية ذات نغمة حلوة ذكرتنى بأغنية سمعتها من إحدى راعيات الغنم فى الحوامدية حينما ذهبنا فى رحلة مع طلبة المدرسة لزيارة هرم سقارة ، ولم أتبين كلمات تلك الأغنية إذ كانت السيارة منطلقة بنا .

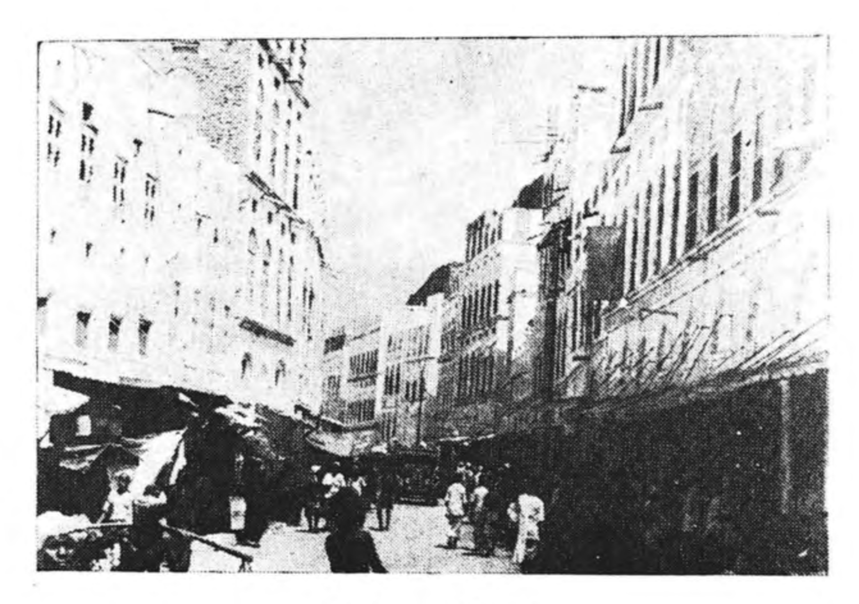
انطلقت بنا السيارة بمحاذاة حافة وادى سديد ، حيث يمتلئ هنا بماء البحر ، وعلى يسار الطريق على بعد بضعة أميال توجد أحواج من النخيل ، و بها مصايف السلطان و بعض سراة المكلا . وهناك نبع يحمل منه الماء إلى المكلا بطريق أنبو بة حديدية فلية السمك ، ممدودة على الأرض ليشرب أهل المدينة . وعلى سـفح تل تقوم مدرسة بنات البادية ، وسيأتى الكلام عنها فيما بعد ، وعلى مقربة من هـذه المدرسة يقوم السجن على ربوة عالية بجدرانه الناصـعة البياض . ومررنا بثكنات لتدريب الجيش النظامى ، وأخرى لتدريب جيش البادية ، و بمدرستين : إحداهما لأبناء البادية ، والأخرى لتعليم الأميين من الجنود القراءة والكتابة وشيئا من التاريخ والجغرافيا ، وكل ما يتعلق بواجبات الجنود والشرطة المسلحة .



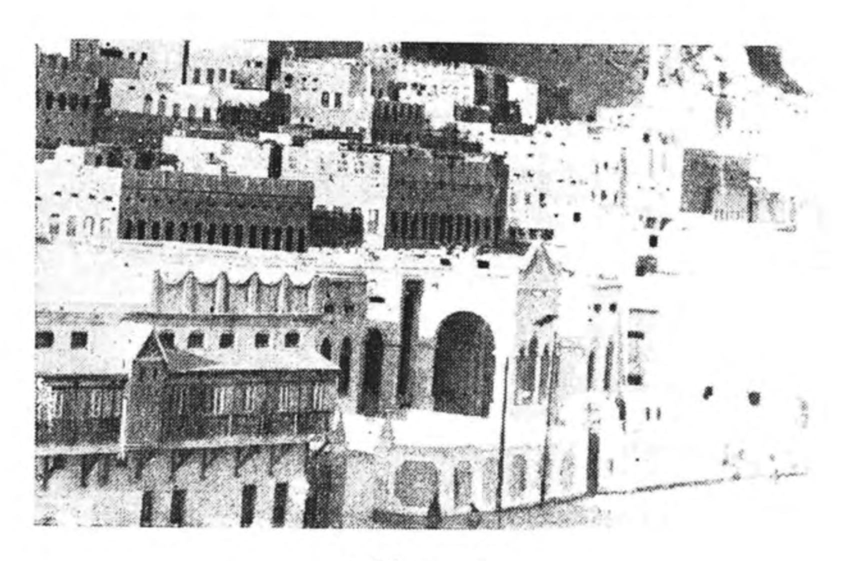
مدينة المكلا من البحر



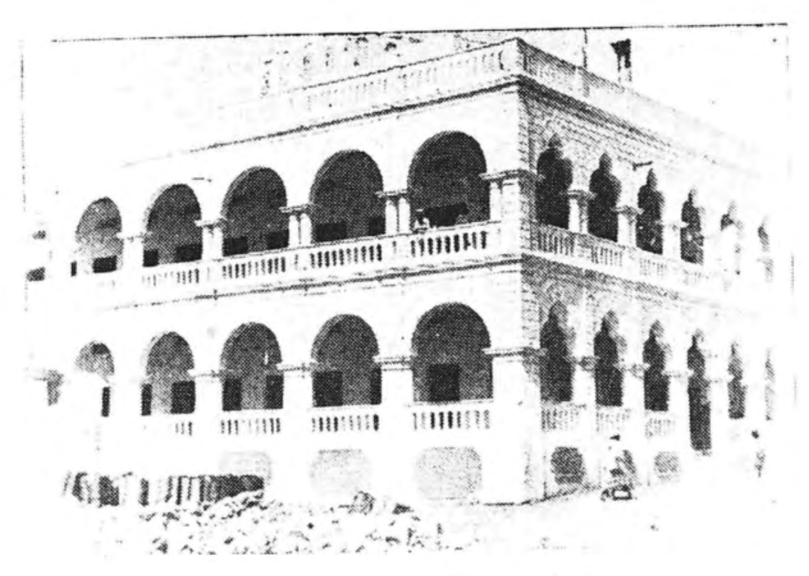
أحد شوارع المكلا



الشارع الرئيسي في المكلا



جانب من المكلا



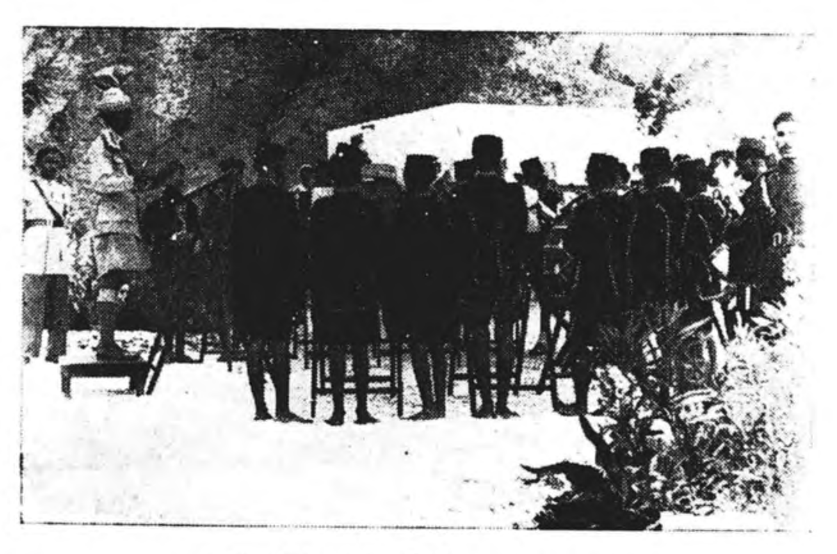
دار سكرتارية الحكومة القعيطية بالمكلا

مجلس الدولة

ونرى فى الوسط عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطى وعلى يمين عظمته سعادة المستشار المقيم المستر شبرد وعلى شمال عظمته سعادة سكرتير الدولة الشيخ سيف



من مدفعية جيش الحكومة القعيطية بالمكلا



فرقة موسيقية جيش الحكومة القعيطية فى المكلا



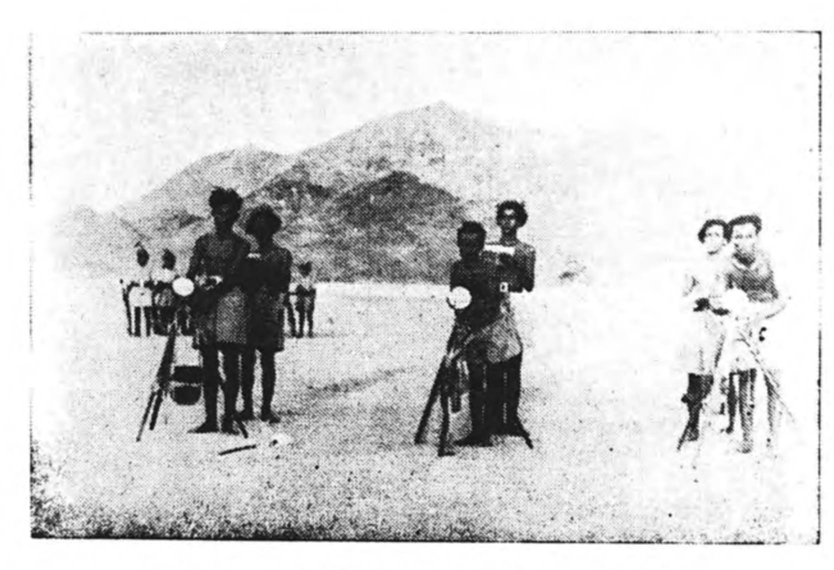
الجيش أمام القصر السلطانى



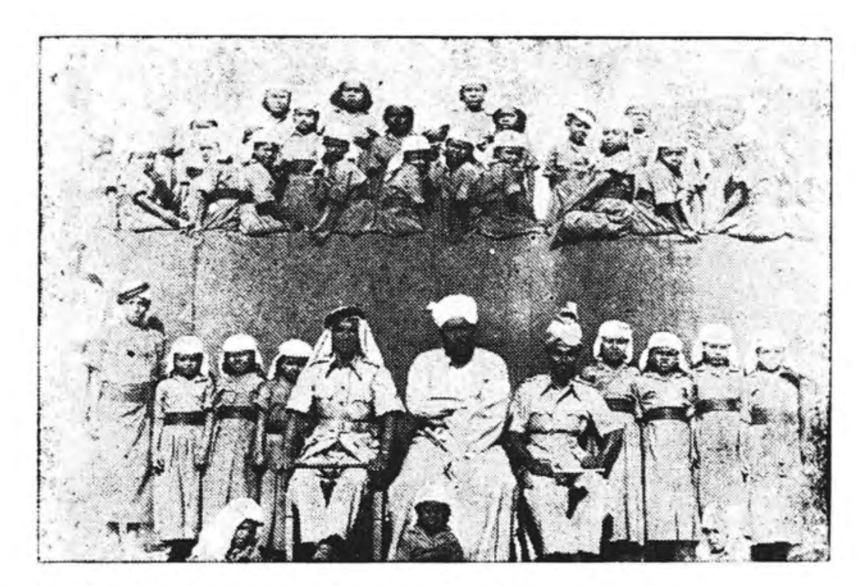
الجيش النظامى للحكومة القعيطية بالمكلا



فرقة التخاطب بالاشارات فى جيش الحكومة القعيطية



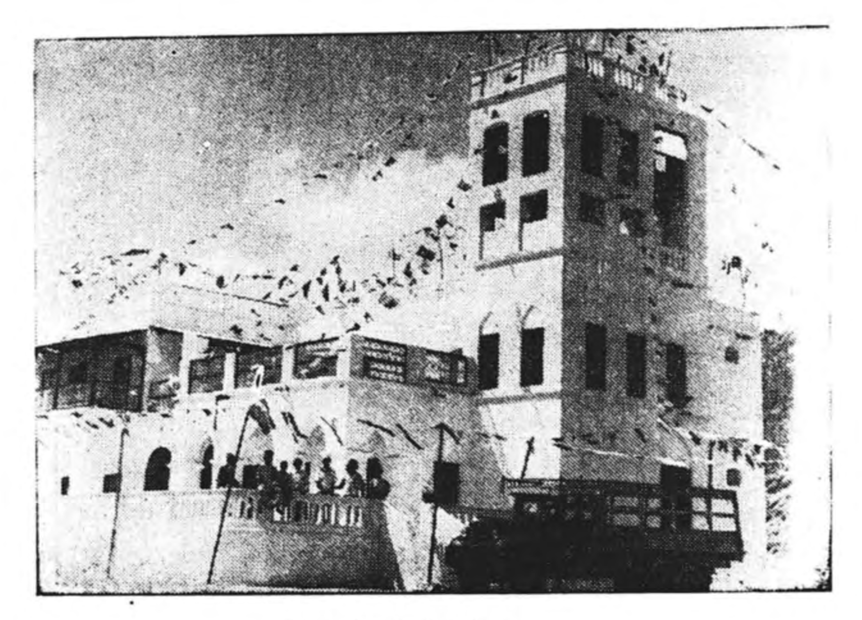
فرقة التخاطب بالإشارات فى جيش الحكومة القعيطية بالمكلا



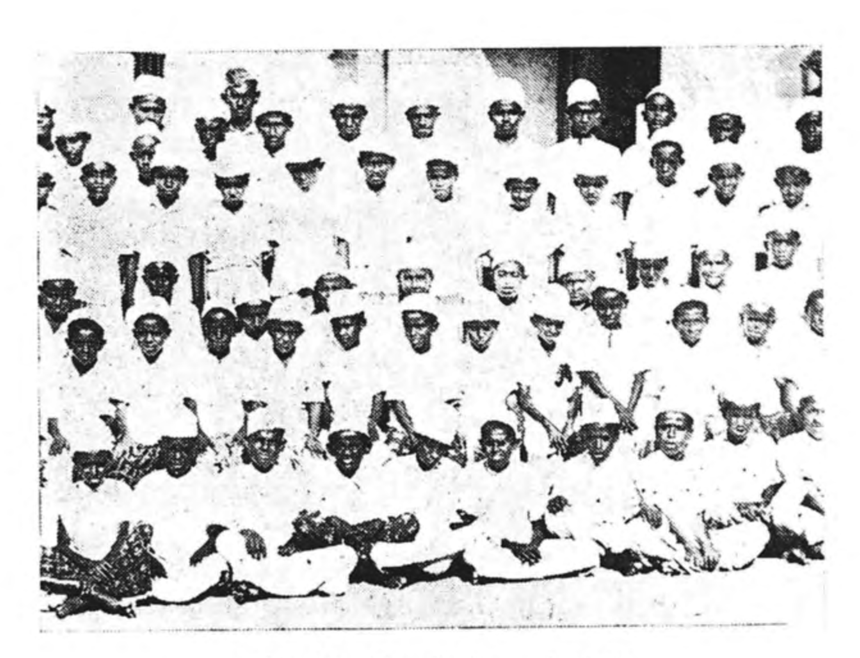
تلميذات مدرسة « بنات البادية » بالمكلا ويرى فى الوسط مدير المعارف الشيخ القدال



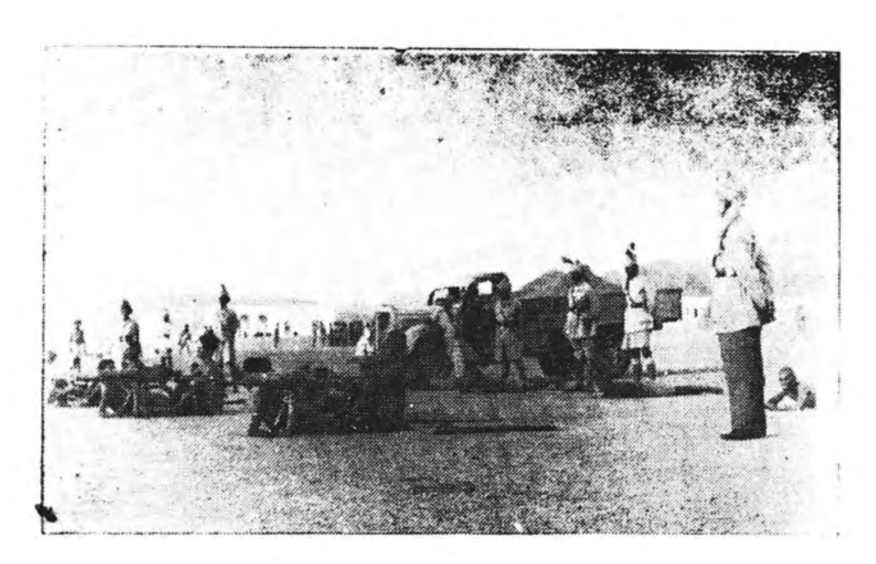
« نظام المشروع » فى مدرسة « أبناء البادية » بالمكلا



مصيف السلطان فى الحرشيات



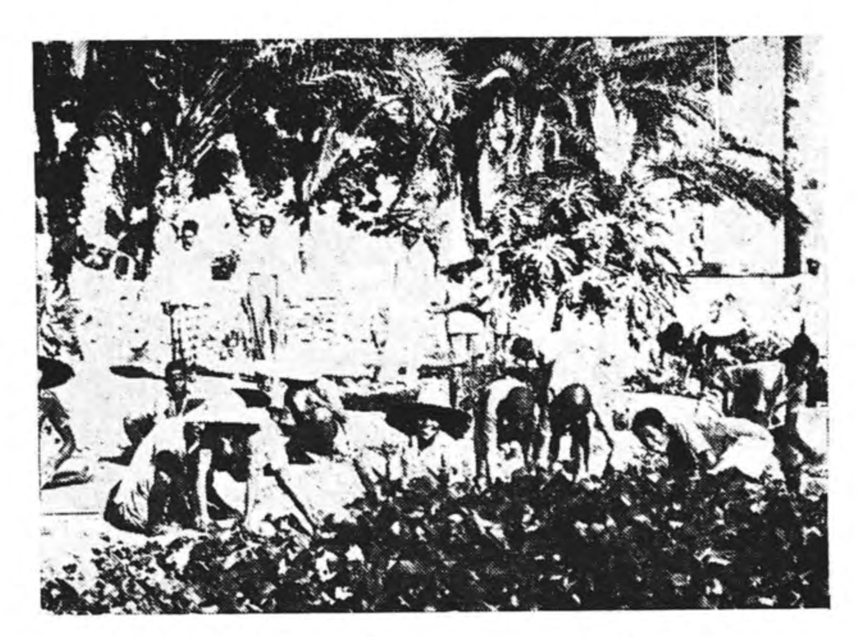
تلامذة المدرسة السلطانية الابتدائية بالمكلا



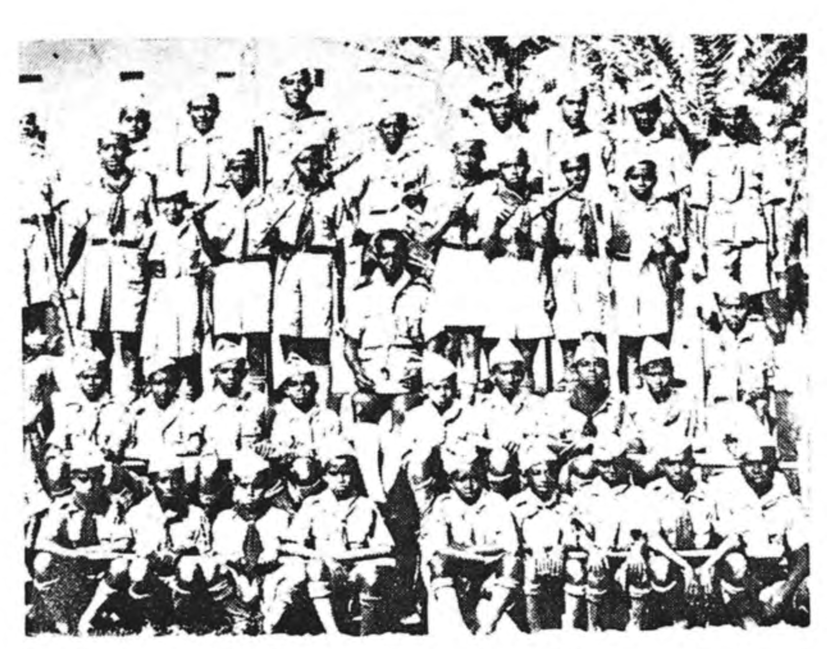
من مدفعية جيش الحكومة القعيطية بالمكلا



من مدفعية جيش الحكومة القعيطية بالمكلا



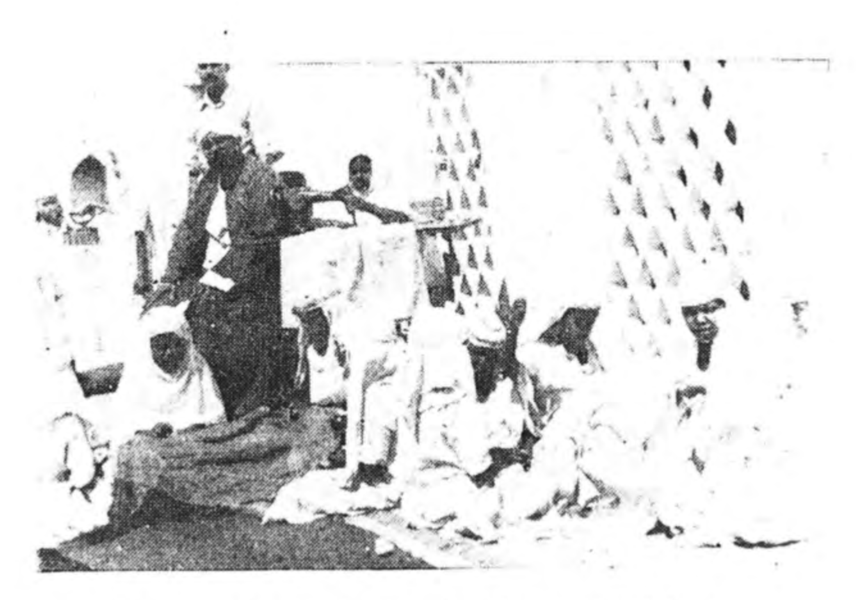
« نظام المشروع » فى المدرسة الوسطى بفيل باوزير



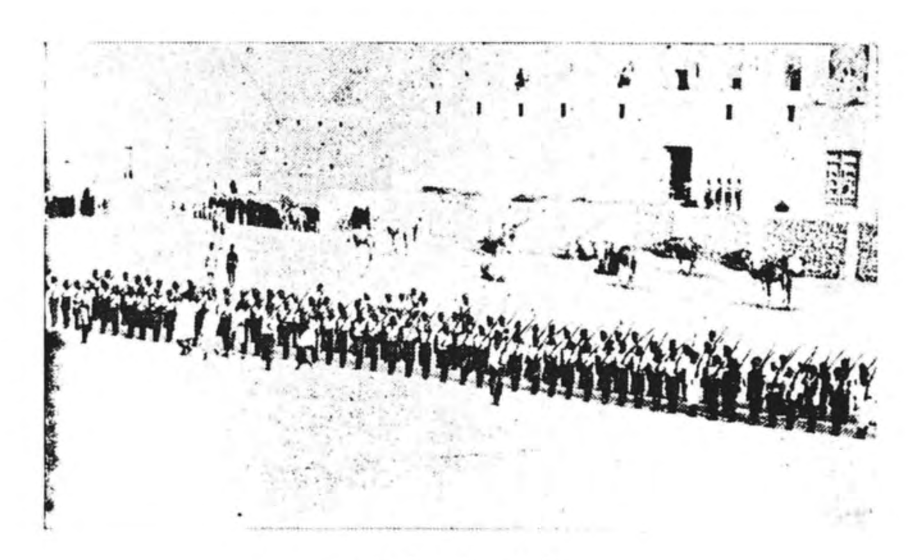
فرقة الكشافة بالمدرسة الوسطى بفيل باوزير



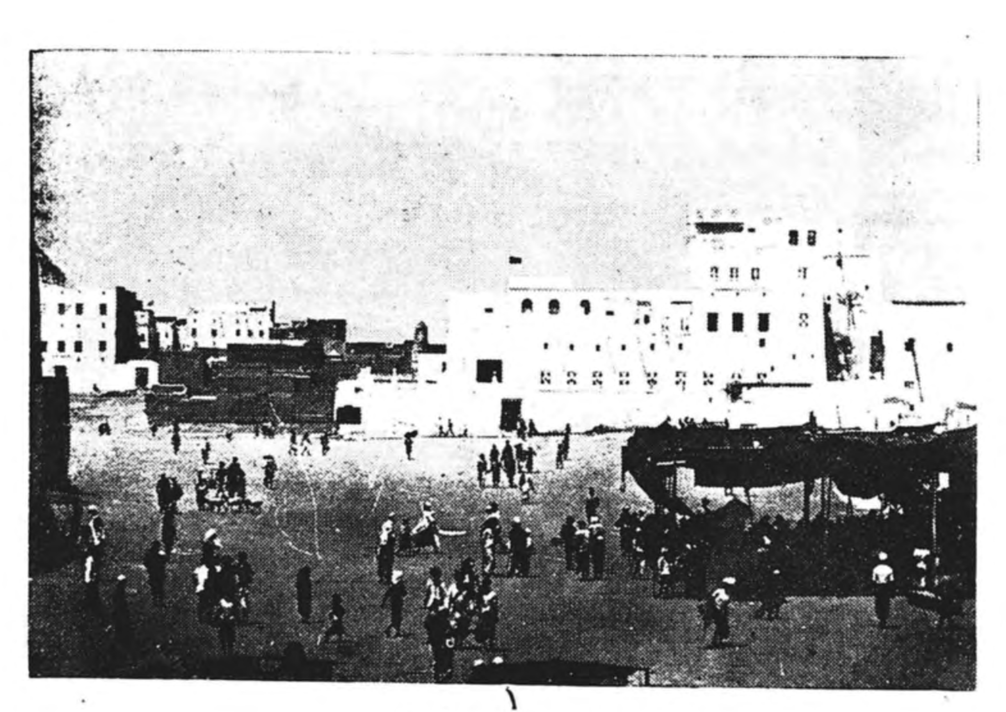
تلامذة مدرسة « أبناء البادية » بالمكلا
ويرى فى الوسط مدير المعارف الشيخ القدال ومن حوله مدرسو المدرسة



قسم التطريز وتفصيل الملابس فى مدرسة « بنات البادية » بالمكلا



البوليس المسلح فى الشحر



١
جانب من مدينة الشحر

ويتدرج الطريق بين صخور منحدرة انحدارا عنيفا ، وتلتوى حتى تصل إلى هضبة يبدو أنها من الحجر الجيرى المرجانى . وتقوم هناك مجموعات من البيوت ، أهمها قرية الحرشيات ، وبها أفخم مصيف جديد لعظمة السلطان ، وغالبا ما يقضى عظمته فيه يوم الجمعة من كل أسبوع ، وهو يطل على ثلاثة طرق رئيسية هامة ، ولذا فموقعه الحربى هام جدا ، وعلى مقربة منه يقوم حصن « خازوق » التاريخى حيث حدثت حوله معركة فاصلة بين يافع وآل كثير ، وقد اهتم به المستر انجرامس مستشار الحكومة القعيطية الأسبق ، فرممه وطلى جدرانه من الخارج باللون الأحمر . وهناك حصون صغيرة قديمة مبنية من الطين النىء ، قد تساقطت شبابيكها وبعض أبوابها تحت هجمات عوامل التعرية ، وسيأتى يوم تصبح فيه أكواما من الرمل .

وتركنا منطقة المكلا الصخرية ، وانحدر بنا الطريق إلى مدخل للبحر قد أوغل فى اليابس ، تقع عليه قرية بويشن ، ويزرع الموز فى هذه الجهة فى حافة الحقول ؛ وفى الوادى الذى يدخل فى البحر بالقرب من بويشن توجد أشجار نخيل كثيرة ، وأشجار فواكه أخرى ونباتات أخرى ، يملكها بعض سراة المكلا ، ولا يزيد عمق الآبار التى تروى منها الحقول هنا عن عشرين قدما . وأعلى الساحل بين بويشن والمكلا تقع روكب المشهورة بكثرة الذباب . ويعلو الطريق ثانية ، وتقع البصرة فى أعلى هذا الوادى قليلا . والمسطحات الجيرية المرجانية تمتد أعلى من مستوى الأرض حيث تنمو الشجيرات ، وتغطى شجيرات البخور رقعا واسعة أيضا ، وتمتاز هذه برائحتها النافذة وبأن لا أوراق لها أو بأن أوراقها صغيرة جدا . وتنمو بعض أشجار اللبخ الطويلة ذات الأزهار المستطيلة منتثرة هنا وهناك بين الشجيرات الحمراء التى تنمو فى الأرض الصخرية العارية .

ومرت بنا السيارات على مقربة من مطار الريان ، وفى حضرموت حوالى ثلاث مطارات بناها السلاح الملكى الإنجليزى فى الحرب العالمية الثانية ، وهناك

حرس مسلحون من يافع ، يبلغ عددهم حوالى ثلاثين ، و بئر يشرب منها موظفو المطار وحرسه .

و ينحدر الممر إلى وادٍ حيث يلتقى و يختلط ماء عذب من غيل باوزير وماء ملح من البحر ، وتقع شُحَيْر على الشاطئ الآخر ، ومنازلها صغيرة مبنية من الطين ، وتقع دار الحكومة على تل مرتفع به جماعة من الحرس المسلح ، وماء الشرب فى هذه القرية ملح ؛ وليس هناك مايلفت الأنظار سوى منزل السيد صالح على الخلاقى الذى يقع وسط حديقة غناء مليئة بأشجار الموز والتين والليمون وجوز الهند ، وتروى الحديقة من نبع غزير يقع على مقربة منها ينحدر ماؤه فى قناة و يصب فى حوض واسع ، ومن هذا الحوض يسيل الماء فى قنوات صغيرة إلى أنحاء الحديقة ، و بداخل المنزل حوض صغير للسباحة . والسيد صالح على الخلاقى كان ولا يزال يرافق السائحين الأجانب الذين يذهبون إلى حضرموت للبحث عن الآثار ، ولذلك فقد اكتسب خبرة واسعة بالآثار القديمة ومناطقها وطريقة البحث عنها ، ولديه مجموعة منها لا بأس بها ، ولو كان احتفظ بكل ماعثر عليه من الآثار لأصبح لديه متحف أثرى ثمين ، ولكنه كان يهدى معظم مايعثر عليه لأصدقائه من السائحين الإنجليز . وكان ياورا للمرحوم السلطان عمر بن عوض القعيطى . وعند عودتنا من الشحر للمرة الثالثة نزلت ضيفا عليه وقضيت ليلتين فى منزله الجميل استطعت فى خلالهما أن أقرأ تاريخ « ابن حميد » كله ؛ والكتاب مخطوط ونادر الوجود ، وهو عبارة عن سجلٍ لمجموعة من الحوادث وأنباء تاريخية ؛ و يلاحظ أن النصف الثانى من الكتاب يختلف كل الاختلاف فى أسلوبه ونظام وضعه ، وفى طريقة عرض الحوادث التاريخية ، ولذا فلا بد أن يكون هذا الجزء منسوبا لابن حميد ، وهو من وضع أحد الأشخاص الذين كانوا يتزلفون لسلاطين آل كثير و يتوددون إليهم بصبّ التهم وخلق المفتريات على يافع . وكل من يقرأ هذا الجزء

أو الثلث الأخير من الكتاب يلمس فى كل جملة بل فى كل كلمة حقدا و بغضا ليافع .

فى الجنوب الشرقى لشحير ووراء الهضبات المرجانية على طول الساحل حوض واسع ضخل يمده بالماء مجرى ينبع من الجبال الواقعة خلف مسطحات الساحل . هذا الحوض والقطعة من الأرض الصالحة للرى هما أهم بقعة لزراعة الدخان الحمى ، وهذا النوع من الطباق لا تجود زراعته إلا فى الغيل حيث تلائمه التربة والمناخ و يتقن الناس زراعته ؛ وقد حاول البعض زراعته فى لحج واليمن ، فلم يحصلوا إلا على نوع آخر أقل مرتبة من الحمى فى نكهته . وفى الغيل يسمد الطباق ثلاث مرات بأسمدة مختلفة فى كل وقت و بقدر محدود ؛ ففى المرة الأولى يسمد ببراز الطيور ، وفى الثانية بالسمك ، وفى الثالثة بالمواد البرازية المختلفة من الإنسان والحيوان . و يصدّر معظم المحصول إلى عدن ومصر ، ومنها إلى سوريا وأقاليم البحر الأحمر ، وهم يحصلون على الأسمدة إما من الصومال أو بالقرب من بئر على . والشجرة تجفف بورقها وساقها وفروعها ثم تقطع إلى شرائح صـــغيرة ثم تضم إلى بعضها فى حزمات تزن الواحدة منها ٣٠٠ رطل ، وهى حمولة جمل ، وثمنها من : ١٣٠ إلى ٢٠٠ ربية .

وتقع مدينة الغيل التى تحمى مدخل هــذا الوادى الخصيب فى حافة الهضبة المرجانية . وحين يقترب المرء آتيا من شحير أو من الشاطئ يبصر بجلاء حدائق النخيل وجوز الهند ، وسرعان ما يجد المرء أمامه جداراً عالياً فيــه بوابة كبيرة محصنة تغلق ليلا ، وبالقرب من البوابة و يسمونها « السدة » يقوم قصر السلطان الرازح الناهض إلى ارتفاع كبير ، و يستعمل الدور الأول اليوم ثكنة للجنود ، وفى الدور الثانى المدرسة الوسطى والمدرسة الابتدائية الحكوميتان .

وانطلقت بنا السيارات داخل شوارع الغيل الضيقة إلى المزارع الملكية بالقرب من المدينة ، حيث يمتلك عظمة السلطان مساحات واسـعة منها ؛ وقد ابتنى لنفسه

قصرين محوطين بحديقة جميلة للمصيف : أحدهما صغير للرجال ، وهو الذى دخلناه والآخر كان يستعمل للحريم. وحينما دخلنا رأينا أمامنا حديقة غناء ، بها كل الفواكه التى تنمو فى حضرموت ، وظل أشجارها وارف ، وقبالة القصر توجد بركة للعوم طولها ٣٠٠ قدم فى عرضها ، وعلى مقربة من صفحة مائها الرقراق جلسنا على كراسى وثيرة نأكل ماطاب ولذ من الفواكه ، ونشرب ماء جوز الهند الطازج ؛ وقد اندفعت أنا وصديقى السيد على بن أبى بكر العطاس نعق منه فى غير رحمة ، وقد ذكرنا بجاوه فردوس الشرق ، حيث تكثر غاباته وتجود زراعته ، وأخذنا نتكلم بلغة الملايو .

وفى تلك اللحظة أخذت ديمقراطية جلالة السلطان تتجلى بأجمل مظاهرها ، وأدركنا أنه إذا كان السلطان قد أعفانا من القيود الرسمية ، فعلينا من ناحيتنا أن نتجنب كل ما من شأنه أن يذهب برونق الاستجمام الذى ينشده ، وقد تبسط فى الحديث وعلى الأخص مع السيد أحمد بن حسين العطاس منصب المشهد الذى كان يضحكنا بظرفه وخفة روحه ، ولا غرو إذا أحبه كل من عرفه ، ويزيد ظرفه حينما يعاكسه صديقه السيد أحمد بن ناصر البطاطى اليافعى ، وبعد أن تناولنا الغداء استأنفنا السفر إلى الشحر ، واندفعت بنا السيارة من باب الغيل فى طريق غير ممهد ، فقد اعترضتنا قنوات مليئة بالماء ؛ وكانت السيارات تجتازها فى شىء من الصعوبة ، ويلاحظ أن الأراضى التى تقع بين الشحر والغيل رخوة ، ومعظمها صالح للزراعة .

وبالقرب من الشحر رأينا صخورا مرجانية ناتئة عن الرمال . وتقع الشحر على سطح متسع من الشاطئ الذى ينحدر تدريجياً إلى البحر ، ولهذا ترسو السفن بعيدا عنه لضحولته ، وبالشاطئ كثبان رملية يبلغ ارتفاعها من ٢٠ إلى ٣٠ قدما ، وفى أوقات المد يرتفع الماء حتى يجرف بعض هذه الكثبان .

وباب المدينة كبير ، ولكن ليس به ذوق فنى ، ولما دخلنا فوجئنا برائحة

كريهة ناجمة عن السمك المتعفن ، ومررنا ببيوت غير مسكونة و بخرائب عديدة . وتقع أبنية الحكومة فى أقصى الغرب وعليها مسحة من الرواء ، ولا شك أن شرفاتها المسقوفة خير مايلائم رطوبة الجو فى الشحر . وعلى مرتفع من الشاطئ تقع القلعة القديمة ، وقد عملت بها إصلاحات حديثة ، وفى الدور الأول بها مدرسة ابتدائية حكومية . وإلى الشرق يمتد سهل متسع به المقابر بقبابها الشاهقة ومساجدها العديدة .

ومن يلقى نظرة عامة على الشحر يجدها صورة من صور القرون الغابرة ، ولا شك أن انصراف الحكومة عن تعميرها وعدم اهتمامها بمستقبلها وإحجام الأهالى عن إصلاحها ، كل ذلك أعظم سبب للحالة المحزنة التى صارت عليها . ومنذ عهود واغلة فى القدم كانت الشحر أكبر ميناء فى جنوب الجزيرة العربية ؛ ولما تولى عرش مصر سنوسرت الذى يدعى سيزوستريس احتفر القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر ، وأرسل سفنه إلى جنوب الجزيرة العربية ، فازدادت أهمية الشحر وعظم مركزها الاقتصادى ، ولما مات سيتى أهملت القناة ، فانكمشت الملاحة ، غير أن هذه الحالة لم تستمر طويلا ، فقد جاء فى التوراة كتاب الملوك الأول ، سفر ٤ اصحاح ٣٣ عدد ٣٥ ، ٣٦ أن ملك أورشليم سليمان أنشأ السفن فى عصيون جابر على مقربة من أيلة (العقبة) من بلاد أدوم (إيدوميا) فانتعشت الشحر بعد ذلك ، وازداد نشاطها التجارى .

كان معظم الأهالى قد خرجوا لزيارة قبر ولى كما هى عادتهم فى كل عام ليؤدوا له تحية العيد وليستنزلوا بواسطته البركات ، ولذلك لم يكن عدد المستقبلين كثيرين ، وكان يجب أن يكون الاستقبال لصاحب الجلالة أعظم من ذلك ، وأروع منظرا ، وأشد حماسة ، وأكثر تعظيما لأنهم كانوا يعلمون كل العلم أن عظمة السلطان مامن شك قادم فى ذلك اليوم ، ولكن لسوء الحظ أن الخرافات لاتزال تهيمن على عقول كثير من الناس والعادات السيئة متغلغلة فى نفوسهم .

وجوهر العلة فى ذلك الجهل بحقيقة روح الإسلام وإساءة تطبيق تعاليمه ، فالدين ينهانا عن التوسل بالقبور والأحجار والأشجار والرقى والتمائم. نزلنا فى القصر السلطانى وقد استقبلنا ، والى الشحر السيد أحمد عمر باصره ، وهو على جانب عظيم من النشاط والذكاء وقوة الشخصية وكرم الأخلاق ، وله فى قلوب قبائل لواء الشحر مقام كريم ، وتستفيد الحكومة القعيطية من خدماته إلى حد كبير ، ووقف أمام القصر ثلة من الجند وأدوا التحية لصاحب العظمة السلطان ، وبعد فترة من الزمن جاء كثير من الأعيان للتشرف بزيارة صاحب العظمة ، وامتلأ القصر على سعته بالزائرين .

وتاقت نفسى لمشاهدة أحياء المدينة وشوارعها ومنازلها ومتاجرها ، وهمست بتلك الرغبة المكبوتة فى أذن صديقى السيد علوى بن أبى بكر العطاس فخرجنا نجوب الشوارع والأزقة سيراً على الأقدام وقد بدأ الليل ينشر ظلامه على سماء الشحر ، ولكن ذلك لم يمنعنا من متابعة السير حتى إذا آن أوان العشاء عدنا إلى القصر فوجدنا القاعة مليئة بالزائرين ، وقد أخذ كثير منهم يسألوننى عن مركز مصر الأدبى والسياسى ، ومكانتها فى الشرق وعلى الأخص فى الأقطار العربية ، وما تبذله من جهود للوحدة العربية ، وهى أسئلة قد ألقيت علىّ من معظم المثقفين شيوخا وشبانا فى المكلا ، وفى كل حفل تكلمت فيه عن مصر وخدماتها العلمية للبلاد العربية ، ولقد لاحظت أن لمصر مكانة سامية فى قلوب الحضارم ويتمنون أن تحقق جميع أمانيها وتنال مطالبها كاملة غير منقوصة .

بعد قليل أقبل عظمة السلطان من الجناح الخاص به إلى قاعة القصر فنهض الجميع تحية وإجلالا ، ولم يشأ عظمته أن يكون وجوده سببا فى تغيير شئ من برنامج السهرة وتقاليد العيد . فأخذ يتحدث مع الحاضرين بما عرف به من ديمقراطية ، ويداعب منصب المشهد السيد العطاس ، وبعد تناول العشاء وقبيل أن تنتهى السهرة غادر السلطان القاعة فودعه الحاضرون وداعا حافلا ، والحضارم جميعا من أغنياء وفقراء كالهنود يفضلون تناول الطعام بأيديهم بعد غسلها ولا يستعملون الشوكة والسكين

حتى فى أفخر الولائم وأعظم الموائد، ولا يصح أن نعزو ذلك إلى تأخر أو جهل بضرورة استعمال هذه الأدوات ، فقصور أمرائهم و بيوت أغنيائهم عامرة بمختلف أنواعها الفاخرة و إن لم يستعملوها ، ولكنهم يأكلون بأيديهم لأنهم يؤمنون بأنها طريقتهم الوطنية الشرقية ، فلا يصح التخلى عنها من أجل عادات غربية تافهة فى نظرهم .

وتدفع الحضارمة هذه الروح أيضاً إلى التمسك بزى خاص بسكان الجزء الجنوبى الشرقى لجزيرة العرب : حضرموت ، عدن ، لحج — و يتكون من إزار يغطى نصف الجسم الأسفل وسترة على قميص وعمامة وحذاء . ومن النادر أن ترى رجلا يلبس الزى الأفرنجى ، ولم يكن ظهورى بالزى الأوربى يثير شيئاً من الدهشة ماعدا فى البوادى التى مررت بها .

والمرأة محتجبة لا ترى شيئاً من جسمها ، لأنها عندما تخرج من منزلها تلبس جلباباً أسود يغطى جسمها كله ، وعلى وجهها نقاب شفاف ، وفى بعض المناطق : كدوعن وعمد ونهد تستعمل النساء البراقع ، وتشبه البراقع التى تستعملها بعض النساء (البلديات) فى مصر .

و يفضــل الناس الجلوس على الأرض على فرش وثيرة ، وسجاجيد فاخرة ، ولـكن فى دوائر الحـكومة يجلس الموظفون على الـكراسى .

فى صباح اليوم الثانى ذهبت أنا و بعض الأصدقاء لزيارة بعض الشخصيات البارزة أمثال السادة : عمر هرهرة ، وناصر مخارش وغيرهم ، وزرت المـكتبة السلطانية التى أنشأها عظمة السلطان ، وهى فى أشد الحاجة إلى المساعدة الأدبية ، وقد أهديتها نسخة من كتابى « تاريخ حضرموت السياسى » .

حفلة أهل الشحر

وأقام الأهالى على اختلاف طبقاتهم حفلة عظيمة أمام القصر تكريماً لمولانا السلطان ، وقد أقبلت الجماهير تتدفق على الميدان ، حتى استحال على سمته كتلة

بشرية واحدة حجبت أرضه عن الأنظار ، ولما ضاق الميدان بجموع الشعب انتشرت فى الشوارع المؤدية إليه والمتفرعة عليه ، وبعد قليل أقبل السلطان ، وما كادت الجماهير تبصره حتى تأججت نار حماستها ، فإذا الميدان يتحول إلى عاصفة من التصفيق ، وكان التصفيق مزيجاً من الدعاء والاغتباط والحماسة ، فكان تصفيقاً ينفذ إلى القلوب قبل أن يصل إلى الآذان . وعلت زغاريد النساء على أنغام الجوقة الموسيقية ، وأخذ السلطان يردّ لشعبه الوفى التحية برفع يده إلى رأسه تارة وبالتلويح تارة أخرى ، وقد تجلت على وجهه المشرق أمارات الغبطة والسرور . وقامت فرقة من الجيش بتمرينات رياضية . واصطف تلاميذ المدارس فى الميدان واشتركوا فى تحية عظمته ، وتكلم بعض الخطباء ، وألقيت كلمة تناسب المقام .

حفلة الغيل

وفى صباح اليوم الثالث عدنا إلى غيل باوزير ، ولم تكن حفلة أهل الغيل بأقل من حفلة الشحر فى روعتها وبهائها ، وأبرز شىء فيها الألعاب الرياضية التى قام بها تلاميذ المدرسة الوسطى والمدرستان الابتدائيتان والتى حازت إعجاب جميع الحاضرين . وليس من شك أن الفضل فى ذلك يعود إلى مدرسيهم الذين دربوهم على هذا اللون الرائع من ألوان النشاط المدرسى .

بعد انتهاء الحفلة عدنا إلى القصر السلطانى ، وبعد المغرب جلسنا فى شرفة القصر التى تطلّ على حوض السباحة نتمتع بسماع أنغام الجوقة الموسيقية تحت إشراف مديرها ومعلم الموسيقى الميجر السيد داسواندى خان . وكان عظمة السلطان يستمع إلى الأنغام بشغف واهتمام ، ولا غرو فإنه من محبى الفنون الجميلة .

فى صباح اليوم الثانى عدنا إلى المكلا ، وكانت الرحلة ممتعة جـــدا ، تركت فى نفسى ذكريات حلوة لن تزول .

رحلة إلى ريدة الصيعر

طلب إليّ مرافقة المستر برادلى الذى أتى من عدن للتفتيش على مدارس الحكومة القعيطية بالنيابة عن إدارة معارف عدن فقلت فى نفسى « هذا المسجد الذى نصلى فيه » و « حاجتين فى جراب » وهما من الأمثلة الحضرمية العامية : فالأول يقال للشيء الذى يأتى وفقا لرغبة الإنسان ، والثانى للحصول على فائدة مزدوجة فأنا بمرافقتى للمستر برادلى سأقف على سير التعليم وسآخذ فكرة واضحة عنه وفى نفس الوقت أشاهد مُدُنا لم أرها من قبل .

مكثت فى المكلا أسبوعين فى انتظار نائب معارف عدن ، وفى خلال هذه المدة زرت دواوين الحكومة كالسكرتارية والمستشارية والمالية والجمرك والقضاء بنوعيه المدنى والشرعى والشرطة المسلحة والجيش النظامى وغير النظامى وجيش البادية والسجن والمستشفى ، كما زرت إدارات الأحزاب وغرفة المعلمين والمدارس الحكومية والأهلية ، ومدرستى بنات البادية وأولاد القرية فشاهدت تقدما محسوسا فى أوضاع الحكومة وفى نظم أعمالها وفى سير التعليم وإقبال الشعب عليه . رأيت انقلابا فى تفكير الشبان والشيوخ ، رأيت فيهم الأمل الباسم والجدة والنضارة والرغبة الملحة فى تحصيل العلم .

ولقد أعجبت أيما إعجاب بالنشاط المدرسى فى مدرسة بنات البادية وبنظام المشروع بمدرسة أولاد القرية ، فالتلميذات مع صغر سنهن يتقنّ التطريز والتفصيل والخياطة ، وليس هذا فقط فقد اختبرتهن فى القراءة والكتابة والقواعد فوجدت مستواهن العلمى مرضياً . ولم يدر بخلد أحد أن تصبح تلك البدويات اللاتى ولدن بين الصخور وفى الكهوف وتحت أشجار النبق والنخل تلميذات مهذبات يلبسن الملابس النظيفة وينمن على فرش وثيرة ، وفى غرف صحية . لم يطرأ على بال أحد أن تلك البنات اللاتى عشن فى جو مكفهر بالجهالة والضلال وفى وسط معزول عن الدنيا

لايتصل بالعالم الخارجي كثيرا ولا قليلا يجلسن اليوم على مقاعد يتعلمن على أيدى مدرسات مثقفات ومدرسين مثقفين القراءة والكتابة واللغة العربية وقواعدها والأعمال اليدوية وشيئا من علوم التاريخ والجغرافيا وقواعد الصحة والدين . وحبذا لو ترسل الحكومة القعيطية بعثة من خريجات مدرسة بنات البادية إلى مصر أو سوريا أو العراق لمواصلة الدراسة الثانوية والعالية ليعملن بعد عودتهن لنهضة المرأة الحضرمية ويقمن بدور مجيد فى الجهاد الأدبى والاجتماعى . وليس من شك أنهن سيتفوقن فى كل شىء على بنات المدن اللاتى يحول الحجاب دون التحاقهن بالمعاهد العلمية .
والقوم بالغوا فى الحجاب ، فقد شاهدت بنات محتجبات وهن دون العاشرة من عمرهن وبالطبع لم أتمكن من زيارة مدرستى البنات فى المكلا وسيون ولم أحاول زيارتهما لأنى أعلم أن التقاليد تحول دون ذلك، وهم يعتقدون أن المبالغة فى الحجاب تحفظ أخلاق المرأة من التحلل والانهيار وتمنعها من الانزلاق فى مهاوى الفساد . والحق أن الحجاب لايحول دون تسرب الرذائل إلى البيوت مهما بالغوا فيه وتمسكوا به كل التمسك وإنما الذى يمنع التحلل الخلقى هو التربية المنزلية، فالآباء والأمهات هم الذين يغرسون الأخلاق الكريمة وينمون الصفات الحميدة فى أولادهم ؛ فالمنزل هو المدرسة الأولى التى يتعلم الطفل فيها الأخلاق الكريمة أوالسيئة ، وهو كالإناء ينضح بما فيه ، لست من دعاة السفور ولن أكون يوما من أنصاره ولكنى أحب الاعتدال . والإسلام منحنا من الشرائع الرشيدة ما يكفل لنا العدالة والرقىّ والفلاح ، الإسلام اعترف بمقام المرأة فى المجتمع ومنحها من حقوق التعلم والتعليم والتجارة والزراعة والصناعة ما يرفعها فوق هامات الأخريات ، ولكننا لسوء الحظ أغمضنا عيوننا عن هذا الخير العميم واستعضنا عن الجوهر بالعرض وشغلتنا المظاهر والتمسك بالأعراض عن واجبنا الحقيقى الذى يمليه علينا روح الدين .

الرحيل

في صباح اليوم العاشر من سبتمبر انطلقت بنا السيارة بين الوهاد والجبال والتلال وكان السيد برادلى كثير الصمت قليل الكلام هادئا رزينا نشيطا ، وهى صفات حميدة تظهر بوضوح فى الإنجليز أكثر من غيرهم من الشعوب . أما السيد عبد الله الناخبى فمحب للحركة والنشاط والكلام ، يندفع إلى العمل كل الاندفاع ، وقد يرهق نفسه بالأعمال من غير رحمة ، وهو علاوة على إشرافه على إدارة التعليم بالنيابة يشرف على إدارة المكتبة السلطانية ، وليس هذا فقط ، فهو عضو فى جمعيات كثيرة ، ويكاد لايمر يوم دون أن يحضر اجتماعا .

وصلنا شحير وذهبنا إلى دار السيد صالح الخلاقى اليافعى ، وشاهدنا مجموعة من الآثار القديمة ، وهى ألواح من الصخر الجيرى ومن الرخام عليها كتابات حميرية . وفى الساعة العاشرة زرنا مدرسة شحير الابتدائية الحكومية ، وتتكون من أربعة فصول وبها مدرسان .

المدرسة الوسطى

واستأنفنا سيرنا إلى الغيل ، وذهبنا رأساً إلى المدرسة الوسطى ، فاستقبلنا الناظر والمدرسون بكل حفاوة ، وبعد فترة من الزمن شربنا فيها الشاى ، واطلعنا على برنامج التعليم وجدول الحصص ، وزرنا بعض الفرق وشاهدنا المدرسين السودانيين والحضارم يلقون دروسهم على التلاميذ بكل نشاط وإخلاص . وطريقة تدريس اللغة الإنجليزية من أحدث الطرق ، ولذلك فتقدم التلاميذ فى هذه المادة ظاهر بشكل محسوس . وقابلنا الشاب النابه السيد عثمان بن شملان التميمى ، وهو من أعضاء أسرة المدرسة ويقوم بقسط وافر من أعمال المدرسة الإدارية ، وكان من أحسن تلامذتنا فى مدرسة الإرشاد بمدينة سرابايا بجاوه .

وفى المساء شاهدنا معرض الأعمال اليدوية للتلاميذ ومتحف الجغرافيا ، وزرنا جمعياتهم على اختلاف أنواعها ؛ وخلف المدرسة بستان واسع به مساحات من الأرض الزراعية ، وفى هذا البستان يقوم التلاميذ فى أوقات فراغهم بتطبيق نظام المشروع ، فهناك يقوم التلاميذ بحرث الأرض وزراعتها ويتعهدونها بالرى ويلاحظون بأنفسهم الفروق الموجودة بين النباتات ، ويشاهدون أنواع الخضروات والفواكه ويتعرفون أسماءها وخصائصها ، ويجنون ثمار ما زرعوه ثم يتولون بيع المحصول . وتتوزع الأعمال بنظام دقيق تحت إشراف إدارة من التلاميذ مكونة من : رئيس وسكرتير وأمين الصندوق ومستشارين ، ولقد حضرنا اجتماعا للتلاميذ استغرق أكثر من ساعتين ، وكان النقاش شديداً جداً حول القرارات التى وافق عليها معظم الأعضاء ، وكان النظام يسود الجميع ، وقد أعجبنا بهم أيما إعجاب ، والحق أن النشاط المدرسى فى مدارس الفيل وعلى الأخص فى المدرسة الوسطى على خير مايرام من أشغال يدوية مدهشة إلى كشافة منظمة وفلاحة بساتين وتربية دواجن وإصدار نشرة بخط أيديهم . وأهم ما يزرعونه : السمسم ، والبرسيم ، والحناء ، والورد ، والباباى ، والموز .

وليس من شك أن المدرسة الحديثة هى إعداد للحياة ، والحياة هى التى تعلم الحياة ، ولقد سمى الدكتور دكرولى مدرسته فى بروكسل « L'Ecole pour la vie par la vie [1] » .

تقوم المدارس الحديثة فى البلدان الراقية بنوعين من النشاط فى خارج المدرسة وفى داخلها :

ففى خارج المدرسة يقوم التلاميذ برحلات وزيارات للمعامل والورش والمحلات التجارية وشركات المياه والكهرباء ، والتليفونات والسكك الحديدية ، والمستشفيات

---

(١) Hamicde : La Methode Decroly .

والآثار التاريخية ، والمتاحف ، والمناظر الجغرافية والطبيعة بما فيها من نبات وحيوانات .

وفى داخلها يقوم التلاميذ بأنواع مختلفة من النشاط : كاللعب والتمثيل والأشغال اليدوية وفلاحة البساتين وتربية الحيوانات الخ .

هذه الثورة فى التربية غيرت نظام المدرسة من أساسه ؛ فالفصول التقليدية ذات التخت المصفوفة ، والتى كانت ملائمة للتعليم السمعى الذى لايتطلب الحركة والنشاط أصبحت الآن غير ملائمة للتعليم عن طريق النشاط ، لأنه يتطلب العمل والحركة واستعمال الآلات والمواد التى تتطلب أمكنة واسعة ؛ لذلك نرى أن المدرسة الحديثة تستبدل بالفصول التقليدية المعامل والورش والمتاحف والمكاتب والملاعب والحدائق وحظائر الحيوانات .

فى المدارس الحديثة ، وخاصة مدارس دكرولى والمدارس الأمريكية الحديثة مثل مدرسة السيدة جونسون فى قرية Fairhope فى Alabama والمدرسة الأولية بجامعة Missuuri فى كولومبيان يدرسون الطبيعة Nature Study بواسطة الملاحظة خارج المدرسة وداخلها . فيذهب التلاميذ إلى الحقول والغابات ، ويشاهدون النباتات والحيوانات بأنفسهم ، وقد يستعملون الكتب للوقوف على ما أشكل عليهم فهمه ثم يكتب كل منهم ملاحظاته ، وبذلك يقترن درس التاريخ بدرس الكتابة والإنشاء . ويقوم الأطفال بزراعة بعض النباتات فى حديقة المدرسة ، ويلاحظون بأنفسهم هذه النباتات فى أطوار نموها . كذلك يقومون بتربية بعض الحيوانات والطيور فى حظائر المدرسة ، ويلاحظونها يومياً ، ويلاحظون الجو وتغير الفصول وأثر ذلك فى النباتات والحيوانات .

وطريقة الملاحظة تستعمل إلى حد كبير فى تدريس الجغرافيا ؛ فالتلاميذ يشاهدون أكبر مقدار من المناظر الجغرافية : كالأنهار والبحيرات والبحار ، والجبال

والسهول والوديان ، وشروق الشمس وغروبها ، وكذلك يشاهدون البلاد ومراكز الصناعة والتجارة والمعامل والجمارك الخ .

التمثيل

وهو من أهم أنواع النشاط المدرسي في المدرسة الحديثة ، وأحسن وسيلة لتدريس التاريخ واللغة وآدابها ، بشرط أن لا يمثل التلاميذ قصة معدة على مسرح معد بملابس مستأجرة ، بل يكون كل شيء من عمل التلاميذ أنفسهم ، وتكون القطعة التمثيلية دائرة حول شخصية تاريخية .

ومدرسة (فرنسيس باركر) من المدارس التي تستخدم التمثيل في تدريس التاريخ ، فتلاميذ السنة الرابعة يدرسون تاريخ اليونان ، يبنون بيوتاً على الطراز اليوناني ، ويفصلون ملابس يونانية ويلبسونها في الفصل ، ويصنعون تماثيل لآلهة اليونان ، ويمثلون موقعة ترِوادة أو أي قطعة من تاريخ اليونان[1] وبهذه الطريقة تكون الحوادث التاريخية التي يمثلونها كأنها جزء من حياتهم ، لأنها أصبحت كأنها من تجاربهم ، فتصير غير قابلة للنسيان .

والتعليم بواسطة التمثيل له قيمة اجتماعية ، لأن المدرسة من الكتاب هي عمل فردي وغير اجتماعي . أما قيام الفصل بتمثيل أي شيء ، فهو عمل اجتماعي ومظهر من مظاهر التعاون . والتمثيل يحتاج إلى إجادة النطق ، وعلى ذلك فتمثيل التاريخ ذو فائدة من جهة اللغة .

والتمثيل يمكن أن يستعمل في درس المطالعة للمبتدئين ، فيقوم كل طفل بقراءة جزء خاص من القطعة أو القصة عن لسان شخص معين أو حيوان معين . وتمثيل القطعة على هذا النحو يسهل فهمها ويساعد الأطفال على إجادة النطق .

---

(١) Dewey : Schools of Tomorrow P. 124 .

الأشـــغال

وهناك نوع ثالث من النشاط فى المدرسة الحديثة ، وهو الأشغال اليدوية : كالنجارة والصلصال والقش والنسيج والمصنوعات الجلدية والحياكة والتطريز ، وهـذه يتعلمها التلاميذ فى ورش خاصة ، والعادة أن تكون لتلك الأعمال أوقات معينة ، ولـكن للتلاميذ الحرية بعد ذلك فى دخول هذه الورش فى أوقات الفراغ . وهذه الأشغال اليدوية ذات فوائد عظيمة فهى :

١ — خير وسيلة للتوجيه المهنى للتلميذ ، لأنها تكشف عن قدراته وتظهر ميوله (١) .

٢ — تزيد معرفة الطفل بالمواد وخصائصها .

٣ — تفيده من الوجهة الصناعية .

٤ — يستفيد خبرة بآلات العمل .

٥ — يستفيد اقتصادياً ، إذ يقوم بنفسه بعمل بعض الأشياء اللازمة للمنزل .

٦ — يستفيد من الوجهة العقلية بدقة الملاحظة والتخيل .

ومن وسائل التعليم من طريق النشاط ، تعليم الحساب بواسطة أشياء شخصية كالزراير والنقود والقطع الخشبية ، فهذه الأشياء يمسكها الأطفال بأيديهم .

وفى كثير من المدارس وخصوصاً المدارس الأمريكية الحديثة ، لاتدرس اللغة القومية كمادة منفصلة فى حصص خاصة ، بل يتعلم التلاميذ اللغة من : كتابة وقواعد وإنشاء وإملاء عن طريق النشاط المدرسى مثل كتابة تقريرات عن رحلات أو ملاحظات خاصة .

---

(١) Ferrière : L'Ecole Active P. 71-72 .

مزايا التعليم عن طريق النشاط

يقول Binet : « الطفل لايعرف إلا مايعمله » والتلاميذ الذين يعملون شيئاً بأنفسهم يقدرون نتيجته ، والتعليم عن طريق النشاط لايعتمد على الذاكرة وحدها بل على العضلات والنظر والسمع واللمس ، وكل العمليات العقلية مجتمعة . والتلاميذ فى عملهم لايعتمدون على باعث خاص مثل : المكافأة أو الدرجة ، بل يعملون حباً فى العمل ، والتعليم بالعمل تصحبه الفضائل الإيجابية مثل : النشاط والابتكار . وما دام الأطفال لا يعملون لأجل مكافآت ، فمحاولة الغش تقل إلى أدنى حد ممكن[1] .

وأخيراً : فالتعليم عن طريق النشاط مفيد من الوجهة البيولوجية فى نمو الأجسام وتقوية العضلات ، فالطفل فى حاجة إلى تحريك عضلاته واستخدامها لتكون أعظم قوة وأكثر مرونة .

مدرسة القارة

ذهبنا إلى القارة وهى قرية صغيرة على مقربة من الغيل وزرنا مدرستها ثم عدنا إلى الغيل لزيارة المدرستين الابتدائيتين ، وبعد أن شاهدنا التلاميذ فى الفصول ، ورأينا المدرسين يلقون دروسهم . ذهبنا إلى منزل المعلمين لتناول الغداء ، وفى المساء أقام لنا نادى المعلمين حفلة تكريم حضرها كثير من أهالى الغيل ، وألقيت فيها خطب تناسب المقام .

ومدينة الغيل مع صغرها بها مدرستان ابتدائيتان ومدرسة وسطى ، وهى المدرسة الوحيدة بحضرموت ، وهناك معهد دينى لايزال يسير على أوضاعه القديمة ، وقد تخرّج منه عدد من علماء الدين ؛ ولعل الغرض من اختيار الغيل مقرا للمدرسة

---

(١) Dewey. : Schools of Tomorrow .

الوسطى إقصاء تلامذتها وهم فى سن المراهقة من مفاسد المدن ومباهجها . وهم فى القسم الداخلى يراقبون مراقبة دقيقة ، ويوجهون توجيها حسنا ، ويعلمونهم كيف يحافظون على الشعائر الدينية ؛ ولقد أحسنت الحكومة كل الإحسان حيث جعلت الدين مادة أساسية فى المنهج .

وقد صرحت الحكومة الإنجليزية فى مجلس البرلمان أنها تعتزم الاهتمام بالتعليم الدينى نتيجة لمطالبة اللوردات فى مجلسهم بجعل الدين مادة أساسية لا مادة إضافية . فى منهاج مزدحم . وجاء فى الكتاب الأبيض الذى أعدته الحكومة نفسها عن التعليم وسياسته العامة وعرضته على البرلمان الإنجليزى وناقشه البرلمان فى أواخر يوليو وأغسطس سنة ١٩٤٢ أنه لابد من الاعتراف بالمكان الخاص بالتعليم الدينى فى الحياة المدرسية، وأنه يجب أن يكون له مكان أظهر وأبرز فى حياة المدرسة وعملها كما يجب أن يعنى بالتعبدات العملية .

وما أولى حضرموت بأن تحذو هذا الحذو فتهتم بتعليم الدين وبالعبادات العملية فى مدارسها .

والأديان السماوية ــ الإسلام والمسيحية واليهودية ــ إنما نزلت لتدعيم الحياة الإنسانية وترسيخ نظامها الكفيل لها بالبقاء ، والنموّ والسعادة الكاملة . والإسلام خاصة قامت أسسه لتنظيم الإنسانية وإسعاد البشر ، ولهذا نجد أن العرب كانوا فى صحارى بلاد العرب سادرين فى الجاهلية الأولى ، فلما أشرقت عليهم أنوار الإسلام انتقلوا من الهمجية إلى حياة سعيدة حافلة بكل أسباب الكمال والنظام؛ فتيسرت لهم الفتوحات ودانت لهم الفرس والروم ، وأقاموا أمبراطورية سامية الذرى : ذلك لأن الدين ورّثهم أخلاقا كريمة، ونفوسا صالحة ، وأحلاما راجحة . والحضارات الإسلامية التى يفتخر بها التاريخ إنما كانت عناصرها وقوامها النظم الدينية : فلما تهاون المسلمون بتعاليم الدين ، واستخفوا بأسسه وقواعده ، وغفلوا عن روح الإسلام ، تفككت

اربطتهم، وانهار ملكهم ، وذهبت ريحهم ، فأصبحوا نهبا مقسما للمستعمرين .

إننا إذا أردنا لأولادنا الصلاح والتقدم فى حاضرهم ومستقبلهم ، وجب علينا أن نطبعهم على مبادئ الدين الأولى، وأن نجعل لهم كتاب الله دستوراً يسيرون على نهجه ، وأن نلقنهم فى أول نشأتهم سير أبطال الإسلام . كما يجب أن ننشئهم على أمهات الفضائل والأخلاق الكريمة : كالتضحية والإيثار والنجدة والوقار والسماحة والجود والدفاع عن حومة الوطن .

ونحن أمة بدائية أو فى فترة الانتقال ، فخليق بنا أن نكوّن جيلنا تكوينا قويا لا طراوة فيه ولا نعومة . يجب أن يكون جيلا خشنا يزدان بالرجولة ، وتتوافر لديه الشجاعة والفروسية ، ونزوده بالأسلحة التى يخوض بها المعركة فى ميادين الحياة ، وننظم حياته بين الدراسات العلمية والعملية : من رياضة بدنية ، إلى تدريب على تحمل أعباء الحياة ، والقدرة على الاضطلاع بالواجب نحو الإنسانية فى محيطها الواسع .

فى الشحر

و بعد يومين قضيناها فى الغيل سافرنا إلى الشحر وزرنا مدرسة «مكارم الأخلاق» ، وتعتبر أكبر مدرسة فى الشحر ، إذ يبلغ عدد تلاميذها ٢٥٠ تلميذاً موزعون على سبعة فصول يتولى تعليمهم سبعة من المدرسين ، ومعظم الفصول صحية ، ولكن تنقصها الأدوات والنظافة والإدارة الحازمة والمعلمون الأكفاء ، ومستواها العلمى ليس بأحسن من مستوى مدارس الشرج والقارة وقصيعر ، وكانت أهلية ثم ضمت إلى الحكومة.

المدرسة الغربية : وتقع على مقربة من القصر السلطانى ، وتتكون من أربعة فصول وأربعة مدرسين نشطين يحاولون بكل مالديهم من مقدرة تطبيق روح التجديد فى التعليم .

فى الحامى

بعد أن تناولنا الغداء فى منزل السيد أحمد بن عمر باصرّه نائب الشحر غادرنا

المدينة فى طريقنا إلى الحامى وانطلقت بنا السيارة بالرغم من التلال والهضاب ، و بعد ساعة ظهرت ديار الحامى؛ وقبيل دخولنا المدينة فوجئنا بروائح السمك تنبعث بشدة من معامل استخراج الزيت من السمك الذى يقال له «القيد» وهذه المعامل بدائية ؛ فهى عبارة عن أحواض صغيرة بها أحجار يوضع عليها السمك و يعرضّ لحرارة الشمس فتذوب فيه المواد الدهنية و ينزل الزيت مختلطا بالدم و يتجمع فى الأحواض و يرسب الدم و يبقى الزيت طافيا ، و بعد أن يصفى يوضع فى براميل ثم يوضع فى صفائح ، و يقدر ما يستخرج من الزيت سنويا من ٧٥ — ١٠٠ ألف صفيحة و يتراوح ثمن الصفيحة بين سبع ربيات إلى عشرة ، وتباع منه مقادير كبيرة فى مصوع والكويت وعدن والبصرة ، و يكثر صيد هذا النوع من السمك فى أكتوبر ونوفمبر وديسمبر إلى حوالى منتصف يناير ، و بعد ذلك يظهر هذا السمك خاليا من المادة الدهنية ولكنه يستخدم فى تسميد الأرض، وتستخرج أنواع أخرى من السمك وأهمها كلب البحر يجفف و يملح و يرسل إلى عدن وسواحل أفريقيا الشرقية ، وتأخذ الحكومة القعيطية ١٥ ٪ من ثمن الصادرات من الزيت و ٢٠ ٪ من ثمن السمك الذى يستعمل للسماد .

وتقع الحامى على البحر ومنازلها متواضعة ، وعدد سكانها لا يزيد عن أربعة آلاف ، وخلفها بساتين النخل وحقول الذرة والبرسيم والسمسم، ترويها قنوات تستمد ماءها من ٢٤ عيناً تتفجر من الجبل الجيرى الواقع فى الشمال الشرقى للمدينة ، ومياهها ساخنة تنبعث منها رائحة الكبريت ولكنها لا تضر بالزرع .

نزلنا فى قصر الحكومة واستقبلنا قائم الحامى السيد بدر بن أحمد الكسادى و بعد أن أخذنا قسطنا من الراحة خرجنا لنشاهد المدينة ومزارعها ، ومررنا على مبنى المدرسة الجديد الذى أنشأته الحكومة ، وتناولنا العشاء وقضينا ليلة فى ضيافة السادة آل الكسادى .

فى الديس

وفى الساعة العاشرة ، و بعد أن زرنا المدرسة قامت بنا السيارة ، و بعد ساعة وصلنا الديس ، وتقع على هضبة مرتفعة وهواؤها معتدل جافّ ، وخلف المدينة غابات النخيل وحقول السمسم والذرة ترويها ٢٥ عيناً جارية طول العام . زرنا مدرسة الديس ، وتتكون من أربعة فصول ، و بها ١٦٠ تلميذا وثلاثة مدرسين ، واختبرنا التلاميذ فى بعض المواد فوجدنا مستواهم العلمى حسناً . ومما هو جدير بالذكر نظافة التلاميذ ، و إقبالهم الشديد على التعلم ، ونسبة ذكائهم تفوق نسب تلامذة كل المدارس التى زرناها ، ومما يؤاخذ عليه قلة اهتمام المدرسة بالنشاط المدرسى .

و بعد زيارتنا للمدرسة ذهبنا إلى منزل قائم الديس السيد حسين مخارش فاحتفى بنا كثيرا .

فى الريدة

و بعد تناول الغداء استأنفنا السفر إلى الريدة واصطحبنا القائم نفسه ، والطريق ممهد ، ولكنه كثير التعاريج والمنحدرات لكثرة التلال والجبال والوديان ومجارى المياه ؛ ومما يلفت الأنظار وجود جبال بها صخور السليكا البيضاء ، وتظهر كأنها ألواح من الزجاج متناثرة على السفوح والمنحدرات، واخترقنا وادى «عيدْ» ، وهو واد طويل عميق تحيط به جبال طاعنات فى السماء ، وفى هذا الوادى رأينا أسرابا من الظباء تمرح بمنتهى الحرية بين أشجار السمر والأراك ونباتات البخور ، وكان هذا الوادى من أشد المناطق خطراً على الأموال والأرواح ، فحوادث السلب والنهب والقتل كانت لاتنقطع ليلا ونهارا . أما اليوم فقد انتشر الأمن فى أرجائه يسير فيه الإنسان وحيدا بالليل والنهار فلا يعتدى عليه أحد ولا يمسسه سوء، وقد قابلنا قافلة محملة بالحبوب والملح يقودها ثلاثة عزل من السلاح ، وفى إحدى أوديته قابلنا شخصا يسير على

قدميه وعلى ظهره صرة ، وكان يغنى أغنية شعبية ترددها بطون الجبال فقلت فى نفسى هكذا يكون الأمن و إلا فلا .

بالأمس ومنذ عشر سنين كان الإنسان لا يأمن على روحه وماله حين يغادر المكلا وحيدا إلى الحرشيات ، أو حين يخرج من مدينة سيون فى طريقه إلى إحدى القرى المجاورة لها . أما اليوم فاذهب أنى شئت واقطع الفيافى والقفار والجبال والوديان فلا يمسك أحد بسوء ، لم تشاهِد حضرموت فى تاريخها سلاما كهذا ، ولم يتمتع الحضرمى بأمن كما يتمتع به اليوم فى عهد صاحب الجلالة السلطان صالح بن غالب القعيطى حفظه الله للوطن ذخراً وملاذاً .

بعد ساعة شاهدنا هضبة سوداء تظهر من بعيد كأنها غابة وسط تلك المرتفعات الماحلة ، وعند ماجئناها وجدناها تلالا من صخور بركانية سوداء ، تشبه قطرانا تجمد أثناء تدفقه وفى هذه المنطقة تقوم قرية «عِيدْ الفايد »وهى مجموعة من أكواخ واطئة لا يزيد ارتفاعها عن ثلاثة أمتار ، ولم نربها سوى نساء وأطفال . أما الرجال فقد هاجروا إلى عدن وغيرها من موانى جنوب الجزيرة العربيـــة لطلب الرزق ، ولا يعودون إلى قريتهم إلا فى أوائل الشتاء حيث يكثر ظهور سمك (العيد) وعند مايقل ظهوره فى أواخر يناير ينزحون إلى مهاجرهم ، و بعد ساعتين دخلنا منطقة مسطحة ليس بها جبال ولا تلال ، وعلى الجانب الغربى منها تقوم بلدة قصيعر بمينائها الصغير، وفى الجانب الشرقى بلدة الريدة ، والمسافة بين البلدين ليست بعيدة .

دخلنا الريدة واخترقنا شوارعها الضيقة المليئة بالرمال ، وفى الجانب الشرقى منها حقول الذرة والسمسم والبلح ترويها مياه الآبار ، وكل الأراضى التى تحيط بها رملية صالحة ، ولا تبعــد مياه الآبار عن سطح الأرض أكثر من ستة أمتار ، ولريدة ابن عبد الودود ميناء صغير ترسو فيه المراكب الشراعية .

نزلنا فى دار قائم الريدة السيد عبد الله عوض مخارش ، وهو من أكثر الرجال

خبرة بشؤون قبائل البادية ، فقد عاش بينهم أكثر من ثلاثين سنة ، وله نفوذ واسع عليهم ويكنون فى قلوبهم من الاحترام له شيئاً كثيراً .

ولد بمدينة شبام سنة ١٣٠٦هـ ، وسافر إلى جاوه وهو صغير ؛ وفى سنة ١٩٠٧م عاد من جاوه إلى حضرموت وأقام فى الريدة وكانت تابعة لقصيعر ، وفى سنة ١٣٣٤ عين قائماً بها ، ويخضع لنفوذه فى مناطق الريدة نحو ١٧ قبيلة ، وهى قبائل كَثِيرِى وَثِعْيَنْ وَمِنْهَالِى وغيرهم . وأهم المناطق التابعة للريدة « شَخَاوِى » وبها قبيلة ثِعْيَنْ وبها غابة من النخيل ترويها ست عيون يتدفع منها الماء طول العام .

و « بَدَشْ » بها نخل كثير وثمان عيون جارية، وفيها تسكن قبيلة قراد .

و « عُمْقُرْ » بها منازل قبيلة رَوِيكَه ، وهم فخذ من آل يزيد اليافعيين ، جاءوها واستقروا فيها قبل نزوح يافع من اليمن إلى حضرموت ، وبهذه القرية نخل ومساحات من الأرض الزراعية ترويها ثلاث عيون .

وقرية « معيان موايب » لآل باكريت .

ويبلغ عدد سكان الريدة ألف نسمة وبها مسجدان، ويبلغ سكان جميع المناطق الخاضعة للريدة نحو ثمانية آلاف نسمة .

فى صباح اليوم الثانى زرنا مدرسة الريدة واختبرنا تلامذة السنة الرابعة، ومما هو جدير بالذكر أن كثيراً من التلاميذ من أبناء البادية بعضهم أبناء شيوخ القبائل ، وهى سياسة محمودة من الحكومة القعيطية ، سيكون لها أثر حسن فى تلك القبائل التى تعيش فى الكهوف وسفوح الجبال والتلال وفى بطون الوديان . ليس من شك أن العلاقات بين الدولة القعيطية وبين تلك القبائل ستتقوى وستتوطد الروابط والصلات ، وذكرنى هذا بما فعله تحتمس الثالث فرعون مصر ، فقد أحضر أبناء أمراء الشام حين احتلها ، وأنزلهم فى مصر وعلمهم حتى أصبحوا رجالا وعادوا إلى الشام ، فتوطدت العلاقات بينها وبين مصر .

فى قصيعر

وفى الساعة العاشرة ذهبنا إلى قصيعر ، وتبعد عن الريدة بنصف ساعة بالسيارة ، والمنازل ليست عالية ، و يحيط بها سور له باب كبير متواضع . ذهبنا رأسا إلى المدرسة وتقع على البحر ، و بعد أن اختبرنا التلاميذ وشاهدنا بعض المدرسين وهم يلقون دروسهم على تلامذتهم سرنا إلى منزل السادة صالح محمد وسالم آل بعسى .

وسكان قصيعر ألفانسمة، وقائمها السيد غالب عوض القعيطى، وتشمل قصيعر من قبائل البادية العيبلى والجحى، وهم أفخاذ من الحموم، و يبلغ عددهم حوالى ١٫٥٠٠ نسمة ، وفى شمالها غيضة المعبر و بها نخل ترو يه عينان ، وأهم عمل للأهالى صيد السمك وهو عماد ثروتهم .

منطقة أثرية

فى شمال قصيعر وفى عسد الجبل حصن يقال له حصن البرتقيس ، و بعضهم يسمونه حصن شقبون بن شروان ، وهو مبنى من الحجر على ربوة عالية جدا ، و يتكون من دورين ، ولكن الدور الثانى قد تهدم فسقط معظمه على الدور الأول وسد منافذه ، و يحيط بهذا الحصن سور طول جداره الجنوبى ثمانون ذراعا ، وعرضه أربعة أذرع ، وطول جداره الشرقى خمسون ذراعا ، وعرضه ثلاثة أذرع ، وقد تساقطت من السور بعض أحجاره بسبب عوامل التعرية . وفى الجهة الشرقية من الحصن ست غرف لكل منها نافذة تطل على هوة سحيقة، ومدخل الحصن من الشمال كما هو مبين فى الخريطة التى أتحفنا بها السيد عبد الله عوض مخارش قائم الريدة ، وعلى شمال الداخل كوخ صغير قائم بين صخرتين كبيرتين ، وعلى يمينه حوض واسع كان مستعملا لخزن المياه ، وفى جنوب الحصن مسجد مهجور قد تراكمت على سطحه الرمال وأخذت جدرانه تتفتت بفعل الحرارة والرياح ، وسيأتى يوم يصبح فيه هذا المسجد ومئذنته القائمة فى الشمال الشرقى كومة من الثرى .

والطريق إلى هـذه المنطقة وعرة ، ولا يمكن للسيارة أن تجتازها ، و بعد أن يقطع السائر ساعة ونصف ساعة فى طريقه من قصيعر إلى الحصن يجد ثلاثة صخور كبيرة فى إحداها كتابة ، وهى كما يأتى :

الملحص رعمد رحسى ا حـ لا ه :

بسالمل ا بانعى اله محعد

ابو بكر ولد لله ا . ى الدحعمره برسالو مسطع

المطلوع با تشطلنوزد ا

ا لحعد ا

و بعد النزول من العقبة يشاهد الماشى على يمينه صخرة كبيرة مكتوب عليها ماه فدا

العودة إلى الديس

بعد أن تناولنا الغداء فى منزل السادة آل البعسى سافرنا إلى الديس ، ونزلنا فى منزل السيد عبدالحبيب مسلم التميمى ، وهو من النبلاء الأفاضل، وقد قابلناه فى الشحر عند سفرنا إلى الريدة فأقسم بأغلظ الأيمان أن ننزل فى داره ، وفى المساء أقام لنا نادى الإخاء والمعاونة حفلة تكريم حضرها معظم أهالى الديس وتلامذة المدرسة ، واستغرقت الحفلة أكثر من ساعتين .

العودة إلى الشحر

وفى صباح اليوم الثالث سافرنا إلى الشحر ، وأدبت لنا جمعية المواساة اليافعية مأدبة غداء فخمة حضرها أعيان الشحر ووجهاؤها ، وفى المساء أقامت حفلة تكريم لنا برياسة السيد ناصر عمر مخارش اليافعى .

ضب ضب

سافر السيد الناخبي والمستر برادلى إلى المكلا ، و بقيت فى منزل السيد أحمد عمر باصرة نائب الشحر ، وأجمعنا نحن والسادة أحمد عمر باصرة وناصر عمر مخارش وصالح باشراحيل وعلى البكرى و بعض من الأصدقاء على الذهاب إلى جبل ضب ضب الأثرى ، و يبعد عن مدينـة الشحر بنحو ر بع ساعة بالسيارة ؛ و يقع فى الشمال الشرقى لها وعلى سفحه الغر بى طر يق مرصوص بالأحجار ظاهر بشكل بارز و يشبه خطا منكسراً . وقد زعم الناس أن مغارة ضب ضب تقع على سطح الجبل وصعد هنـاك كثيرون من أجانب ووطنيين فلم يجدوا شيئا سوى أكوام من الأحجار متراكمة ظنناها قبوراً ، ولما حفرنا تحت أحدها لم نعثر على شيء سوى قليل من العظام قد تفتت معظمها بفعل الحرارة ، وفى السطح الشمالى من الجبل وجدنا بئراً جافة وعلى جوانبها أعشاب خضراء ، ولعل السكان القدامى الذين سكنوا هـذا الجبل الشاهق كانوا يخزنون فيها مياه الأمطار للشرب ، وفى قمة الجبل عثرنا على حفرة ضيقة الفوهة يخرج منها بخار ساخن ولمـا أدخلنا فيها عصا خرجت منها ضفدعة ، و يلاحظ أن التراب بداخلها رطب عليه آثار الماء ، ولا بد أن تـكون هناك عين ماء وحاولنا أن نحفر حولها فلم نستطع لعدم وجود آلات الحفر .

مغارة ضب ضب

لم نستطع العثور عليها إلا بعد أن بذل نائب الشحر بواسطة أحمد الحمومى جهودا كبيرة فى البحث عنها ، وهى تقع فى سفح الهضبة الجنو بية المجاورة للجبل ، و بعد صلاة الصبح ذهبنا إلى المغارة لنصل إليها قبل الشروق ، وقد عزمنا على أن نبقى هناك للبحث والتنقيب طوال اليوم ولذلك أمدنا نائب الشحر بالماء والزاد وآلات الحفر ، ولـكن السيارة تعطلت فى الطر يق بعد أن قطعنا حوالى ثلثى المسافة ففضلنا السير على الأقدام ،

وكنت توقعت أن السيد صالح باشراحيل لايستطيع لكبر سنه أن يقطع برجليه تلك التلال والهضاب الصخرية ولكنه برهن على أنه لايقل عنا نشاطا وحركة واندفاعا في السير .

وصلنا المغارة وجلسنا على مقربة من مدخلها لنستريح قليلا ، ونتناول الفطور ونشرب القهوة .

ويشبه مدخل المغارة فوهة بركان خامد ، وهو محفور في الصخر ، ويبلغ عمقه حوالى ١٥ متراً أدلينا فيها حبالا متينة ونزلنا بها ، وعند ما وصلنا إلى قاعدة المدخل رأينا فتحة ضيقة .

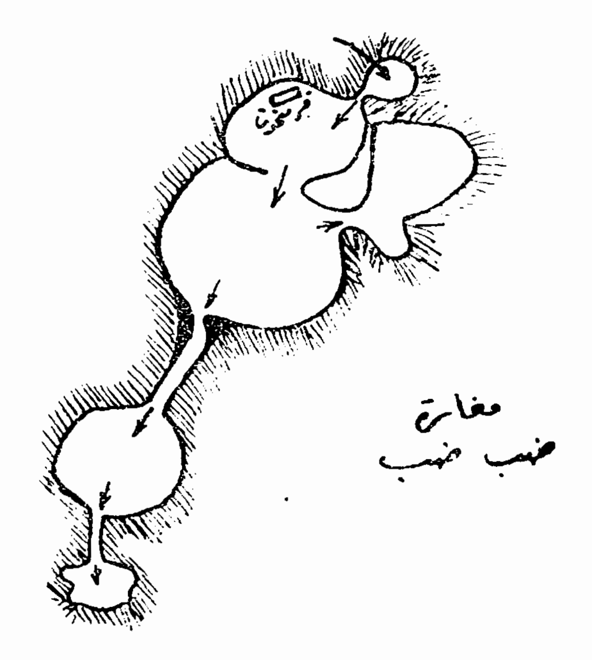
ولما دخلنا منها وجدنا كهفاً منبسطاً على جوانبه مصاطب أشبه بمقاعد عريضة قد تراكمت عليها أحجار تساقطت من السقف ، وهناك قبر منبوش منحوت في الصخر ويظهر أنه نقش منذ عهد قديم ، ولعل نابشه هينريك ملتسان Heinrich Maltzan الألمانى الذى ارتاد سواحل حضرموت سنة ١٨٧٠ .

ويتصل بهذا الكهف كهف آخر واسع، في أعلاه فتحة ضيقة يدخل منها الهواء والضوء ، وهناك كهف ثالث سقفه يكاد يلامس الأرض ، ورأينا بداخله جزءاً بارزاً مستطيل الشكل ولعله قبر، وحاولنا نبشه بواسطة العمال الذين أحضرناهم معنا فلم نوفق لقرب السقف من الأرض ، وفى الكهف الثانى شاهدنا ممرا ضيقا مظلما دخلناه زاحفين على بطوننا ، ويبلغ طوله حوالى ستة أمتار ، وخرجنا منه إلى كهف منحوت في الصخر على شكل دائرة ، وفى سقفه نقوش منحوتة فى الصخر وشكلها:

◇◇◇ ◇◇◇

الظلام حالك، والحرارة شديدة ، والضغط الجوى ثقيل ، ورائحة بول الخفافيش تنبعث من كل جانب ، وهناك ممر ضيق يبلغ طوله حوالى أربعة أمتار . زحفنا فيه على بطوننا حتى وصلنا إلى كهف غير واسع به حفرة منحوتة تشبه البئر أو الزير الكبير ، وقد تراكمت عليها الأتربة والضغط هنا شديد ، وكمية

الأكسيجين قليلة والحرارة تزهق النفوس ؛ ولم نستطع البقاء طويلا لشعورنا بالضغط الجوى والتعب ، ولخوفنا من انطفاء المصابيح التى حملناها معنا ، وقد بدأ ضوءها يتضاءل ويحمر . عدنا أدراجنا وكاد أحد الزملاء وهو السيد ناصر عمر مخارش يغمى عليه ، ومما هو جدير بالذكر أن السيد أحمد عمر باصرة كان أكثرنا نشاطا وجرأة ، فقد كان فى المقدمة عند دخولنا فى تلك الكهوف ، وبعد أكثر من ثلاث ساعات قضيناها تحت الأرض خرجنا ونحن نلهث من التعب وكان العرق يتصبب منا ، وقد بلت ملابسنا وتوسخت بالتراب وبول الخفافيش ، ولما رآنا زملاؤنا الذين فضلوا البقاء خارج الكهف نظروا إلينا فى شيء كثير من الدهشة إذ كانوا يتوقعون هلاكنا .



السهول الداخلية المنخفضة

كان البرنامج الذى رسمته لرحلتى ببلاد الأحقاف أن أقضى نصف إجازتى فى مدن الساحل وقراه ، والنصف الآخر فى السهول الداخلية المنخفضة ، وتسمى عندهم « الداخل » ولكن لظروف قهرية قضيت كل إجازتى فى الساحل ماعدا خمسة أيام منها أمضيتها فى الداخل .

وتتركز أعمال الحكومة القعيطية فى الساحل ويظهر فيه نشاطها السياسى والاقتصادى والأدبى بشكل بارز يفوق جميع مظاهر الحياة فى الداخل ، و إذا عدنا بالسنين القهقرى عشراً نجد التعليم يكاد يكون محصوراً بصورة واضحة فى مدينة سيون وتريم ، وهما من أمهات المدن فى الداخل وأكثرها حضارة وعمراناً . أما اليوم فقد تألقت أضواء العلم ، وأشرقت أنواره فى الغيل والمكلا وغيرهما من مدن الساحل ، وأخذ التعليم هنا ينزع نحو التجديد فى طرقه وأساليبه وفى اتجاهاته ومراميه .

الرحيل

فى اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر قامت بنا السيارة من المكلا ، وكانت كبيرة حملت كثيراً من الرجال والنساء والأطفال . ولحسن الحظ جلست بجوار السائق، ولذا لم أشعر بتعب كثير من الاهتزازات التى كانت تقلق راحة الراكبين . وسرعان ما مالت الشمس للغروب ، فقد قمنا من المكلا الساعة الخامسة مساء ، وخيم الظلام على وادى حويرة الطويل العميق بعقبته الكئود ، و بعد ربع ساعة أخذ الوادى يضيق وتقترب السلسلتان الجبليتان من بعضهما ، وقد حفر مجرى لرى حقول الذرة والنخيل يتخذ ماءه من نهير صغير ، وعلى حافة هذه الحقول تنمو أشجار الموز . واندفعت بنا السيارة صاعدة ، وعلى حافة الوادى تعلو القمم الشامخة وقد تساقطت منها أحجار إلى الوادى أخذت عوامل التعرية تهاجمها حتى فككتها ، وكلما تقدمنا أوغل الوادى فى الضيق . وعند نهايته وجدنا بركة صناعية بها ماء آسن ، وعلى مقربة منها كوخ يقيم فيه جماعة من الحرس المسلح ، والحرس موجودون فى كل الطرق على مسافات متباعدة ، ومهمة الحراسة فى المناطق الجبلية والصحراوية عسيرة شاقة تحتاج إلى يقظة وجلد وهدوء . ولكنهم استطاعوا أن يحرسوها وأن يصونوها وأن يكسبوا سلاح الدولة قوة ومناعة يفاخر بها مزهوا . لقد استطاعوا أن يشيعوا الأمن فى أوصال الصحراء وأرجاء الجبال والوديان .

بعد أن أخذنا قسطاً من الراحة استأنفنا الرحيل فى الجول ، وهو هذه الهضبة التى تمتد بين السلاسل الجبلية الساحلية والسهول المنخفضة الداخلية ، وكان طريقنا يخترقها حتى وادى دُوعَن . والجول عبارة عن مسطحات من الأرض تفصلها وديان عميقة ، وليس بها أىّ نبات اللهم إلا على الحافة حيث تصطدم بها بعض السحب ، ولا حيوان اللهم إلا بعض السحالى والطيور ، وجوّه حر قائظ أثناء النهار ، وبرد قارس أثناء الليل ، ولا شيء يؤلم المسافر فيه سوى هذه المناظر التى لا تتغير . ولما كان المطر نادراً فى هـذه المنطقة لايمكن أن نعزو تكوين هذه الوديان إلى المطر وحده ، بل مما ساعد على تكوينها أن الأرض مكونة من طبقة من الحجر الجيرى كثافتها من ٥٠ إلى ١٠٠ ياردة تحتها طبقة مماثلة من الحجر الرملى ، وبذلك يسهل على الوديان أن تشق لنفسها طريقا غائرا . وفى الجول يمكن أن ترى قمم كورسيبان شامخة فى ذلك الفضاء الواسع العريض ، ويبلغ ارتفاعها ٧٠٨٨ قدما . وإلى الغرب من كورسيبان تمتد هضبة مسطحة لا تشقها وديان كثيرة ، ولـكنها ملأى بما يسمونه النقابات ، وهى عبارة عن نوع صغير من الآبار محفور فى الصخر الجيرى ، ضيقة الفوهة اتساعها قدم وعمقها ٢٠ قدما ، وتتسع من الداخل ، وهى تستعمل لتخزين مياه الأمطار ، وقد جعلت فوهاتها ضيقة لتمنع التبخر ، وهى تحل محل السقايات فى الوديان ولها فائدة عظمى فى هذه البقاع الجافة ، ويبقى ماؤها ٣ سنوات وليس به عيب سوى طعمه الآسن .

مولى مطر

فى منتصف الليل وصلنا مولى مطر ، وهنا شعرنا ببرد شديد ولـكنه جاف كبرد أعالى الصعيد بمصر ، وتناول كل منا طعام العشاء ورأينا الحرس يوقدون نارا ويجتمعون حولها يغنون أغنياتهم التى لا نستطيبها بينما لها أثر كبير على أعصابهم ، وليس لهؤلاء الحرس آمال ومطامح كبيرة فى الحياة ولـكنهم يشعرون بالوحشة فى هذه البقعة

المنعزلة عن العالم ، فهم يغنون من حين إلى آخر ليدخلوا إلى نفوسهم شيئا من المرح والسرور ، ولقد صدق أبو سعد زميل السائق حيث سمى الجول « ريم الدنيا » والريم باللغة الدارجة (السطح) .

استأنفنا الرحيل واندفعت بنا السيارة فى طريق ممهد ، وأخذ السائق فرج يغنى أغنيات شعبية حلوة .

البرير

وفى الساعة الثانية صباحا وصلنا البرير ، وهرع رفاقنا إلى مسكن الحرس وناموا فيه . أما أنا فقد فضلت البقاء فى السيارة لوحدى واضطجعت فى أحد مقاعدها ، لكنى لم أذق للنوم طعما لشدة البرد ، ولقد نصحنى السيد عبد الله الناخبي قبل الرحيل من المكلا أن آخذ معى لحافا من الصوف ليقينى شر برد الجول ، ولكنى اعتذرت لأنى من الناس الذين يكرهون أن يحملوا فى أسفارهم أكثر من حقيبة واحدة وشنطة يد واحدة .

تنفس الفجر وتدفقت جيوش النهار زاحفة وراء طبقات الظلام الهادئة واصطبغ الأفق بدماء الشمس الأرجوانية . يا لروعة هذا المنظر الطبيعى فى هذه البقعة العالية من الدنيا .

ها نحن أولاء فى نقطة التحول الحاسمة — بين الحضارة والبداوة . تركنا وراءنا مساكن المكلا وحدائقها الغناء ومصايف السلطان والسراة ، وأصبحنا نحن والسيارة بين الهضاب والرمال وشجيرات متناثرة هنا وهناك ، لها شكل غريب قد أدى تنازع البقاء بينها إلى التواء غصونها وقصرها وتجردها من الورق فأصبح لها شكل الصخور ما أعمق هذا الشعور الذى يحسه الإنسان كلما وقف عند إحدى نقط التحول أو كلما كان فى المكان الذى يمكنه من عقد المقارنات بين الأضداد .

إن البداوة جميلة مهما تكن ناقصة . ولكن فى الحضارة أيضا جمال .

وتابعنا المسير نذرع الطريق وقد صمتنا جميعا من غير داع إلى الصمت ، وكان طريقنا يخترق هضبة صخرية تشقها بعض المنخفضات الشبيهة بالأحواض ، وعلى حافة أحدها وجدنا ثلاث ظباء، ويظهر أن النباتات هناك لاتسد رمق هذه الحيوانات المسكينة، فهى هزيلة ذابلة .

اقترابنا من وادى دوعن

اقتربنا من وادى دوعن ، وقد مرت بنا سيارات فى طريقها إلى المكلا ، ولم نتمكن من رؤية ذلك المنحدر العظيم الذى يؤدى إلى الوادى إلا عند اقترابنا منه ، لأن هـذه الهضبة الشامخة كانت تحجزه عنا ، وتنحدر هذه الأسوار الجبلية انحداراً يبلغ ٩٠٠ قدم . وفى الساعة العاشرة صباحاً وصلنا عقبة الجحى، ويالها من عقبة طويلة خطرة ، ففى بعض أجزائها ينحدر الطريق انحداراً سريعاً بجوار هوة سحيقة ، وخاف بعض رفاقنا فنزلوا من السيارة وفضلوا السير على أقدامهم . وفى إحدى أوديتها العليا أشجار ضخمة بها أسراب من القردة جفلت عند سماعها صوت الموتور ، وقد ذكرنى هذا المنظر بغابات أندونسيا حيث تكثر القرود .

وصلنا أسفل العقبة مصحوبين بالسلامة والحمد لله . شاهدنا منظراً رائعاً : غابات خضراء من النخيل ، وحقول الذرة ، وأشجار النبق ، يخترقها خط أبيض هو مجرى السيل .

اجتزنا مدينة الجحى ومجموعات أخرى من المنازل متناثرة على سفوح التلال ، ومررنا على القزة منازل آل البطاطى، ورأينا مدناً على الجانب الغربى للوادى . وتبدأ المزروعات تقل كلما اتجهنا شمالا ويحل النبق محل النخيل ، والنبق ويسمونه الدوم من أهم ثروة الإقليم . ويعنى الأهلون بأشجاره عناية تفوق الوصف لاسيما فى وادى عَمْد ووادى العين ، وتستخدم جذوع أشجاره لعمل قوائم للمبانى ، وفروعه الشائكة لحماية أشجار البلح من السرقة ، وأوراقه لرعى الماشية ، وكثيراً ما رأينا راعية تتسلق

الشجرة وتنفض أوراقها بعصى صغيرة ليتساقط الورق لتأكله الأغنام . وأزهار أشجار النبق مرعى خصيب للنحل ، وتشتهر دُوعَنْ بالعسل وتصدّر منه سنويا كميات وافرة إلى عدن ومصر وسواحل أفريقيا الشرقية .

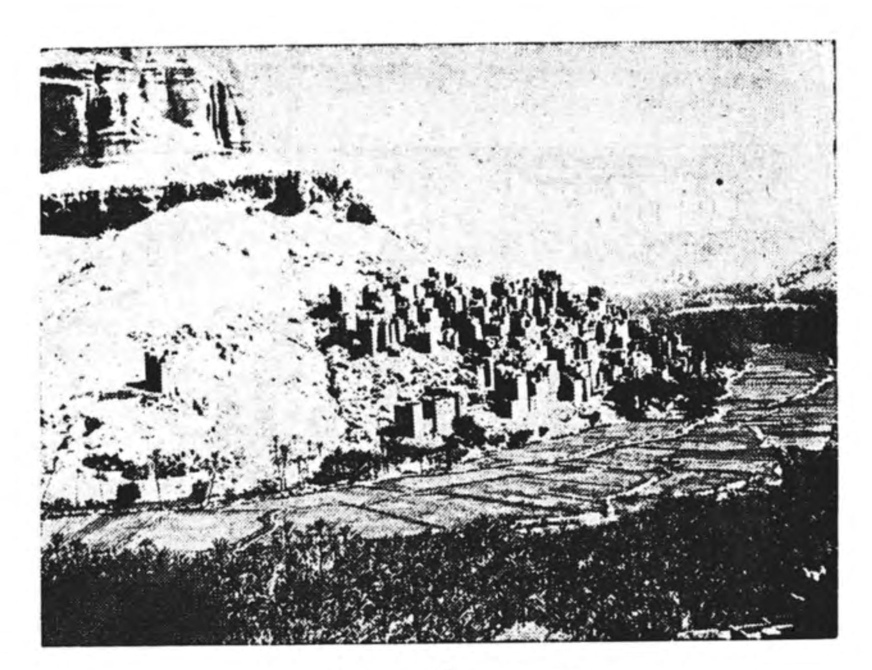
المشهد

وهذه منطقة غنية بالآثار ، فهناك مئات التلال تعلو إلى ٣٠ قدما على سفوحها أنقاض جدران ، وعلى إحدى هذه التلال بئر اتساعها ٣٠ قدما وعمقها ٦٠ ، وهناك أحجار كثيرة عليها كتابات حميرية ، وقد عثرت المسز فريا ستارك فى هذه المنطقة على آثار قيمة وحفريات ثمينة ، ولم أتمكن من الوقوف هناك ، فقد اندفعت سيارتنا بمن فيها من الراكبين مسرعة ، ومررنا أمام منزل منصب المشهد الذى تركناه فى المكلا .

سدبة

مررنا على مقربة من سدبة وهى من القرى القديمة ، واخترقت السيارة مجرى السيل وأحراج النخيل فى طريقها إلى حورة ، وقبيل الظهر وصلنا حورة ، وقابلنا السيد محفوظ الرضى قائم المدينة فاحتفى بنا أيما احتفاء ، ولم يسمح لنا بالسفر إلا بعد أن تناولنا طعام الغداء فى منزله . ومما يلفت النظر كثرة مواليد جاوه ، وقد عرفتهم بملامحهم ، ولما كلمتهم بلغة الملايو اندفعوا نحوى فرحين مستبشرين وأمطرونى بالأسئلة عن أندونسيا ومصر ، ولسوء حظهم ليس فى حورة مدرسة يتعلمون فيها ، فهم يقضون أوقاتهم فى اللهو واللعب . ولعل أزمة المعلمين المستحكمة بحضرموت هى السبب فى تردد الحكومة القعيطية فى إنشاء مدرسة هناك .

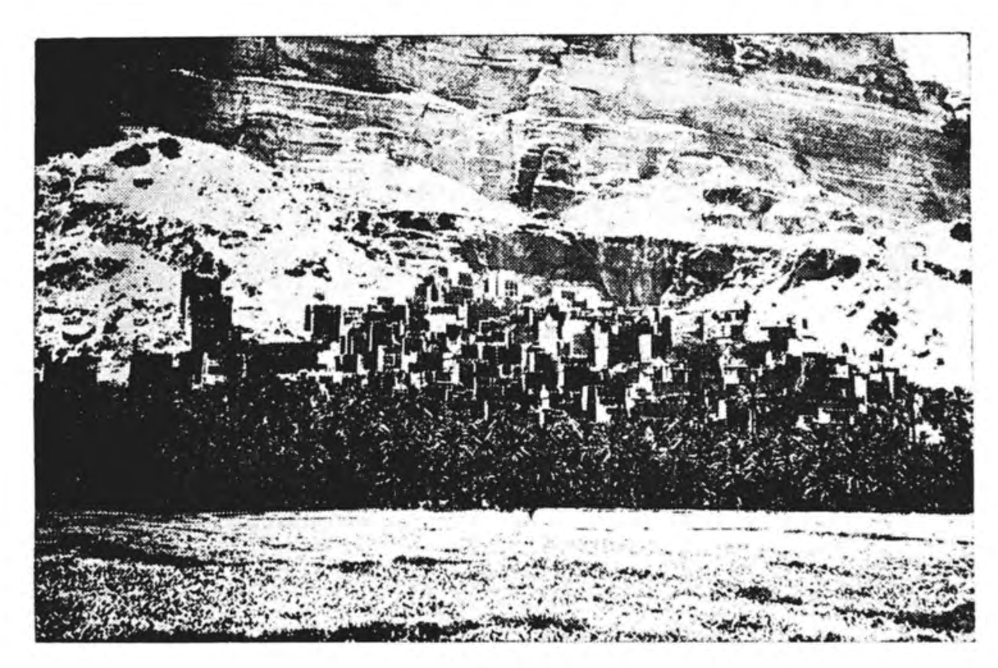
فى الساعة الثالثة مساء استأنفنا الرحيل ومررنا بالخنيق وهى من المدن الأثرية؛ فالمنازل هناك أصبحت أكواما من الثرى ، و بعد أن تركنا العجلانية بمنازلها العالية



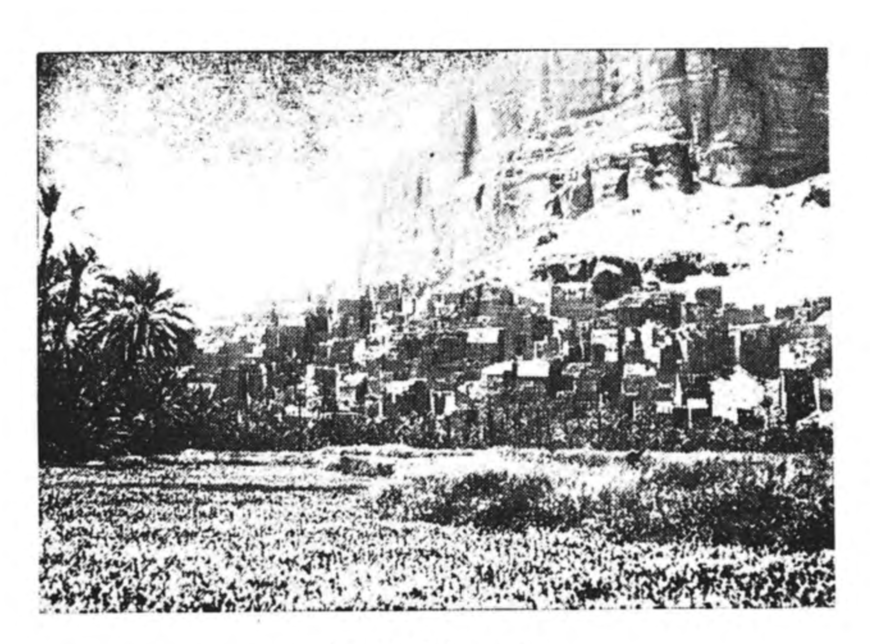
مدينة « قرن باحكيم » فى دوعن



مصنعة باصرة فى دوعن

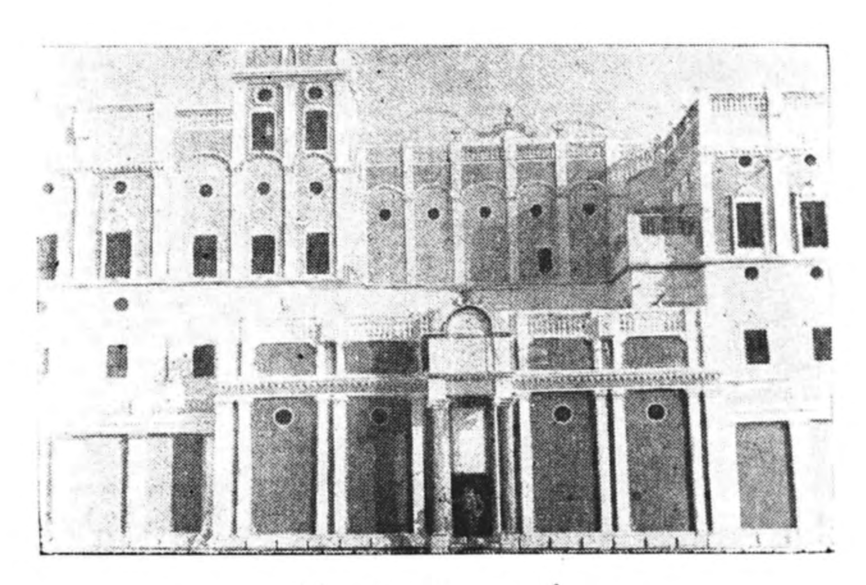


مدينة « الخريبة » فى دوعن

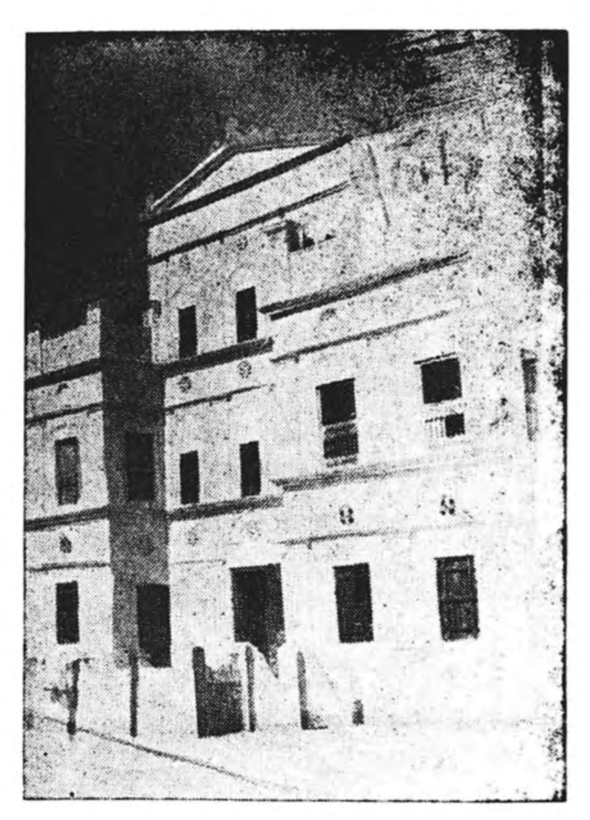


مدينة « رباط باعشن » فى دوعن

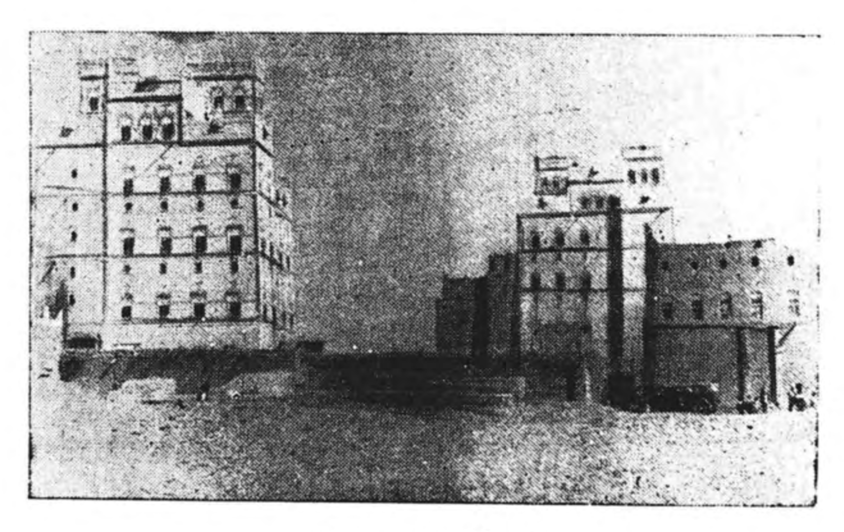
فرقة الـكشافة بالمدرسة الوسطى بغيل باوزير فى أثناء تمرينهم



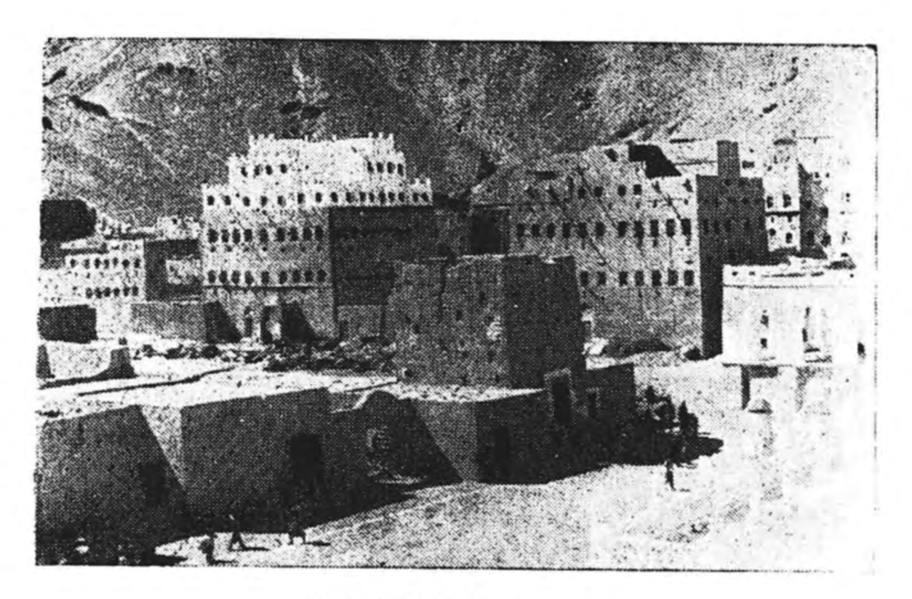
أحد قصور « قعوضه » فى نهد



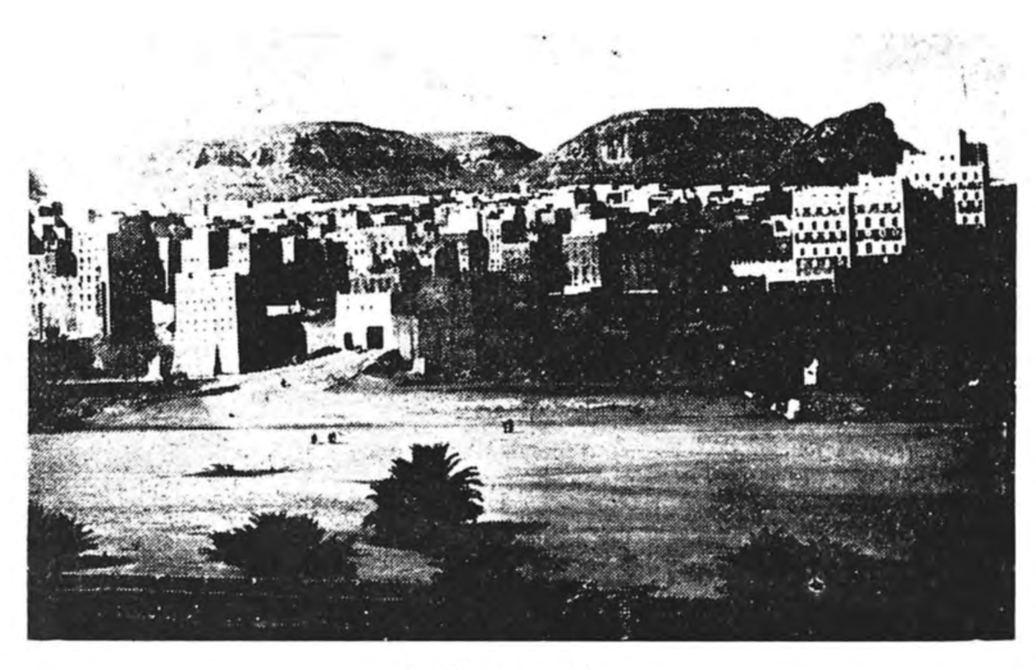
قصر « آل مرتع » فى هينن



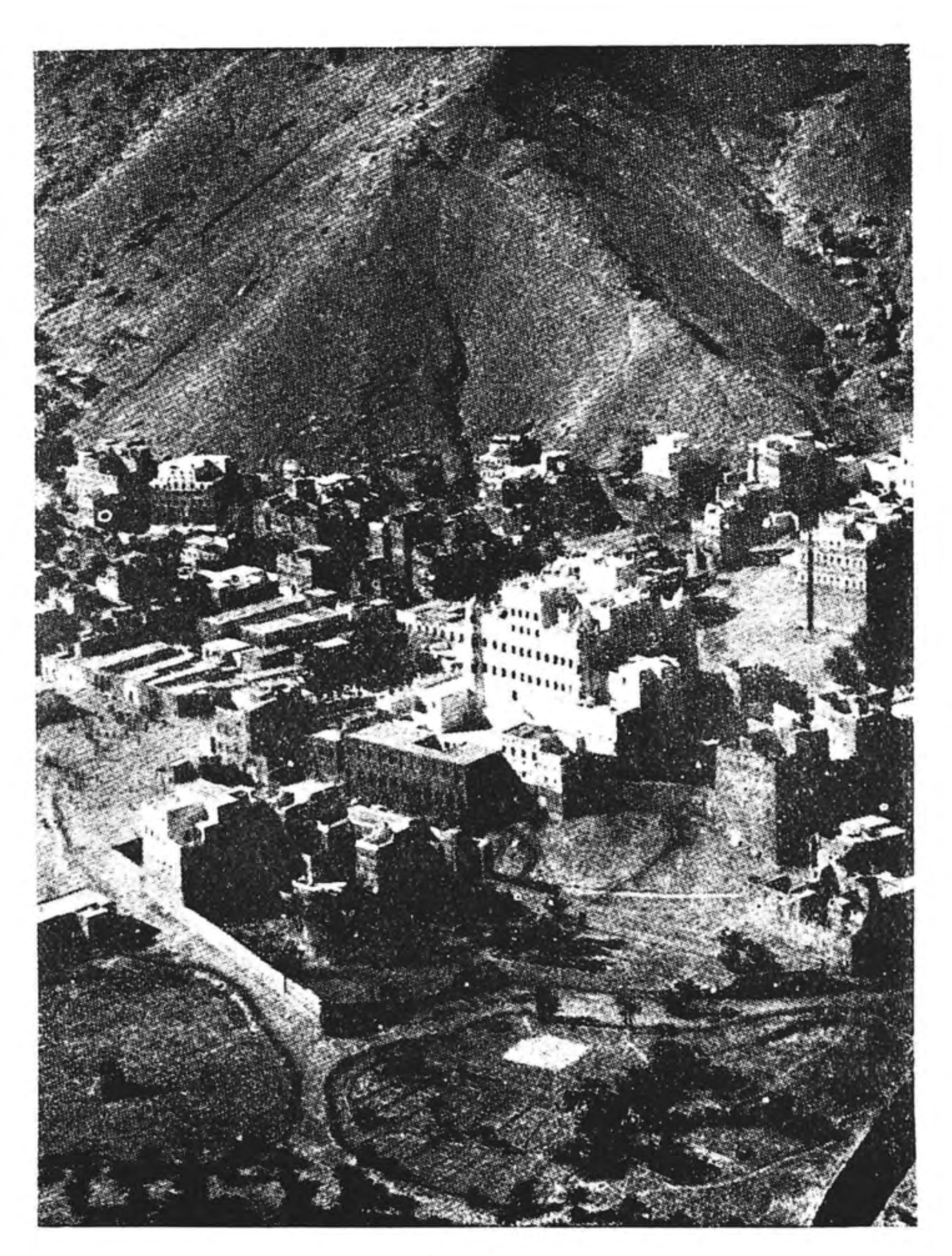
ديار « آل البقرى » فى نهد



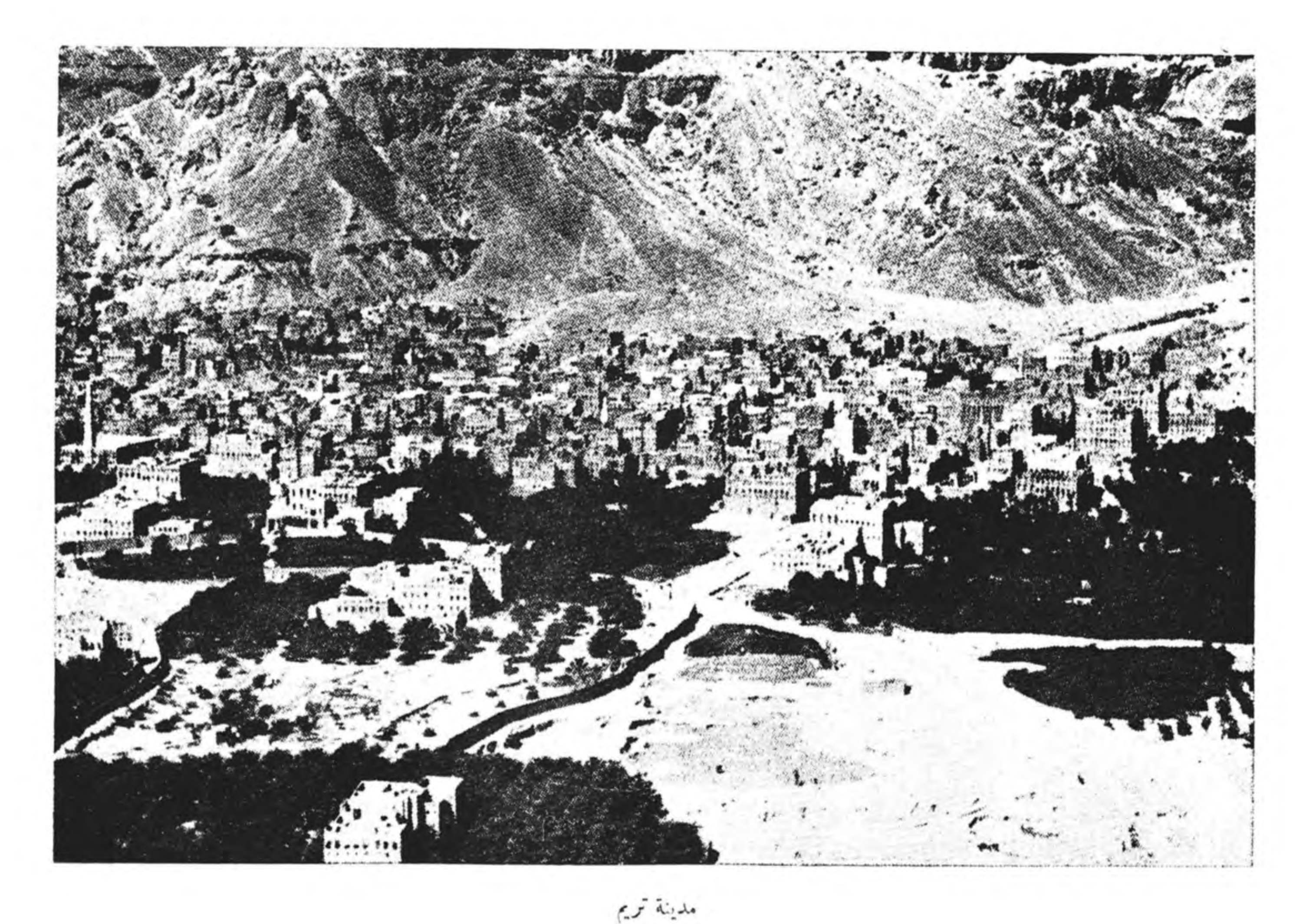
جانب من مدينة الريضة فى القطن



جانب من مدينة شبام

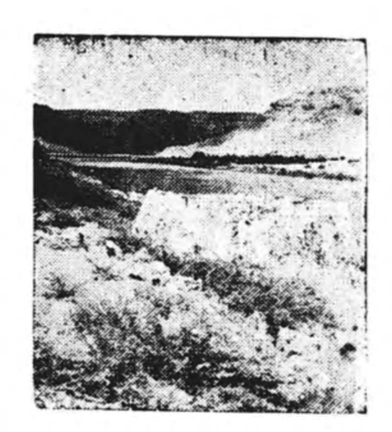


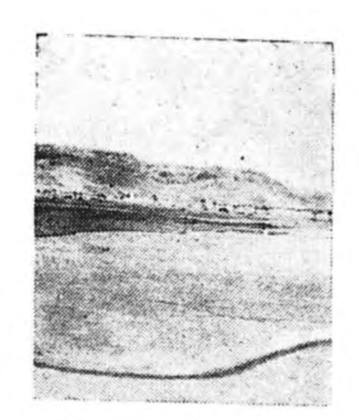
مدينة سيون

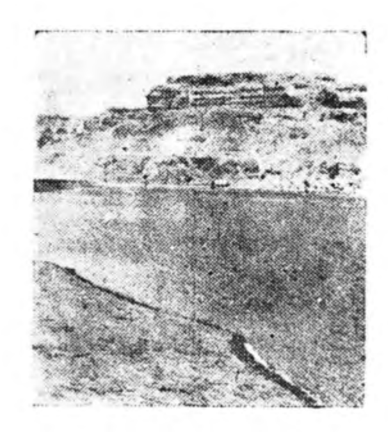


مدينة تريم









مناظر سد النقرة

ظهرت لنا الباطنة . وهنا تتسع رقعة الأرض وتتباعد السلسلتان الجبليتان عن بعضهما ثم تظهر الفرُط ، و يسكنها قبيلة بنى أرض من يافع ، ومن الفرط تبدأ حدود القَطْن ، وتكثر الآبار الارتوازية حيث الماء قريب عن سطح الأرض، وتكثر أحراج النخيل وحقول الذرة ، وتمتد أراضى المِشْجَرَة وهى من أخصب المناطق الزراعية بحضرموت حيث تكونت طبقاتها من الغرين الذى تجلبه إليها مياه الأمطار . وفى بابكر ديار بنى بكر نزلت واستأنفت السيارة بمن فيها من الراكبين إلى شبام ، وهنا شعرت أنى بين أهلى وأقربائى ، فقد هرع بنو بكر كباراً وصغاراً إلى منزل السيد محمد بن محسن البكرى حيث نزلت للترحيب وكان البشر يطفح على وجوههم . وفى بابكر وجارتها الريضة قضيت عهد الصبا ، وفى كل منزل من منازل آل البكرى وفى كل شارع من شوارع الريضة لى ذكريات . وفى المساء جاءت وفود كثيرة من الريضة وما جاورها من القرى والحصون للترحيب بى من أعماق قلوبهم . وقضينا ليلة مع الأصحاب نتجاذب أطراف الحديث فى شئون كثيرة ، ونستعيد ذكرياتنا الحلوة التى مضى عليها ربع قرن . وفى الصباح ذهبت لزيارة الأصحاب فى منازلهم ، ولكن لدقائق معدودات ، وأصرّ الجمدار القعيطى كل الإصرار على أن أتناول طعام الغداء فى منزله بالريضة .

وفى المساء جاء السيد حسين أبو بكر لعْجَم بسيارته ليأخذنى إلى شبام ، وكان قد تسلم خطاب توصية من عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطى ، وكان بصحبته الدكتور سرجنت والدكتورة عقيلته وابنهما ، والدكتور سرجنت مستشرق إنجليزى أرسلته جامعة لندن لدراسة الشعر الحمينى فى حضرموت ، وهو من أكثر الأور بيين اطلاعاً بالحياة الأدبية والثقافية بجنوب الجزيرة العربية ، ولعل القراء اطلعوا على مقالاته التى نشرتها له بعض المجلات العلمية .

شبام

انطلقت بنا سيارة السيد حسين لعجم بين بلدان القطن وفى أحراج نخيلها ومزارعها الخضراء ، و بعد ساعة ظهرت لنا مدينة شبام بمنازلها الشامخة تحيط بها غابات النخيل . وأول أورِبى وقع نظره على شبام هو ليوهيرش Leo Hirsch الألمانى سنة ١٨٩٣ ولعلوّ منازلها سماها بعض السياح الأوربيين نواطح السحاب ، ولعل السبب فى علو منازلها ضيق مساحة الأرض ، وهو السبب الذى حدا بالأمريكيين لبناء نواطح السحاب فى نيو يورك ؛ ثم إن الحضارم عرفوا بتمجيد القوة والعظمة وحب التفوق والتنافس ، وهذه العاطفة ظهرت بوضوح فى مبانيهم الشاهقة .

وشبام مدينة قديمة بناها قوم من شبوة بعد أن احتربت حمير ومدحج و بهم سميت شبام ، وكان الأصل فى ذلك شباه فأبدلت الهاء ميما .

وسكان شبام اليوم لايقل عددهم عن ٢٥ ألف نسمة ، وتتجلى النظافة داخل المنازل ولكن الشوارع ضيقة قذرة ؛ فمياه المراحيض تسيل فى قنوات مكشوفة تنبعث منها روائح كريهة، ولا يمكن للسيارات أن تجتاز هذه الشوارع ، وعلى مقربة من المدينة يقع السحيل و به منازل جميلة للموسرين وهو مصيف أهل شبام . وموقع شبام مهمّ لامن الناحية الاستراتيجية فقط ولكن أيضا من الناحية الاقتصادية ، فسوقها أعظم أسواق حضرموت ، وأسعار الحاجيات ترتبط إلى حد بعيد بأسعارها فى سوق شبام ، فهى أشبه بالبورصة التجارية . والشباميون مشهورون بالنشاط وحب الحركة والعمل ولذا لاتجد أحداً منهم يقبع فى داره بالنهار اللهم إلا المرضى والعجائز ، وهذا عكس الحال فى سيون وتريم .

أنزلنا السيد حسين لعجم فى داره على الرحب والسعة ، و بعد تناول العشاء جلسنا نتحدث فى مختلف الشئون مع الزائرين الذين أتوا للترحيب بنا .

سَيوُن

وفى الساعة العاشرة صباحا استأنفنا الرحيل إلى سيون ، واجتازت بنا السيارة مدينة الغرفة ، وشاهدنا أنقاض الحصون خارج سور المدينة . والغرفة كانت لآل باعبّاد ثم استولى عليها السيد صالح عبيد بن عبدات الكثيرى سنة ١٣٤٤هـ وضرب النقود باسمه وقويت شوكته واتسع نفوذه وظل ابن عبدات يحكم الغرفة إلى يوم ٧ مارس سنة ١٩٤٥ حيث سلم نفسه لجيش الحكومة القعيطية ، وسيأتى الكلام فى هذا الموضوع . وفى طريقنا إلى سيون شاهدنا بابكر مساكن آل عبدات وديار آل العاس وغيرهم ، وصلنا سيون ولأول مرة أرى عاصمة الحكومة الكثيرية بمنازلها العالية وشوارعها الواسعة التى يمكن للسيارات أن تجتازها بشىء من السهولة وسور سيون أقل مما كنت أتصوره . ويقع قصر السلطان العظيم على ربوة عالية ويرى من بعيد كأنه جبل شاهق من الجليد وسط أحراج النخيل ، ولا يقل سكان المدينة عن ٢٥ ألف نسمة ، والماء هنا عذب نقىّ ، ولقد صدق القائل : « سيون والماء ولا سمن البقر فى شبام » .

كان عظمة السلطان جعفر الكثيرى غائباً عن عاصمة ملكه ، فقد ذهب إلى المكلا لزيارة عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطى .

ذهبنا إلى منزل العصامى السيد عمر أحمد باكثير ، وهناك قابلت السيد ووتس نائب المستشار الإنجليزى ومساعده السيد محمد عبد القادر بامطرف ، وقد أمضينا معهم فترة قصيرة تبادلنا فيها الحديث الودى فى مختلف الشئون . والمستر ووتس يتكلم العربية بطلاقة كأى حضرمى ويعرف كل شىء عن حضرموت فى الداخل . وهو مثل أعلى للتواضع والتسامح واللباقة والكرم ، فلا غرو إذا أحبه جميع الحضارم على اختلاف طبقاتهم .

تريم

وفى الساعة الثالثة استأنفنا الرحيل إلى تريم ، وهناك نزلنا فى منزل السيد عمر ابن شيخ الكاف فاحتفى بنا أيما احتفاء ، و بيت السيد عمر من أشهر البيوت التى تفتح أبوابها لكل طارق سواء أكان حضرمياً أوأجنبياً . ومعظم السائحين الأجانب شادوا بذكره فى مؤلفاتهم ، ولحسن الحظ وجدنا عنده السيد أبا بكر بن شيخ الكاف وكنت قابلته فى مصر حينما جاءها قبل الحرب العالمية الثانية ، وهو من أبرز الشخصيات بحضرموت عقلا وسماحة وجاهاً ؛ وقابلنا أيضاً السيد على بن شيخ بلفقيه ، وهو من الشبان الأذكياء المثقفين الذين يقومون بقسط وافر فى النهوض بحضرموت إلى المستوى اللائق بها . وفى المساء ذهبنا لزيارة عميد آل الكاف السيد عبد الرحمن بن شيخ الكاف فى منزله ، وكنت أحمل له خطاب توصية من عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطى ، فاستقبلنا بما عرف به من البشاشة وكرم الأخلاق .

حفلة تكريم

بعد أن تناولنا العشاء فى منزل السيد عمر بن شيخ الكاف ذهبنا إلى نادى غرفة المطالعة لحضور حفلة التكريم التى أقامها لنا شباب تريم الناهض . كانت الحفلة رائعة ولقد أعجبت كل الإعجاب بنشاط القائمين بشئون الغرفة و إخلاصهم فى العمل لتثقيف عقول الشعب بمختلف الوسائل ؛ كما أدهشنى ثقافة هؤلاء الشبان وذكاؤهم ونشاطهم وتلهفهم لطلب المزيد من المعرفة . وقد انهالت علىّ الأسئلة من كل جانب حول مركز مصر الأدبى والسياسى وحول أبناء الحضارم الذين يتلقون العلم فى المعاهد المصرية ، وحول مركز الجامعة العربية ومستقبلها ، ومن الأسئلة الطريفة التى وجهت إلىّ هى : « لماذا يشتغل بعض أبناء الحضارم بالتدريس فى مصر ومدارس

حضرموت فى أشد الحاجة إليهم ؟ أليس الواجب أن يقوموا بنشر التعليم فى وطنهم ؟ ألا يجب أن يضحوا بشىء فى سبيل خدمة بلادهم ؟ » وهى أسئلة محرجة حقاً ، لأنى واحد من هؤلاء الذين يشتغلون بالتدريس فى مصر ، وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على حسن نية وإخلاص وحب للوطن — وكان ردى أننى وزملائى على أتم استعداد للتضحية متى وجدنا من جانب الحكومة والشعب تضحية وتشجيعاً

واختلف المؤرخون فى تسمية مدينة تريم ، قال بعضهم : إنها سميت باسم تريم أحد أولاد سبأ الأصغر . وقال آخرون : إنها سميت باسم قبيلة بحضرموت ، وقد تولاها السبئيون . وفى أوائل القرن الخامس بعد الميلاد فى عهد حسان بن أسعد وعهد حجر بن عمرو آكل المرار ، قام بأمرها ملوك كندة ، ولما ظهر الإسلام كان ملك تريم حجر بن وائل الذى كاتبه النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد دخلت كندة الإسلام وسائر قبائل حضرموت . وبعث النبى صلى الله عليه وسلم إليها عامله زياد بن لبيد الخزرجى الأنصارى فى السنة الثامنة من الهجرة . وتوفى الرسول صلى الله عليه وسلم وزياد بتريم ، وبايعه الناس بالخلافة لسيدنا أبى بكر الصديق .

ولما امتنعت بعض قبائل كندة عن دفع الزكاة لزياد ، سار إليهم بأهل تريم وجماعة من الصحابة جاءوا من اليمن وقاتلهم فى قريتى النجير وخباية حتى أخضعهم .

ولما ضعفت كندة وتلاشى سلطانها سار يحيى بن عبد الله الكندى الملقب بطالب الحق إلى مكة سنة ١٢٨ ، وعاد بأبى حمزة الخارجى الأباضى واستولى على تريم وسائر حضرموت سنة ١٢٩ ، ولم تعد إلى الخضوع لمروان آخر ملوك بنى أمية إلا بعد أن قتل طالب الحق .

وفى عهد المنصور العباسى كان عامل حضرموت واليمن معن بن زائدة ، وأناب

معنا أخاه عاملا على حضرموت ، وكان هـذا فاسقاً سفاحاً فقتله أهل تريم ، وما زالت تريم خاضعة للعباسيين إلى سنة ٢٠٢ حيث استولى عليها بنو زياد من أمراء اليمن إلى سنة ٤٠٧ ثم ملـكها بنو معن ملوك عدن ، ثم الصليحى داعية الفاطميين سنة ٤٥٥ . وفى سنة ٤٨١ عادت تريم إلى آل راشد . وفى سنة ٦٢٢ تولى أمرها آل صبرات ثم آل يمـانى وآل راصع ، و بقيت إلى أواخر القرن التاسع حيث قامت دولة آل عبد الله ثم عادت الإمارة على تريم لآل يمـانى وآل راصع ، ثم احتلها السلطان بدر بوطويرق الـكثيرى المولود سنة ٩٠٢ .

قبر هود عليه السلام وبئر برهوت

كنت أردت زيارة قبرهودعليه السلام وبئر برهوت قبلتى كل سائح بحضرموت ، وكنت أردت مشاهدة سد النقرة العظيم الذى أنشأه الإنجليز سنة ١٩٤٤ . وكانت نفسى تتوق لمشاهدة المنطقة الأثرية التى تقع بين عينات وقبرهود ، ولـكن لسوء الحظ لم يكن لدى متسع من الوقت إذ لابد لى من الرحيل إلى المكلا فى اليوم التالى لإعداد ما يلزم للسفر إلى مصر بالطائرة التى كانت ستقوم فى الأسبوع الأول من أكتوبر .

عينات

وكانت عِيْنات من أكبر المـدن ، وأول ما يسرّ المرء من منظرها أحراج النخيل ، وقد اجتذبت رحبات المدينة البيضاء ومساجدها الـكثيرة أنظار ألوف من الناس الذين يأتون للزيارة . وتقع المدينة عند ملتقى كل الطرق المؤدية إلى قبر النبى هود عليه السلام .

النقرة

وكل حضرمى يعرف أن السبب فى تدهور عينات وجود النُّقْرَة الناجمة عن نحت السيول بعد تهدم السدود ، ولوقوع عينات فى نهاية الوادى كانت أكثر تعرضا لفعل

السيول عن غيرها من مدن حضرموت ، أضف إلى ذلك أن قوة السيل قد تزايدت بمياه الأودية الجانبية ورخاوة التربة ، وعندما تتعرى جذور النخل يقل محصولها وفى النهاية تسقط ، وقد تلاشى جانب كبير من النخيل المحيطة بالمدينة ، وقد عملت محاولات كثيرة لتحويل مجرى السيل شمالا إلى سفح الجبال بإقامة سدود وجمعت مبالغ طائلة لهذا الغرض وأقيم السد فعلا ولكنه تهدم مراراً .

قَسم

وقد تأثرت الأراضي الواقعة بعد عينات بهذه النقرة فاختفت زراعة البلح وهاجر أكثر أهلها ، وخير مثال لهذا مدينة قَسم، وهى محاطة بسور متهدم . و يسكنها بضع مئات، وكانت قديما غاصة بالألوف، وخارج السور تقع المدافن . وتحدها من الجهة الأخرى قلعة قديمة على طراز العصور الوسطى ، وكذلك الأبنية المؤدية إليها . وقد تهدم جزء كبير منها ولكنها لازالت حافظة لروائها، وعلى كل زاوية فيها يوجد برج مخروطى الشكل يتضخم فى الوسط .

سد النقرة

كانت مياه أودية عِدِمْ وسَرْ تشق طريقها فى محاذاة الجبال الشرقية ، وكانت تروى نحوا من عشرين ألف نخلة وميلين ونصف ميل مربع من الأراضى الزراعية ، ثم شق السيل طريقاً جديدا آخر موازيا لمجراه الأول ، و بمرور الزمن انحدرت المياه كلها فى طريقها الجديد وجف مجراها الأول ، وطغت عليه الرمال فاختفت الزراعة فى تلك المنطقة ومات النخل . ولما اشتدت المجاعة بحضرموت فى سنة ١٩٤٤ أنشأ الإنجليز مطاعم لإطعام المنكو بين فى حريضة وهينن والعنين وقارة آل عبد العزيز والسحيل وشبام وفى حوطة آل أحمد بن زين والغرفة وحصن العوانزة وتريس وسيؤن ومريمة وتارية والغرف وثبى وتريم ودمّون وعينات ، واستخدموا كثيراً من

الرجال والنساء والولدان ؛ فى إصلاح الطرق وتعبيدها ، و بناء السدود وحفر الآبار ولإحياء الأراضى الزراعية المندثرة . وأعظم السدود التى أنشأها الإنجليز سد النُّقْرَة . الذى بنى على أنقاض سد صغير يقال له مضلعة حمدون ، وواضع التصميم له صديقنا السيد علوى الكاف والمستر بكتن الذى استدعته المستشارية الإنجليزية من جزيرة قبرص .

و يبلغ طول سد النقرة ٤٤٠ قدما وعرض أساسه ٤٥ قدما ، و يقل هذا العرض تدريجياً حتى يصبح فى سطح السد ٢٣ قدما . وأمام السد بنى رصيف قوىّ من الصخور والرمل والأسمنت يبلغ طوله ٤٤٠ قدما . وعرضه ٥٠ قدما ، اشتغل فى بنائه ٧٠٠ عامل وعاملة ، وكانت أجرة العامل فى اليوم تتراوح بين ١٤ آنة و٣ ربيات ، وكانت أجرة العاملة فى اليوم ١٠ آنات وأخبرنا صديقنا السيد حسن شيبة وكان أحد المشرفين على بناء السد أن جميع النفقات لإنشاء سد النقرة بلغت كالآتى :

٣٩١٤١٠/١٢	ربية	أجرة العمال والموظفين وما إلى ذلك .
٣٨٠٠٠	«	ثمن ٤١٧ رزمة قصب لغذاء الحيوانات .
١٦٠٠٠	«	ثمن ٢٠٩٦٠ رطلا من الكسب (التخ) .
٥٠٠٠٠	«	أجرة المواشى .
١١٧٠٠٠	«	ثمن الأسمنت وأجرة نقله .
١٥٠٠	«	ثمن المواد المتفجرة .
١٦٥٦٦٥	«	ثمن ٤٣٥٦٧٩ رطلا من الطعام لغذاء العمال والعاملات .
١١٤٦٧٥	«	ثمن البلح المستهلك وتكاليف نقله .
١٧٥٠	«	مادفع لورثة المتوفين أثناء العمل .
١٥٠٠٠	«	مصروفات للضباط والمفتشين والمهندسين .
٩١١٠٠٠/١٢		المجموع تسعمائة وأحد عشر ألف ربية واثنتا عشرة آنة .

و بعد الانتهاء من بناء هـذا السد العظيم ، وهو الأول من نوعه فى حضرموت أصبح من الممكن حجز أكبر كمية من مياه الأمطار تـكفى لإرواء أر بعة أميال من الأراضى لزراعة الحبوب وزراعة ما لا يقل عن مائة ألف نخلة .

بعد قَسَمَ يستمر الوادى فى الانساع ، وتتكون التربة من اللويس ، ويتعرج الطريق بين شجيرات الأراك الأخضر ، وهى مما تستطيبه الجمال والحمير ، وحيث ينمو الأراك لا نأكل الحيوانات غيره ولو أنه يسهلها ، وكلما يوغل المسافر فى السير يقحل الوادى العريض ، وهناك منطقة حافلة بالآثار .

أطلال العر

هناك فى منتصف الوادى تقوم أطلال العُر على كتلة منعزلة من الصخر ، وهى بقايا من الحيطان الضخمة المتهدمة ، وعند السفح تقع بئر ، ولا تزال آثار الطريق الذى يؤدى من البئر إلى القمة متميزة ، ومازالت بقايا المبانى مبعثرة حول قمة التل على ارتفاع يتراوح بين ٤٥ و ٥٠ قدما ، وهناك ممر ضيق منحدر فى المنطقة الجنوبية الشرقية من الصخرة حيث ترى بضع درجات مازالت باقية كانت ولا بد المدخلَ الرئيسى للقلعة التى تشرف على الأقاليم .

السوم

وعلى مقربة من هذه المنطقة تقع قرية سوم الحقيرة الغارقة فى لجة من السكون الرهيب تحيط بها حرجة من النخيل .

فغمة

و بعـد سوم تظهر قرية فغمة وتتكون من منازل وأكواخ من الطين ، وهى آخر محط قبل قبر هود عليه السلام .

أطلال مكنون

وعلى مقربة من سوم جهة الحائط الشمالى للوادى تقع أطلال مكنون ، ولا زالت بقايا الأبنية القديمة قائمة فوق السهل ، ويتصل بهذه المنطقة مكان فسيح لابد أنه كان مقبرة ذلك الحى ، وقد وضعت الأحجار على شكل دوائر .

حصن ثوبى

يطلق هـذا الاسم على أطلال قلعة تقع على فتحة وادى سنحور والمنحدرات العميقة للصخور الضخمة والتى يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ قدم مغطاة بالروث وعلى القمة أثر الحائط ، ولـكن ليس هناك نقوش ولا كتابات ؛ وقلة النقوش هنا وكثرتها فى اليمن يمكن تفسيرها إذا اعتبرنا حضرموت نهاية ممالك السبئيين والميناثيين بأن أقوام حضرموت غلبت عليهم الصفات الحربية ، وقد ذكر ذلك الأستاذ موردتمان الذى درس وفك رموز الـكتابات التى اصطحبها معهما السيدان فان درميان وويزمان ، وعلى قوله فقد ذكر الاقليم وملوكه فى النقوش السبئية القديمة .

وهناك كتلة من الصخر، وهى عبارة عن قمة عمود رسم النقاش على جوانبه صورا للصيد بها فرسان يحاربون الأسود فى وجه ، وفى وجه آخر صور جميلة للوعل الذى لعب دوراً مهما فى خرافات حضرموت ولا زال صيد الوعل من الرياضة المحببة إلى نفوس الحضرميين .

قبر هود عليه السلام

ويبدأ الوادى فى الضيق وعلى اليمين عند ملتقى السبعة الأودية تنقطع الحافة ، والطريق فى جملته لا بأس به ؛ وبعد فغمة تظهر قبة قبر هود عليه السلام والأبنية الملحقة به . ومجارى السيول هناك منحدرة جدا ، وتغطى التلال التى بينها طبقة من التراب الفاتح

سمكها ثماني بوصات، وهناك عدد من شجيرات الأثل والعِشَر والأراك تجعل المنظر العام رائعا . والناظر لتلك الأبنية الناصعة البياض يشعر بشيء من الرهبة وعلى القرية بمنازلها المطلية بالجير وقبابها ومساجدها مسحة من الجمال وقبة قبر هود قديمة. أما الأبنية فمستحدثة و يبلغ طول القبر مائة وعشرين قدما، ولعل هذا رمز لعظمته لا لطول قامته و بنيت القبة فى المكان الذى انشقت فيه الصخرة على حسب زعمهم . وتتلخص قصة هود فى أنه دعا قومه إلى الإيمان بالله فأخذوا يلحقون به الأذى حتى لجأ إلى صخرة فى الجبل ابتلعته وماتت ناقته فى نفس المكان ، ولما انتشرت الخرافات والتوسل بالأموات والأحجار والأشجار علا شأن هذا الضريح المقدس، وأخذ الناس يتوافدون عليه و يقضون حوله ثلاثة أيام وعندهم بقايا من الشعور الوثنى ، فكل منهم يدنو إلى ذلك القبر كطفل ملىء بالثقة والأمل .

يقوم الشخص ومعه قطعة من الخشب بها خيط ملون من الصوف قد اتصلت به قطعة صغيرة من الحجر . أما القطعة الخشبية فتوضع فى الحائط الخارجى للقبة أو فى جوانب الأحجار البيضاء اللون ، ولا يسمح بقذف الخشب فى داخل القبة . أما الخيط فيجمع و يربط باللعاب و يقذف فى الحائط أو السقف ، ولهذا تظهر الحيطان والسقف كأنها مغطاة بطبقة من الورق المزخرف أو زينت بنقوش مختلفة الألوان .

وحاول بعض الدّجالين الذين عجزوا عن مواجهة الحياة ، وفشلوا فى الحياة الاقتصادية فأرادوا الرزق من طريق القرابين والنذور ، حاول هؤلاء أن يصرفوا الناس عن حج بيت الله الحرام فأقاموا بناء مستديرا كقاعدة عمود سميك وقالوا للناس إن هذا المكان الذى انشقت فيه الصخرة ، وقد صقلت هذه الصخرة بآلاف الأيدى التى مرت عليها وآلاف الشفاه التى لثمتها ، وكتبت على الحيطان الآيات القرآنية التى نزلت فى هود والأحاديث الموضوعة التى تحض على الزيارة ، وتشرف على المسجد قطعة من الصخر يزعمون أنها الناقة المتحجرة ، والماء قليل فى القرية ، وهناك بئر على بعد نصف ساعة من القرية .

وعند ماتدلف الشمس إلى الغروب تظهر روعة منظر هذه المنطقة المقدسة إذ تلوح المياه التى تنعكس عليها أشعة الشمس عند مغيبها كأنها خيوط من العسجد ، وتتخذ الشجيرات المحيطة بتلك البقعة لونا بنفسجيا وهى اللحظة الرهيبة التى تتبين فيها عظمة الصحراء وحقارة شأن الإنسان إلى جانبها ، وعندما يسدل الليل ستاره على هذه البقعة تعج القرية بالصمت والهدوء ، وتتراءى الشجيرات كأنها شهود عدل منذ القدم على هلاك قوم عاد بصمتها البليغ الرهيب .

بئر بَرْهوت

تنعقد الخرافات حول بئر برهوت بصورة مضحكة ، ومن الغريب أن أساطير كثيرة وردت فى كتب لها قيمتها من الناحية التاريخية والجغرافية ، ولم يعلق أولئك المؤلفون عليها بشىء بل سجلوها فى كتبهم كأنها حقائق علمية وهى بعيدة عن الحقيقة كل البعد . فمن ذلك ماذكره الهمدانى فى كتابه [صفة جزيرة العرب] والمسعودى فى [مروج الذهب] فقال « يقع بركان وادى حضرموت بين اليمن وعمان ، و يسمع له صوت كالرعد على بعد أميال عديدة ، و يقذف أكواما من الحمم يسمع لها أزيز مرعب» والقزوينى فى كتابه [عجائب المخلوقات] فقال : يقع بئر برهوت على مقربة من حضرموت . وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن أرواح الكفار والمنافقين تسكن فيه» وهو من أيام عاد، وقيل إن عليا كرم الله وجهه قال: إن أكره بقعة فى الأرض عند الله هو وادى برهوت ، و بها بئر كريهة الرائحة وماء آسن حيث تسكن أرواح الكفار . وقال الأصمعى : حدثنى رجل من حضرموت فقال : كلما شممنا رائحة خبيثة فى إقليم برهوت علمنا بعد ذلك أن شخصية كبيرة من الكفار قد ماتت . وورد ذكر هذه البئر على لسان بعض الكتاب الفرنجة الذين لاتختلف أقوالهم كثيرا عن أقوال الكتاب العرب .

يتصل برهوت بالوادى الرئيسى على مقربة من قبر هود عليه السلام، وهو يتسع فى مبدئه

ويغطى بطبقة من الطفل ثم يأخذ الوادى فى الضيق ، ويخترقه ممر ضيق يتعرج بين صخور وعرة المسالك، وتتسع الأرض وتتخللها صخورشاهقة على كل جوانبها ، وليس هناك أى أثر يدل على وجود براكين ، فهناك طبقة من الصخر الجيرى تعلوها أخرى من الحجر الرملى . والبقعة مليئة بالكهوف ثم يأخذ الوادى فى الضيق ولا أثر لكائن حى فى تلك الأصقاع المقفرة . ومن سفح الجبل تتراءى فوهة الكهف السوداء تطل من ارتفاع ٣٠٠ قدم، وهناك طريق معبد معرج فى الصخر ولكن جزءا كبيرا منه قد تهدم بفعل المياه ؛ وكانت الجمال تسير فى هذا الطريق لجلب السماد من البئر وهو لاشك ناجم عن فضلات الخفافيش ، ويبلغ طول البئر ١٢٠ قدما وعرضها ٤٥ وعمقها ٦٠ . وحافة الكهف منحدرة والتراب ناعم، والظلام حالك جداً ، والسكون مخيم لانسمع إلا صوت الخفافيش التى نجمت منها رائحة خبيثة . والممر يتصل بجزء متسع ثم يأخذ فى الضيق ثانية وينتهى إلى دهليز ضيق لايمكن السير فيه ؛ ولا يوجد طريق آخر سوى ممر ضيق على اليمين ؛ وتشتد الحرارة كلما يتعمق الإنسان فيه ، ويتقاطع الممر مع ممرات أخرى على الجانبين ، وهناك أثر كوة نقرت فى الحائط .

وأصح ماقيل عن هذا الكهف ماجاء فى كتاب « Hathramaut » للسيدين فان درميلن وويزمان اللذين ذهبا إلى حضرموت سنة ١٩٣١ ودخلا بئر برهوت . وها نحن نذكر وصفهما ، لذلك الكهف الذى قيل إنه مأوى أرواح الكفار . «... دخلنا وكان لويزمان ذا خبرة بكشف الكهوف ، ومعنا الآلات العلمية اللازمة وفانوس لنختبر به هواء البئر عما إذا كانت بها كمية وافرة من الأكسجين، وسرنا بحذر لأن حافة الكهف كانت منحدرة والتراب ناعم بحيث لانسمع وقع الأقدام عليه والظلام حالك جداً والسكون مخيم لانسمع إلا صوت الخفافيش التى نجمت عنها رائحة خبيثة ثم وجدنا الممر متصلا بجزء متسع فسألنا رفاقنا البدو والذين أخذوا بروعة المنظر : هل هذا هو مقر أرواح الكفار ؟ فأجابوا الله أكبر الله أعلم ؛ ثم أخذ الممر يضيق ثانية وانتهى إلى دهليز ضيق لايمكن السير عليه، ولايوجد طريق آخر سوى ممر ضيق على

اليمين كلما تعمقنا فيه اشتدت الحرارة ، ووجدنا أنفسنا مضطرين للعودة بسبب الحرارة والظلام والروائح الخانقة ، وكلما تقدمنا تقاطع الممر مع ممرات أخرى على الجانبين ، ووجدنا آثارا تدل على وجود إنسان وأثر كوة نقرت فى الحائط وقطعاً من الفحم الخشبى ، ولما تقدمنا قليلا وجدنا مثل ذلك وقد أخذ الممر يضيق وتزداد حرارته ، ولما خرجنا وجدنا أنفسنا نتصبب عرقا ، وقد تغطت أجسامنا بطبقة من الثرى فأصبحنا كالوقادين ، وكانت بعض الدهاليز الجانبية شديدة الانحدار ، وقد دخل فون ويزمان وعلوا أحدها وعلى جانبيه أكدام من الأحجار ، وبعد أن سارا مسافة طويلة سمعنا صوت انهيار كدم من الأحجار ، ولم نر ضوء المشعل الذى معهما ثم خيم صمت رهيب ، وبعد ٢٠ دقيقة ونحن فى قلق متزايد خرجا منهوكى القوى فساعدناهما على الصعود . وكانت الحيطان مغطاة بطبقة بيضاء اللون حسبناها ملحا ، ولما تذوقناها لم نجد لها طعم الملح وتتخللها أصداف لا عداد لها فنزعنا بعضها وأخذناه معنا ، ولما بحثنا كل الممرات عدنا أدراجنا ، وفى طريق العودة كان الجو يزداد برودة ، ولسوء الحظ لم نحضر معنا ترمومتراً حتى نسجل الحرارة ، ولما خرجنا وجدنا رفاقنا يغطون فى سبات عميق ، فلما أيقظناهم نظروا إلينا فى شىء كثير من الدهشة إذ كانوا يتوقعون هلاكنا وانتهينا بعد بحثنا إلى النتيجة الآتية : وهى أن بئر برهوت كهف جيرى ليس به أثر بركانى ، وأما الروائح الخبيثة فهى ليست ناجمة عن الكبريت بل عن تحلل الصخور وبول الخفافيش والسبب فى الشعور بالحرارة ليس نتيجة عوامل بركانية ولكن من تأثير الحرارة الخارجية » انتهى بتصرف .

العودة إلى المكلا

كانت ليلة طريفة قضيناها فى مدينة تريم الغناء ، وكنت أردت الذهاب إلى سد النَّقْرَة فى الصباح الباكر قبل عودتى إلى القَطْن ، وقد ألح علىّ بذلك صديقنا السيد حسن شيبة الذى كان أحد المشرفين على بناء السد ولكن كان برنامج الرحلة

لايسمح لى بذلك ، إذ من الضرورى أن أكون فى سيون قبل الظهر وفى شبام الساعة ١٢ ظهراً لزيارة المدارس ، لذلك عدلت عن مشاهدة السدِّ والأسف ملء الفؤاد ، وقد أمدنى السيد حسن شيبة بمعلومات دقيقة عن بناء ذلك السد العظيم .

مدرسة سيون

فى الصباح الباكر ودعنا السادة آل الكاف شاكرين لهم كرم ضيافتهم لنا وحفاوتهم بنا ، وفى الضحى وصلنا سيون وذهبنا رأسا إلى المدرسة لزيارتها فاستقبلنا ناظرها السيد بلفقيه ودخلنا الفصول وشاهدنا المدرسين وهم يلقون دروسهم على التلاميذ والمدرسة هى الوحيدة للبنين فى سيون ، وعدد تلاميذها بضع مئات ، وأهم مايدرس فيها مبادئ العلوم الدينية واللغة العربية، والفصول صحية ولكن ليس بها مقاعد: فالتلاميذ يجلسون على الأرض والمدرسة فى أشد الحاجة إلى المساعدة المادية ، و إلى تجديد أوضاعها ونظامها وطرق التدريس فيها ، وليس الناظر والمدرسون هم فقط المسئولون عن حالتها الراهنة ولكن أولى الأمر والأغنياء مسئولون أيضا ، وإنها لجريمة أن يقضى على مستقبل مئات من التلاميذ النجباء . إن التعليم الصحيح هو أساس كل شيء من مقوّمات الوجود الإنسانى و إنه إذا لم يصلح التعليم فلا بد أن ينهار كل شيء . إن تثقيف العقول وتقويم الأخلاق أهم من التعمير المادى . إنه أثمن رأس مال للأمة وأمضى سلاح تواجه به أحداث المستقبل ، فإن الناشئ الصغير فى المدرسة هو العامل غدا فى المصنع، وهو الأب فى الأسرة وهو المواطن الكبير فى الأمة فإذا عنيت الدولة بهذا الناشئ فى أوليته فقد ضمنت فى المستقبل الشعب كله وأنشأت الدعامة القوية التى تستند إليها حين تلتمس أسباب الخلاص من الشدائد حين تتحرج ، ومن الخطوب حين تتعقد . ومن المقرر أن التعليم الصحيح أقوى سلاح لمكافحة الفقر والمرض ، وأن الفقير الجاهل أضيق حيلة ، وأضعف وسيلة ، وأعجز عن مقاومة البؤس من الفقير المتعلم ، لقد قضينا عشرات السنين فى تعلم مبادئ العلوم الدينية وقواعد اللغة

العربية ، والإسلام لايريد سوى طائفة لتتثقف فى الدين . أما السواد الأعظم فيجب أن يأخذ نصيبه من علوم الحياة ، ونحن فى عصر أصبح الإنسان فيه لايقاس بحسبه ونسبه ، ولكن بعلمه وكفاءته وخبرته بالحياة .

وبعد زيارتنا للمدرسة ذهبنا لزيارة السيد وطس نائب المستشار فى منزله الذى يقع خارج سور سيون فاستقبلتنا عقيلته بحفاوة بالغة ، وبعد فترة من الزمن شربنا فيها الشاى استأنفنا الرحيل .

مدرسة شبام

ولحسن الحظ وصلنا شبام الساعة ١٢ وتمكنا من زيارة المدرسة قبيل انصراف التلاميذ منها فاستقبلنا المدرسون بحفاوة بالغة ، ولما علموا أنى مسافر فى نفس اليوم إلى القَطْن أقاموا فى المدرسة حفلة تكريم .

والمدرسة حكومية ، ولكن مستواها العلمى أقل بمراحل مما شاهدته فى المدارس الحكوميه بالساحل ، وكان يجب أن تكون من أرقى المدارس وأكثرها حركة ونشاطا ، فهى فى مدينة تعتبر أم المدن بحضرموت وأكثرها ازدحاما بالسكان ، والشباميون معروفون بالنشاط والحركة وحب العمل . اندهشت من تأخر الدراسة فى المدرسة ، وبها مدرسان نشيطان مخلصان فى العمل وهما الأستاذان بكير وباوزير . ولكن زالت دهشتى عندما علمت أن الناظر — وقد تغيب عن المدرسة فى ذلك اليوم — هو الذى يريد أن يسير التعليم فى المدرسة على أوضاعه القديمة ، وهو الذى يعارض فى إدخال أى تجديد وإصلاح فى نظام المدرسة وسير التعليم فيها ، ويشجعه على ذلك معظم آباء التلاميذ ولعلهم يرون أنه من مصلحة المدرسة أن تبقى على أوضاعها القديمة ، ولكن يجب أن يعلموا أن نظم التعليم فى العالم تتطور تبعاً لتطور الزمن ، وإن نظام المدارس الذى أَلِفناه من عشرين سنة غير صالح قطعيا فى العصر الحاضر ولا مُجدٍ للنشأة الجديدة . ليس فى استطاعة المدارس التى من هذا النوع أن تخلق لنا رجالا

أ كفاء. إنه فى مقدور أهل شبام —وفيهم الموسرون— أن ينهضوا بالمدرسة إلى المستوى اللائق بها و بمدينتهم ذات التاريخ المجيد فلم لايفكرون كثيراً ولا قليلا فى مستقبل أبنائهم و إعدادهم للحياة ؟

الرحيل

بعد أن تناولنا الغداء فى منزل مضيفنا السيد حسين أبى بكر لعْجَم استأذناه فى الرحيل وشكرناه على ما أبداه نحونا من العواطف الكريمة والإحساس الرقيق ، ولا غرو فباب داره مفتوح على مصراعيه لكل طارق ؛ وتفضل صديقنا السيد وطس نائب المستشار بِسَيْوُن فأخذنى فى سيارته إلى حصن زرقانة بالقَطْن فشكرته على هذا الشعور الرقيق والإحساس النبيل؛ وهرع كثير من الأصدقاء إلى دار مضيفنا السيد على محسن البكرى . وفى المساء أقام أهل الريضة حفلة تكريم لنا فى المدرسة وقد أحضروا التلاميذ واختبرتهم فوجدت مستواهم العلمى لايقل عن مستوى مدارس الساحل .

وأهل الريضة وما جاورها من القرى يشعرون من أعماق قلوبهم وقرارة نفوسهم بعطف كبير نحوى ، ذلك لأنهم يعلمون أنى قضيت عهد الصبا فى الريضة و با بكر ، فلا غرو إذا هبوا عن بكرة أبيهم مرحبين بقدومى ترحيبا منقطع النظير .

العودة إلى المكلا

وفى الصباح الباكر ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٤٧ قامت بنا السيارة وكانت مليئة بالمسافرين ولكن محركها قوى فلم يعتره خلل ولا عطب ، وعند ما وصلنا حوره ذهبت إلى منزل القائم السيد محفوظ لَرْضى إذ كنت على موعد معه ، و بعد نصف ساعة استأنفنا الرحيل وانطلقت بنا السيارة حتى إذا وصلنا عقبة الجحى أخذنا قسطنا من الراحة ، وتناول كل منا طعامه ، وقد جلست أنا والسيد على القانص تحت شجرة نبق نأكل أجود أنواع بلح زرقانة ، وكان يحكى لنا ذكرياته الطويلة فى جاوه، ومر أمامنا سرب من فتيات الوادى وعلى رأس كل منهن حزمة من الأعشاب

ومرت سحابة دكناء فغامت السماء ، وأسدلت نقابا على وجهها الصبوح وأخذت الشمس تبدو من حين إلى حين بخيوطها الذهبية الرقيقة كأنها حسناء تختلس النظرات وتنعكس خيوطها الذهبية على الأحراج والمروج والسهول الرملية ، فتزيد منظر الوادى روعة و بهاء . و قبيل الظهر اجتزنا العقبة بسلام واندفعت بنا السيارة فى(الجول) وعلى مقربة من طريقنا يقع المهبط الذى يؤدى إلى وادى الأيمن (ليمن) وعند بداية الممر الذى يؤدى إلى الوادى تقوم قلعة حصينة من الصخر الصلد ومثلها عند الحافة الأخرى ، وقلاع أخرى فى كل منطقة لتشرف على سلامة الوادى . ومن يقف على هذا المنحدر يقع نظره على بقاع لانهاية لها ملأى بالصخر الرمادى الداكن . وفى المناطق المنخفضة عالم من الفتنة والجمال ، فتسطع الشمس بأشعتها اللامعة على الوادى الساكن العديم الحركة ، وتنتشر أحراج النخيل تطاول السماء يخترقها خط أبيض هو قاع السيل والمدن متناثرة بين كل ذلك . يا له من منظر رائع فكأنما وادى دوعن فردوس فى وسط تلك الصحارى المجدبة ، حقا إنه لخير جزاء لأولئك المنكودين المنهوكين .

... ولفظ النهار أنفاسه وأقبلت كتائب الظلام متلاحقة فشملت السكون ، وسرعان ما أحاطت مظاهر الوحشة (بالجول) فاحتواها سكون عميق مخيف ولكنها ساعات معدودات ؛ فقد وصلنا المكلا قبيل منتصف الليل .

الساحل الغربى لحضرموت

لم أتمكن لسوء حظى من الذهاب إلى الساحل الغربى لمشاهدة وادى حَجْر الخصيب ، وقد استعد أهل حجر لاستقبالى والترحيب بى حين بلغهم عزمى على زيارتهم كما أخبرنى بذلك السيد الخلوصى نائب حجر السابق ونائب شبام اليوم .

نهر حجر

أبرز الظواهر الطبيعية فى حضرموت نهر حَجْر الذى يصب بالقرب من رأس

الكلب ، ويكوّن دلتاه إقليم ميفع الحصيب ويبلغ طوله ٢٠٠ كيلو متر ، وعرضه من ٥ — ١٠ أمتار ، وعمقه من ٥ — ٢٥ سنتيمتراً ، وهو يشق طريقه فى ثلاث خوانق ، وعلى امتداده توجد قرى بها أكبر مساحة ممكنة من الأراضى الزراعية .

ووادى حَجْر أغنى منطقة بحضرموت من الناحية الجيولوجية والنباتية . فالطبقات هناك عكسية مكونة من الحجر الجيرى الأسود والحجر الرملى . وتروى حقول الذرة والسمسم قنوات تستمد ماءها من ينابيع ذات ماء حار جداً قد يصل إلى درجة الغليان وطعمه ملح ، وهناك برك ومستنقعات عليها طبقة من الملح ، وتكثر أحراج النخيل والأعشاب التى تمتد على طول النهر . وعلى مقربة من الصدارة توجد ينابيع مياه حارة ويروى بها النخيل وهى لا تؤذى جذوره .

ويستخرج بعض الأهالى عصارة أثمار النخيل ويشربونها كنوع من المشروبات المخدرة . وتكثر هناك الثعابين والعقارب ولذلك يلبس مرشدو القوافل فى وادى حَجْر نوعاً غريباً من الأحذية يغطى كل القدم من أعلى وأسفل ، ويحدث صوتا عاليا عند المسير .

ويدل وجود تلك الينابيع ذات المياه الحارة على آثار بركانية . وتقع الصدارة على حافة الجبال الساحلية وهى بركانية .

وتقع مدينة ميفع على مقربة من البحر ؛ وهى مدخل وادى حَجْر وأخصب منطقة فى جنوب الجزيرة العربية ، إذ يغور فى أراضيها الجزء الأكبر من ماء نهر حجر وغرينه . ولعدم وجود مشروعات لردم تلك المستنقعات وتجفيفها واستغلال الأراضى الخصيبة نجد الحمى المتقطعة منتشرة فى الأهالى .

وفى الشمال الغربى لميفع يقع السور المتهدم الذى احتمى به يافع فى حرب حجر التى انتهت باحتلال الوادى . وعلى مقربة من هذا السور قبور القتلى منهم وعليها علامات من الحجر .

حضرموت قبل الإسلام

يرى الباحثون فى تاريخ شبه الجزيرة العربية وجغرافيتها أن المدنية إنما نشأت واستقرت وازدهرت فى المناطق الشمالية، وتشمل : العراق والشام؛ وفى المناطق الجنوبية وتشمل : حضرموت واليمن . وعلى هذا فالمناطق الداخلية والوسطى من شبه الجزيرة صحراوية جافة يندر بها سقوط الأمطار وتقلّ فيها النباتات إلا حول العيون والآبار ، وأهلها قوم رحل يشتغلون بالرعى ونقل المتاجر على ظهور الجمال .

وحضرموت هضبة عالية يتراوح متوسط ارتفاعها ١٠٠٠ — ١٥٠٠ متر ، وبعض جهاتها الوسطى ترتفع ٢١٨٧ متراً عن سطح البحر . ومعظم صخور الهضبة من المواد البركانية التى تسربت من باطن الأرض فى شقوق عدة فظهرت فى هيئة براكين مخروطية الشكل تكونت فى الأعصر الجيولوجية ، وبعضها مغطاة بطبقات من اللافا الغطائية ؛ ويظهر هذا بشكل واضح فى وادى حجر وفى الغيل والحامى والديس حيث تكثر العيون الفياضة . وفى السهول الداخلية تفتت المواد البركانية بفعل العوامل الجوية والأمطار فتكونت تربة صالحة للزرع والإنبات ، وتشبه التربة هنا أراضى الدلتا فى مصر التى تكونت من طمى النيل .

وكانت الأمطار تسقط كثيرا فى الصيف قبل القرن السادس الميلادى أو قبل أن تعترى بلاد العرب الأزمات المناخية . ولما كانت الأرض هناك صالحة للاحتفاظ بالرطوبة وتغذية النبات بها حتى بعد أن ينقضى موسم المطر تكاثرت الخيرات الزراعية وأصبحت حضرموت جنة الله فى أرضه . ولقد تحدث اليونان والرومان عن وفرة ماء حضرموت واخضرار مناظرها وعن بساتين الفواكه وحقول التوابل ونباتات البخور التى كانت تصدر من هناك إلى موانئ اليمن ثم إلى شمال الجزيرة وبلاد الرومان .

لحضرموت لم تكن صحراء قاحلة وأراضى ماحلة ، لم تكن منطقة بدو ورعاة ، وإنما كانت هضبة عالية غزيرة الأمطار الصيفية ، غنية التربة ، تكسوها الأعشاب والنباتات ، وأهلها يفلحون الأرض وينشئون المدنيات العريقة المستقرة ، ويهاجر ملاحوهم وتجارهم بعيداً عن بلادهم ينقلون معهم ثقافتهم السامية .

لهذا لم يكن غريبا أن تصبح حضرموت موطنا للحضارات والمدنيات المعينية والسبئية والحميرية التى استمرت نحو ألف وخمسمائة سنة قبل ظهور الإسلام .

هجرة الحضارم إلى الخارج

فى القرون السابقة لظهور الإسلام اعترت بلاد العرب أزمات مناخية تمثلت فى فترات جفاف شح فيها المطر تدريجاً منذ القرن السادس الميلادى وازدادت ندرته ، فافتقرت الحياة النباتية افتقاراً شديداً حوالى عام ٥٠٠ بعد الميلاد ، ولا يزال معظم تلك الأصقاع يعانى فترة الجفاف حتى الآن .

والأدلة الأثرية توضح تغير الأحوال المناخية وحلول الجفاف التدريجى .

١ — ففى حضرموت وظفار وشرق اليمن آبار كثيرة ، بعضها محفور فى سفوح التلال وهى فى الوقت الحاضر جافة ويكاد يغيض منها الماء ، وكانت فياضة فى العصور القديمة . ولما كانت مياه الآبار إنما ترجع فى الأصل إلى مياه الأمطار الساقطة والتى تتشربها الأرض ، فإن انخفاض مستوى مياه تلك الآبار دليل قاطع على قلة الأمطار فى الوقت الحاضر عنها فى أيام السبئيين والحميريين .

٢ — وفى اليمن وحضرموت مدائن كثيرة ترجع إلى الحضارات المعينية والسبئية والحميرية وهى الآن كلها فى مناطق جافة .

٣ — وهناك حقول منتشرة قاحلة وأحواض واسعة ماحلة كانت ترويها الأمطار إما بالمباشرة وإما بواسطة مشروعات الرى كالسدود التى بناها القدماء .

حضرموت قبل الإسلام

يرى الباحثون فى تاريخ شبه الجزيرة العربية وجغرافيتها أن المدنية إنما نشأت واستقرت وازدهرت فى المناطق الشمالية، وتشمل : العراق والشام؛ وفى المناطق الجنوبية وتشمل : حضرموت واليمن . وعلى هذا فالمناطق الداخلية والوسطى من شبه الجزيرة صحراوية جافة يندر بها سقوط الأمطار وتقلّ فيها النباتات إلا حول العيون والآبار ، وأهلها قوم رحل يشتغلون بالرعى ونقل المتاجر على ظهور الجمال .

وحضرموت هضبة عالية يتراوح متوسط ارتفاعها ١٠٠٠ — ١٥٠٠ متر ، و بعض جهاتها الوسطى ترتفع ٢١٨٧ متراً عن سطح البحر . ومعظم صخور الهضبة من المواد البركانية التى تسربت من باطن الأرض فى شقوق عدة فظهرت فى هيئة براكين مخروطية الشكل تكونت فى الأعصر الجيولوجية ، و بعضها مغطاة بطبقات من اللافا الغطائية ؛ و يظهر هـذا بشكل واضح فى وادى حجر وفى الغيل والحامى والديس حيث تكثر العيون الفياضة . وفى السهول الداخلية تفتت المواد البركانية بفعل العوامل الجوية والأمطار فـكونت تربة صالحة للزرع والإنبات ، وتشبه التربة هنا أراضى الدلتا فى مصر التى تكونت من طمى النيل .

وكانت الأمطار تسقط كثيرا فى الصيف قبل القرن السادس الميلادى أو قبل أن تعترى بلاد العرب الأزمات المناخيـة . ولمـا كانت الأرض هناك صالحة للاحتفاظ بالرطوبة وتغذية النبات بها حتى بعد أن ينقضى موسم المطر تكاثرت الخيرات الزراعية وأصبحت حضرموت جنة الله فى أرضه . ولقد تحدث اليونان والرومان عن وفرة ماء حضرموت واخضرار مناظرها وعن بساتين الفواكه وحقول التوابل ونباتات البخور التى كانت تصدر من هناك إلى موانئ اليمن ثم إلى شمال الجزيرة و بلاد الرومان .

حضرموت لم تكن صحراء قاحلة وأراضى ماحلة ، لم تكن منطقة بدو ورعاة ، وإنما كانت هضبة عالية غزيرة الأمطار الصيفية ، غنية التربة ، تكسوها الأعشاب والنباتات ، وأهلها يفلحون الأرض وينشئون المدنيات العريقة المستقرة ، ويهاجر ملاحوهم وتجارهم بعيداً عن بلادهم ينقلون معهم ثقافتهم السامية .

لهذا لم يكن غريبا أن تصبح حضرموت موطنا للحضارات والمدنيات المعينية والسبئية والحميرية التى استمرت نحو ألف وخمسمائة سنة قبل ظهور الإسلام .

هجرة الحضارم إلى الخارج

فى القرون السابقة لظهور الإسلام اعترت بلاد العرب أزمات مناخية تمثلت فى فترات جفاف شح فيها المطر تدريجاً منذ القرن السادس الميلادى وازدادت ندرته ، فافتقرت الحياة النباتية افتقاراً شديداً حوالى عام ٥٠٠ بعد الميلاد ، ولا يزال معظم تلك الأصقاع يعانى فترة الجفاف حتى الآن .

والأدلة الأثرية توضح تغير الأحوال المناخية وحلول الجفاف التدريجى .

١ — ففى حضرموت وظفار وشرق اليمن آبار كثيرة ، بعضها محفور فى سفوح التلال وهى فى الوقت الحاضر جافة ويكاد يغيض منها الماء ، وكانت فياضة فى العصور القديمة . ولما كانت مياه الآبار إنما ترجع فى الأصل إلى مياه الأمطار الساقطة والتى تتشربها الأرض ، فإن انخفاض مستوى مياه تلك الآبار دليل قاطع على قلة الأمطار فى الوقت الحاضر عنها فى أيام السبئيين والحميريين .

٢ — وفى اليمن وحضرموت مدائن كثيرة ترجع إلى الحضارات المعينية والسبئية والحميرية وهى الآن كلها فى مناطق جافة .

٣ — وهناك حقول منتشرة قاحلة وأحواض واسعة ماحلة كانت ترويها الأمطار إما بالمباشرة وإما بواسطة مشروعات الرى كالسدود التى بناها القدماء .

٤ — وهناك صهاريج عظيمة خلفها السبئيون والحميريون كصهريج عدن الذى يسع ثلاثين مليون جالون ، وهى تقع فى ربوات مرتفعة منحوتة فى الصخر تتلقى المياه ويستقى منها الناس طوال العام ، وفى الوقت الحاضر لا يحدث أن تمتلئ تلك الصهاريج ولايتجمع فيها غير قليل من الماء لايلبث أن يأسن .

٥ — وهناك ضرب آخر من الأدلة يستخلص مما خلفه القدماء من كتابات وقصص ، تدل على أن الأمطار فى العصر الجاهلى كانت أغزر وأكثر انتظاما منها الآن ، وعلى أن موارد الماء كانت خيرا مما آل إليه الأمر قبيل الإسلام ؛ فاليونان والرومان تحدثوا عن وفرة مياه حضرموت واخضرار مناظرها الطبيعية وكثرة بساتين الفواكه ونباتات البخور .

اضطر الحضارم أمام هذه الظروف الجغرافية القاسية وتغير المناخ وحلول الجفاف التدريجى إلى النزوح عن بلادهم والهجرة إلى الخارج لطلب الرزق . ولم تكن هذه الهجرة ظاهرة تاريخية بسيطة يمكن نسبتها إلى مجرد ظهور الإسلام وإنما هى قديمة فقد كونوا جالية كبيرة فى الهند فى جدروزيا الواقعة بين جبل كربيلا ومصب نهر السند ، وهناك بنوا مدنا وأنشئوا أسطولا تجاريا يغدو ويروح بين الهند وجنوب الجزيرة بأصناف البضائع وأنواع المتاجر . يقول المسيو Guillain فى كتابه :

« Documents Sur l'Histoires Le Geographie et le Commerce de L'Afrique Orientale »

« قبض العرب منذ أقدم العصور على زمام التجارة البحرية وبخاصة فى الشرق ، فكانت سفنهم تجرى فى المحيط الهندى وبخاصة فيما بين بلادهم والهند التى كان لهم جالية كبيرة على سواحلها قرب نهر السند هى التى سماها الهنود Arabitoe . ولما أرسل الإسكندر المقدونى نيارك Nearque قائد أسطوله لاستكشاف بحر الهند وجد بسواحل جدروزيا آثارا دالة على نفوذ العرب من مدن عربية وأساطيل عربية . وكان الربان الذى أرشدهم فى ذلك البحر عربيا » .

وأهم ظاهرة لهجرة عرب جنوب الجزيرة العربية هجرة قبيلتى تنوخ وقضاعة فى القرن الثالث الميلادى إلى نجد ، ثم إلى ساحل الأحساء لحدود العراق الغربية . وقد أرادت أمبراطوريتا الفرس والروم أن تؤمنا حدودهما من ناحية البدو والصحراء فشجعتا على استقرار العرب المهاجرين فى دولتين : —

إحداهما تحت النفوذ الفارسى وهى دولة اللخميين وأهم مدنها الحيرة (على الفرات قرب كربلاء) وترعى مصالح الفرس من ناحية البادية .

وتقع الأخرى وهى دولة الغساسنة ، ومن أهم مدنها بصترة ودمشق وتحمى مصالح الروم من ناحية البادية أيضا . ونشأت اتصالات بين أولئك الأعراب ، وأصبحوا بالتدريج رسل التجارة والتبادل بين الأمبراطوريتين . ونشأت الطرق التى تسير عليها القوافل مشرّقة ومغربة بالسلع والمتاجر بين الفرس والروم ، و بين خليج فارس وشرق البحر الأبيض المتوسط . هكذا وجدت العناصر المنتشرة من جنوب الجزيرة ملجأ فأدى ذلك إلى انفراج الأزمة التى ترتبت على طول الجفاف .

حضرموت فى العصر الإسلامى

كندة :

قامت دولة كندة على أنقاض الدولة الحميرية ، ولم يتجاوز سلطانهم حدود حضرموت ، وكان نفوذهم قويا من نهد إلى دمون . ولما جاء الإسلام كان الملك حجر بن وائل الذى كاتبه النبى صلى الله عليه وسلم . ومن أمرائهم أبو الفضل العباس ابن معن بن حوشب وآل جعفر الذين ذكرهم ابن عقبة فى قصيدته المشهورة :

و بدا الصباح فصبحت من كندة ... بقرار عرصتها سلالة جعفر
أهل المكارم والفضائل والعلا ... وملاذ كل مطرد ومنفر
وملوك كندة فى القديم و بعدها ... جاء البيان على لسان المنذر

و يوجد من سلالة كندة آل باجمال وآل بادجانة وآل محفوظ وآل دغار وآل بانجار وآل على بالليث وآل محمد بالليث و بنو نجيب وآل مرتع وآل مخاشن و باكثير و بازرعة و باحنين وابن حميد و باقيس و بابحير وغيرهم .

امتناع كندة عن دفع الزكاة

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب أبو بكر رضى الله عنه إلى زياد ابن لبيد الأنصارى يخبره بوفاة الرسول و يأمره بأخذ البيعة من أهل حضرموت ، فخرج زياد بن لبيد يدعو الناس لبيعة أبى بكر الصديق فبايعه خلق كثير ، وامتنع عن البيعة حارثة بن سراقة بن معدى كرب بن الحارث من عظماء كندة . وامتنع عن دفع الزكاة الأشعث بن قيس من سادات كندة وأغنيائها فى كثير من أتباعه ، وارتدت بنو وليعة بن شرحبيل بن معاوية فتركهم زياد وشأنهم .

و يحدثنا التاريخ أن زياد بن لبيد خرج يوما لأخذ الصدقة فأخذ فيما أخذ بكرة من أحد فتيان كندة ، فهاج الفتى وماج وذهب إلى حارثة بن سراقة بن معدى كرب الكندى واستغاث به ، فجاء حارثة إلى زياد وأمره أن يطلق للغلام بكرته فامتنع وقال عقلتها ووسمتها بميسم السلطان فهدده حارثة وأنذره قائلا له : أطلقها أيها الرجل طائعا قبل أن تطلقها وأنت كاره ، فأبى زياد فوثب حارثة وحل عقال البكرة وضربها فانطلقت تعدو وحارثة يقول :

يمنعها شيخ بخديه الشيب ملمع كما يلمع النوب

ماض على الريب إذا كان الريب

واستغاث زياد بن لبيد بأصحابه وانحاز بنو وليعة المرتدون إلى حارثة بن سراقة وحدثت معركة بين الفريقين وكاد زياد ينهزم ؛ وفى الليل أتاه عبد له وكان قد انحاز

إلى حارثة ، وأخبره أن ملوك كندة الأربعة مخوس ومشرح وحمد وابضعة فى محجرهم قد ثملوا من الشرب فذهب إليهم زياد خلسة وذبحهم وجعل يقول :

نحن قتلنا الأملاك الأربعه حمدا ومخوسا ومشرحا وابضعه

واستغاث الأشعث بعظماء كندة وأخذ يحشد منهم جموعا لمقاتلة زياد ، وكتب زياد إلى أبى بكر الصديق؛ فأرسل الصديق إلى المهاجر بن أمية والى صنعاء يأمره بإنجاد زياد وجاء المهاجر بجيشه ولقوا الأشعث وقتلوا منهم مقتلة عظيمة . ولما جن الليل لجأ الأشعث و بعض رجاله إلى حصن النجير فحاصروهم ومنعوا عنهم الماء والطعام فطلب الأشعث له ولبعض رجاله . فقام إليه معدان بن الأسود بن معدى كرب وقال : اجعلنى من العدة فأدخله فيهم وأخرج نفسه ونزل إلى زياد بن لبيد والمهاجر فقبضا عليه ، و بعثا به إلى أبى بكر الصديق أسيراً فى سنة ١٢ هجرية . ولما حضر بين يدى أبى بكر قال له : فعلت وفعلت ، فقال الأشعث استبقنى لحربك فوالله ما كفرت بعد إسلامى ولكنى شححت على مالى ، فأطلقنى وزوجنى أختك أم فروة فإنى قد تبت مما صنعت، فأطلقه أبو بكر وزوجه أخته ، وقد كان تزوجها حين قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرها إلى أن يرجع ، وذهب الأشعث لشدة فرحه إلى سوق الإبل وجعل يعرقب بسيفه كل إبل السوق فبهت الناس وصاحوا : ارتد الأشعث ؛ فقال الأشعث لاوالله ولكن خليفة رسول الله زوجنى بأخته ، وهذه وليمتى فانحروا وكلوا ولو كنا ببلادنا لكانت أضعاف هذه ، ثم دفع للناس أثمان إبلهم . وأقام فى المدينة وخرج من نسله بنو الأشعث المذكورون فى الدولة الأموية ، وسار إلى العراق غازيا ؛ وتوفى فى الكوفة وصلى عليه الحسن بعد صلح معاوية وفيه يقول عمرو بن معدى كرب :

والأشعث الكندى حين سما لنا من حضرموت مجنب الذكران

قاد الجيـاد على وجاها نزبا قب البطون نواحـل الأبدان

كندة تطالب بالخلافة

كان ذلك سنة ١٢٩ للهجرة حين نهض عبد الله بن يحيى الكندى مطالباً بالخلافة . كان حادّ الذكاء تقياً ورعا شجاعا مقداما ، ذهب إلى اليمن فرأى المظالم ضاربة أطنابها فى طول البلاد وعرضها فنقم على الخليفة مروان بن محمد . عاد عبد الله ابن يحيى إلى حضرموت وجمع عظماء كندة وحثهم على الرحيل إلى اليمن لإزالة الظلم والمنكر ولنشر العدل والأمن والصلاح . اجتمعت كندة و بايعت زعيمها عبد الله ابن يحيى ماعدا ملكهم إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندى فى دمون الذى اضطر أخيراً لمغادرة حضرموت إلى اليمن ، وكتب عبد الله إلى حمزة المختار بن عوف الأزدى البصرى الخارجى وأبى عبيدة ومسلمة بن أبى كريمة مولى بنى تميم و بلج بن عقبة بالبصرة يشاورهم فى الخروج فكتبوا إليه : إن استطعت أن لاتقيم يوما واحدا فافعل فإن المبادرة بالعمل الصالح فضل ولست تدرى متى يأتى عليك أجلك ولله خيرة فى عباده يبعثهم إذا شاء لنصر دينه و يخص بالشهادة منهم من يشاء . أخذ طالب الحق — وهو لقب عبد الله — ألفين من خيرة رجاله ، وسار بهم إلى صنعاء بعد أن استخلف على حضرموت عبد الله بن سعيد الحضرمى ، فقابله القاسم بن عمر عامل مروان على صنعاء فى بضعة آلاف من جيشه ، وحدثت معركة بين الفريقين فى بلج انهزم فيها القاسم ، واستولى عبد الله الكندى على صنعاء وخرج إلى الجامع وخطب الناس فقال « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه و إجابة من دعا إليهما ، الإسلام ديننا ؛ ومحمد نبينا والكعبة قبلتنا والقرآن إمامنا رضينا بالحلال حلالا لانبغى به بديلا ، ولا نشترى به ثمنا قليلا ، وحرمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ؛ و إلى الله المشتكى وعليه المعول ... الخ[1] » .

أقام عبد الله بن يحيى أشهراً فى صنعاء نشر فى خلالها العدل والأمن ، وأعاد

---

(١) الجزء الأول من « تاريخ حضرموت السياسى » صفحة ٨١ .

للناس حقوقهم المهضومة وأموالهم المسلوبة . وفى شهر ذى القعدة سنة ١٢٩ للهجرة أرسل سبعمائة رجل من خيرة جيشه إلى مكة تحت قيادة أبى حمزة المختار و بلج بن عقبة وأبرهة بن الصباح ، ولم يستطع عبد الواحد بن سليمان — وهو يومئذ الوالى على مكة والمدينة الصمود — أمام جيش الكندى فانسحب إلى المدينة . فدخل أبو حمزة المختار مكة بدون قتال .

وكتب مروان إلى عامله على المدينة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز يأمره بإرسال جيش إلى مكة لاستردادها ؛ فجهز عبد العزيز ثمانية آلاف ولكن أبا حمزة استطاع أن يهزمهم شر هزيمة فقد قتل منهم ٢٢٣٠ نفساً ، واستولى على المدينة سنة ١٣٠ للهجرة ، وخرج أبو حمزة إلى الجامع وخطب الناس فقال « تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرا ولا بطرا ولا عبثا ولا لهوا ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ؛ ولا ثأر قديم نيل منا ، ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعنف القائل بالحق ، وقتل القائم بالقسط ، ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعيا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعى الله . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ... الخ[1] »

وغضب مروان بن محمد لهزيمة عامله فأرسل ٤٠٠٠ جندى بقيادة عبد الملك ابن عطية ؛ وأعطى كلا منهم فرسا ومائة دينار . والتقى الجيشان فى وادى القرى فى شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠ ، وانهزم جيش أبى حمزة وكان عدده ستمائة جندى وقتل قائده بلج بن عقبة وزحف ابن عطية واحتل المدينة بعد قتال عنيف ، ثم سار إلى مكة فلقيه أبو حمزة وقتل وقتلت امرأته مريم ، وأسر ابن عطية ٤٠٠ رجل من جيشه ثم قتلهم جميعا ، وذهب عبد الله بن يحيى الكندى إليه فى ألف فارس ، ولكن جيش ابن عطية أحاط به من كل جانب ؛ فانهزم الكندى وحز ابن عطية رأسه و بعثه مع ابنه يزيد إلى مروان .

---

(١) « تاريخ حضرموت السياسى » الجزء الأول صفحة ٨٤ .

واستمر ابن عطية فى زحفه إلى صنعاء واحتلها ، وهرب فلول جيش الكندى إلى حضرموت واستنجدوا بعبد الله بن معبد الحضرمى ، فحشد عبد الله خلقا كثيراً من قبائل كندة ونهد وتميم . سار ابن عطية بجيشه إلى حضرموت فلاقيه الحضارم فى الكسر ، ولكنهم انهزموا واحتل ابن عطية مدينة شبام وأثخن فى القتل ونهب الأموال ، وجمع ابن عطية أهالى شبام عند ما جاءه أمر مروان بالعودة وصالحهم على أن يرد إليهم ماعرفوا من أموالهم و يولى عليهم من يختارون فأجابوه إلى ذلك، ثم سار متعجلا فى أربعين من قومه ، ولما كان بأرض مراد لقيه جماعة من الأباضية وقتلوه ومن معه ، و بعثوا برأسه إلى شبام . و بلغ الخبر ابن أخيه عبد الرحمن بن يزيد ابن عطية وهو بصنعاء فأرسل شعيبا البارقى فى جيش فقتلوا الرجال والنساء والصبيان ونهبوا الأموال وأخرجوا دور هينن وقعوظة وحورة و بعض بيوت شبام ، ثم عادو إلى اليمن حاملين الأموال والحلى الثمينة .

وكان زحف شعيب البارقى بجيشه الهمج إلى حضرموت ضربة قاضية على الدولة الكندية ، وقد أخذ نفوذها يتضاءل حتى تلاشى سنة ٢١٣ .

دخول حضرموت فى طاعة العباسيين

ففى سنة ٢١٣ للهجرة أرسل والى اليمن محمد بن زياد بن عبد الله بن أبى سفيان إلى ولاة حضرموت يطلب دخولهم فى طاعة العباسيين فأجابوه إلى ذلك .

معن بن زائدة

وفى عهد المنصور العباسى عين معن بن زائدة والياً على اليمن فأرسل أخاه عاملا على حضرموت وأقام بتريم ، وكان فاسقا ظالما سفاكا فقتله أهل تريم ، وانفضت حضرموت عن معن فغزاهم وأثخن فى القتل حيث بلغ عدد القتلى خمسة عشر ألفا

وسد العيون بالرصاص وأجبر الناس على لبس السواد وهو شعار العباسيين ، ثم عاد إلى صنعاء وأبقى ولده زائدة بن معن واليا على حضرموت ، واستدعى المنصور معن بن زائدة لقتال الخوارج فى خراسان فتبعه رجلان من حضرموت واغتالاه أخذا بثأر أبيهما وعادا إلى حضرموت .

واستمر العباسيون يحكمون حضرموت واستمرت حضرموت فى طاعة العباسيين حينا من الدهر ، وحين بدأ الضعف يحل بهم أمسى الولاة لايفكرون إلا فى مصالحهم الخاصة يجمعون الأموال لأنفسهم بمختلف الوسائل ، فانتشر الفقر والجهل والمرض . تحسنت الحالة فى عهد الحسن بن سلامة مولى إسحاق بن إبراهيم الملقب بأبى الجيش، فقد عرف بالنزاهة والعدل وحب الخير . حفر آبارا كثيرة بين حضرموت ومكة وهو الذى بنى جامعى شبام وتريم ، وبعد موته استولى بنو معن وهم الزريعيون على حضرموت .

الصليحيون

وجاء بعد بنى سعد على بن محمد بن على الصليحى وامتلك حضرموت سنة ٤٥٣ ، وقيل إنه كان داعية للإسماعيلية ، وقيل للمستنصر العبيدى .

آل زريع

وضعف الصليحيون فباعوا ملكهم سنة ٥٤٦ لمحمد بن سبأ بن أبى السعود ابن زريع بن العباس بمائة ألف دينار .

بنو المهدى : وفى سنة ٥٦٢ انتهى أمر آل زريع على يد عبد النبى بن المهدى ، وحكم حضرموت خمسة عشر سنة .

الأيوبيون

وجاء السلطان شمس الدين أخو السلطان صلاح الدين الأيوبى ، واستولى على اليمن وقتل عبد النبي وصلبه فى زبيد لظلمه وجوره . ويقول ابن خلدون إن عبد النبي هذا من كبار الخوارج وكانوا يؤمنون بعصمته ويضعون أموالهم تحت يده ؛ وبانتهاء أمر بنى المهدى انتهى ملك العرب لليمن وحضرموت .

دولة الغز

وهؤلاء جماعة من الأتراك سطع نجمهم فى اليمن ثم أفل ، ومن أقواهم شخصية وأسبقهم إلى الظهور فى ميـدان الحرب والسياسة عثمان بن على الزنجبيلى ، جاء مع توران شاه بن أيوب من مصر إلى اليمن وتولى إمارة عدن من قبل توران شاه .

ولما مات توران شاه سنة ٥٧٦ فى الإسكندرية ، اشتد الخلاف بين ولاة اليمن الأيوبيين وضرب كل منهم النقود باسمه وانتشرت الفوضى وكسدت التجارة وعمت المجاعة ، انتهز عثمان الزنجبيلى الفرصة وأعلن استقلاله بعدن وسار إلى حضرموت واحتلها بعد أن قتل كثيراً من أهلها ؛ وعاد إلى عدن بعـد أن أناب عنه عمر بن مهدى على حضرموت .

آل راشد

وآل راشد بطن من حمير كانت لهم فى قلوب الناس منزلة دونها منزلة الولاة ، واشتهروا بالذكاء والكرم والصلاح وحب الخير، وكان الولاة يستعينون بهم ويتخذونهم بطانة . أعلن آل راشد استقلالهم بحضرموت ، وخلعوا طاعة الزنجبيلى فأرسل إليهم جيشاً وأخضعهم وقتل كثيرا من علماء تريم الذين حرضوا آل راشد على خلع طاعته ، وقبض على السلطان راشد وابنه شجعنة وسجنهما فى عدن . ولما قدم طغتكين بن

أيوب من مصر إلى تعز وزبيد قبض على العمال المستبدين ؛ فخاف الزنجبيلي على نفسه وهرب من عدن فى عدة سفن مشحونة بالأموال والنفائس ، ولكنها وقعت فى يد طغتكين ماعدا السفينة التى بها الزنجبيلي ، وسار الزنجبيلى إلى دمشق ومات بها سنة ٥٨٣ .

واستطاع راشد وابنه أن يهرب من عدن إلى حضرموت ، وقام آل راشد بالأمر فى حضرموت نحو ثلاثين عاما . كان عصرهم من أحسن العصور الإسلامية بحضرموت ، وأبرزهم ذكراً وأبعدهم صيتاً العالم الجليل السلطان عبد الله بن راشد ابن قحطان الحميرى . ولد فى تريم سنة ٥٥٣ ، وتربى تربية دينية ؛ تفقه فى الدين على العلماء أمثال الشيخ محمد بن أحمد بن أبى النعمان الهجرانى والشيخ يحيى بن سالم بافضل والشيخ أبى بكر بن أحمد بن أبى ماجد والشيخ فضل بن إبراهيم بن أبى جواس .

كتب العلامة محمد بن أبى الحب إلى السلطان عبد الله بن راشد فقال :

ياعالم الأفضال والجود والكرم   وعلامة الآداب والعلم والحكم

وياعصمة الله التى الناس ترتجى   به دولة يرعى بها الذئب والغنم

وفى أواخر أيامه اعتزل الحكم والسياسة ، ولما سئل محمد عن ذلك قال « ماوجدنا أهل حضرموت يوالوننا على الحق » وفى ليلة الثلاثاء ٢٣ جمادى الأولى سنة ٦١٢ خرج من تريم ليصلح بين قبيلتين . فقتله ابن مدارة تحت طاحس ، ودفن قريبا من مريمة ، و بقتله تداعت أركان إمارة آل راشد وآلت للسقوط .

ابن مهدى

سار عمر بن مهدى اليمانى بالغز إلى الشحر واحتلها سنة ٦١٢ ، وطرد منها عبد الباقى بن فارس ، وولوا عبد الرحمن بن راشد بن إقبال بن فارس بن محفوظ ابن محرم بن فارس .

وسار إلى عُرُف والغيل واحتلهما ، ودخل تريم فى ٢٣ جمادى الأولى سنة ٦١٦ وأبعد آل راشد وسار إلى شبام واحتلها عنوة من بنى حارثة ثم سار إلى دوعن فقاتل الدوعنيين قتالا عنيفا حتى أخضعهم ، وأخرب مدينة قيدون وأخذ الأموال والمواشى والأغنام ، ولعل قتل السلطان عبد الله بن راشد كان بإيعاز من ابن مهدى فقد خرج من تريم فى الليلة التى دخلها ابن مهدى . وعلى الرغم من شدة أعمال ابن مهدى وقسوة أحكامه وصرامة أوامره ، فإن حضرموت لم تصف كلها له ؛ فقد استمرت المشاغبات والاضطرابات تقلق راحته وتزعزع مركزه ، وقد انتقضت عليه حجر وهو فى اليمن فاستأذن المسعود بن كامل الرسولى ، وذهب إلى حجر وفتك بكثير من أهلها ونهب الأموال وسبى الرجال .

واستمر ابن راشد يؤدى الخراج لملوك الغز . ولما استولى نور الدين الرسولى على الشحر وحضرموت عزله وجعل على الشحر رجلا من الغز ونقيبا، فثار الخلاف بينهما بعد سنتين وقتل النقيب الأمير وندم نور الدين لما صار من النقيب ، واستدعى عبد الرحمن ابن راشد وولاه الشحر فضبطها له وحكم بالعدل ونشر الأمن فأحبه الناس .

ولما استولى الملك المظفر قدم له هدايا فاخرة فأبقاه الملك المظفر على الشحر ، وظل ابن راشد حاكما على الشحر حتى مات سنة ٦٦٤ ودفن بالشحر .

وقام بالأمر بعد راشد بن شجعنة بن ناجى بن راشد بن أقبال ولم تطل مدته إذ تغير عليه المظفر وسجنه فى زبيد .

نهد

وثارت نهد على عمر بن مهدى وهو فى شحوح وقتلته فى كثير من خيرة صحابه ، واندفعت نحو شبام واحتلتها واحتلت تريم وضواحيها، وأطلقت سراح أولاد السلطان عبد الله بن راشد الذين سجنهم ابن مهدى وأقاموا فى الشحر .

آل مسعود

واستطاع مسعود بن يمانى التميمى أن يركز السلطة فى يده ويقوم بأمر تريم ، وكان مولعاً باللهو مندفعاً نحو اللذات والشهوات ، ولكن استطاع شيخه على بن محمد الخطيب أن يصرفه عن ذلك ويقيم اعوجاجه ويوجهه التوجيه الحسن إلى أن مات ، ودفن بمقبرة الفريط بتريم إلى جانب شيخه . وقام بالأمر بعده ابنه يمانى ، وكان كثير الحروب محباً للمشاغبات . وفى سنة ٦٥٣ اشتد الخلاف بينه وبين أحمد بن لبيد وثارت الفتنة بينهما ، ولم تستقر الحالة ويستتب الأمن فى تريم وضواحيها إلا فى عهد ابنه السلطان عبد الله بن يمانى بن عمر بن مسعود التميمى المتوفى سنة ٧٣٥ .

الحبوظى

وفى سنة ٦٧٢ خرج سالم بن إدريس الحبوظى من ظفار إلى حضرموت بأموال طائلة واشترى مدينة شبام ، وذهب إلى نهد وجند كثيراً منهم . وسار بهم إلى تريم وحاصر ابن مسعود ثلاثة أشهر حتى اضطر إلى التسليم . وسار إلى دمون وسيون واحتلهما ، واضطر الحبوظى أن ينسحب من تريم تحت ضغط ابن شماخ ، وعاد سالم بن إدريس الحبوظى إلى ظفار بعد أن ترك ابنه موسى والياً على شبام ، وبعضاً من آل كثير على القرى .

عاد الحبوظى إلى ظفار بعد أن أقام فى تريم تسعة أشهر لم تقم فيها جمعة لجلاء السكان عنها مما نزل بهم من الخراب والدمار .

وحات بحضرموت مجاعة مات بسببها خلق كثير ، فسافر وفد من الحضارم إلى ظفار وطلبوا من سالم بن إدريس الحبوظى مايدفعون به تلك المجاعة على أن يسلموا

له مصانع حضرموت (مصانع النسيج واستخراج الزيت من السمسم) وقلاعها فأجابهم إلى ذلك ، وقيل إنه سار معهم إلى حضرموت وسلم إليهم المال ، ولما عاد إلى ظفار مال الحضارم على حصونهم حيلة وأخذوها من نوابه طوعاً وكرهاً .

وحدث أن الملك المظفر أرسل هدايا فاخرة إلى ملوك الفرس على سفن شراعية فألقتها الريح إلى ساحل ظفار ، وقبضها سالم بن إدريس ليجبي ما فات عليه مع الحضارم ، فأرسل إليه الملك المظفر يستعطفه ولكن من غير فائدة .

وكان حاكم الشحر راشد بن ناجي بن راشد يحمل الخراج في كل سنة للملك المظفر ، فلم يزل به سالم بن إدريس الحبوظي حتى ضمه إليه وتمالأ معه على حرب المظفر طمعاً في ملك الشحر ، و بلغ ذلك المظفر فأمر نائبه بعدن ، وهو الأمير شهاب الدين غازي المعمار أن يغزو ظفار فغزاها بحراً ولكنه فشل . فسار المظفر بنفسه إلى عدن وجهز خمسمائة فارس وسبعة آلاف راجل وغزا ظفار من ثلاث نواح :

الأولى : من البحر بقيادة سيف الدين سنفر نقيب المماليك البحرية .

الثانية : من طريق الساحل بقيادة حسام الدين لؤلؤ .

الثالثة : من طريق حضرموت بقيادة ابن شماخ النهدي .

والتحم القتال بين الفريقين في يوم السبت ٢٧ رجب سنة ٦٧٨ ، وقتل الحبوظي وانهزم جيشه شرّ هزيمة، واحتل المظفر مدينة ظفار وخطب له في المساجد .

وفي رمضان من السنة المذكورة تسلمت عساكر المظفر مدينة شبام وغيرها من مدن حضرموت ، وأناب عنه الأمير محمد بن محمد بن ناجي . ومات المظفر سنة ٦٩٤ فخلفه ابنه عمر ؛ وكان أخوه المؤيد بالشحر حين مات المظفر فدعا إلى نفسه ، ولكن أخاه عمر سار إليه واعتقله ومات مسموما من جارية سنة ٦٩٦ .

وتقلص نفوذ آل مظهر في حضرموت وانهار جاههم ، فعادت الدولة إلى آل يماني وآل راصع ، وظلت قائمة إلى أوائل القرن التاسع حيث ظهرت إمارة آل

عبد الله على سيون وتريم ، ولكن الأمر لم يلبث إلا قليلا ، فقد استعاد آل يمانى وآل راصع إمارتهم على تريم وسيون ، واستمرت نهد قائمة بأمر المدينتين وضواحيهما إلى أن جاء بدر بوطويرق الكثيرى سنة ٩٢٦ فأنشأ الدولة الكثيرية .

الدولة الكثيرية

فى سنة ٨٢٢ اشتد النزاع والخلاف بين آل راصع ، فقد ثار محمد بن راصع النهدى على عمه دويس بن راصع فى تريم ، واستولى على كثير من بلاد حضرموت وترك لعمه دمون . وانتهز الفرصة عبد الله بن على بن عمر الكثيرى صاحب ظفار وهجم على تريم بمائة فارس وألف وخمسمائة راجل، فقابلهم دويس بن راصع وهزمهم وقتل جماعة ؛ من أشهرهم : على بن بدر الكثيرى ، ومحمد بن عبد الله بن طوق .

قال الجندى : « وولاية حضرموت فى عصرنا وما قبله لقبيلة بنى راصع من نهد، منهم فى عصرنا دويس بن راصع النهدى . وأما ظفار فى عصرنا وماقبله فلبنى كثير محمد وعبد الله ، وقد خرجوا على صاحب تريم دويس بن راصع ونهبوا وقطعوا نخلا وهموا بنهب المدينة فمنع الله من ذلك » .

وحاول بدر بن عبد الله بن على بن عمر الكثيرى احتلال تريم سنة ٨٦٥ فلم يستطع إلى ذلك سبيلا .

وفى أواخر سنة ٨٦٥ مات سلطان بن دويس بن راصع ، نخسرت حضرموت بموته حاكما عادلا حازما ، وخلفه ابنه أحمد . واستمرت الفتن بين آل كثير ونهد . وكان الظلفان ألد خصوم آل جعفر بن بدر الكثيرى ، وأعنف المعارك بين الفريقين كانت سنة ٩٠٩ .

ذكر سنبل أن مجلب بن عقيل الأظلفى تسوّر مصنعة مريمة ليلة النصف من صفر سنة ٩١٣ ، وقتل محمد بن جعفر بن عبد الله الكثيرى وهو راقد بجانب زوجته

بنت محمد بن جميل الحارثى . فغضب آل كثير وانطلق جماعة منهم ومن سكان بور للأخذ بالثأر وأدركوا جماعة من آل بَلْعَلاَ وقتلوا ثلاثة منهم .

ولعل احتلال آل كثير لبور سنة ٧٢٣ أول مظهر لسلطانهم فى حضرموت ، وكانت بور لآل بانجار . ويقول ابن حميد : إن آل كثير حين هجموا على بور قتلوا جماعة من آل بانجار منهم أربعة ولدوا فى يوم واحد واختتنوا فى يوم واحد ، وختموا القرآن فى يوم واحد ، وشرعوا يصلون فى يوم واحد .

ولكن نفوذ آل كثير لم يظهر إلا فى سنة ٨٩٤ هـ و ١٤٨٩ م وذلك بعد أن استولى بدر بن محمد بن عبد الله بن على بن عمر الكثيرى على تريم بمساعدة آل عامر يوم الأربعاء ٢٢ جمادى الأولى سنة ٨٨٩ وقتل جماعة: أشهرهم : على بن عبد الله المنقوش ، وعلى بن يمانى ، وأربعة من آل دبيح ، ولكنه اضطر تحت ضغط آل راصع أن يسلم مدينة تريم لعبد الله بن راصع سنة ٨٩٦ .

وحاول آل كثير والصبرات سنة ٩١٠ احتلال تريم ، وفيها يومئذ بنو جسار و بنو حارثة فانهزموا . وأخيراً فى سنة ٩١٤ أغار عليها بدر بن محمد بن عبد الله الكثيرى بآل محمد وآل جعفر ، ولكن محاولته كان نصيبها الفشل ، فقد أقصاهم عنها السلطان محمد بن أحمد بن سلطان بن دويس بن راصع الهدى .

وهكذا حاول آل كثير مراراً احتلال تريم ، وظلوا يتلهفون للاستيلاء عليها ، إلى أن جاء بدر بوطويرق الكثيرى وأغار عليها بجيش واحتلها سنة ٩٢٦ ؛ واستطاع بسياسته وكياسته وحزمه وشجاعته أن يوطد دعائم سلطانه فيها ، ونال آل كثير شهرة واسعة تحت قيادته .

نشأة بدر بوطويرق

ولد السلطان بدر بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن على بن عمر بن جعفر ابن بدر بن محمد بن عمر الكثيرى سنة ٩٠٢ . اشتهر بالذكاء والدهاء والشجاعة

والكرم والنشاط وحب العمل . كان طموحا إلى العلا شغوفا بالزعامة والرياسة . استطاع بقوة شخصيته أن يجمع السلطة فى يده و ينفرد بها بين شخصيات أكبر منه سناً وأكثر خبرة وأقوى عصبية . استطاع أن يقضى على نفوذ آل صبرات وآل أحمد وغيرهم ، ويهزمهم فى ميدان السياسة والحرب .

جاء جده جعفر من ظفار سنة ٩٠١ ومعه ابنه عبد الله والد السلطان بدر واحتل الشحر عنوة وطرد منها سعيد بن مبارك بن فارس بادجانة الكندى .

وفى سنة ٩٢٥ استبد بالأمر آل محمد وهم من عشيرة السلطان بدر فى شبام وغيرها وخرجوا عن طاعته ، فأنذرهم السلطان بدر فلم يذعنوا لأمره ولم يبالوا بوعيده ، بل زاد تمردهم وأخذوا يؤلبون القبائل ضده ، نخافهم السلطان بدر وسافر إلى اليمن فى شهر ذى الحجة سنة ٩٢٥ وطلب إلى الإمام أن يمده بجيش لاسترداد سلطته وتوطيد مركزه بحضرموت، وعاد السلطان بدر إلى حضرموت على رأس خمسة آلاف مقاتل ، واحتشدت قبائل نهد فى نجران لتصد السلطان بدر ، فالتقى الفريقان وكان النصر لبدر واحتل نجران ، ثم سار إلى شبام واحتلها فى رجب سنة ٩٢٦ وشتت شمل آل محمد وحصنها ثم استأنف زحفه ليقضى على فلول آل محمد ؛ واحتل تريم فى محرم سنة ٩٢٧ وأقصى عنها محمد بن أحمد بن جردان . وسار إلى هينن واستولى عليها وجعل عليها عبد الله بن على بن عمر المرهون .

وفى سنة ٩٣٤ أصدر أمره بضرب النقود باسمه . وعندما احتل حريضة سنة ٩٣٤ من آل على بن فارس النهدى غضبت نهد ، وحشد محمد بن على فخائذ نهد ، ولكن السلطان بدر هزمهم وأسر زعيمهم محمد بن على ، فشق ذلك على نهد واشتد غضبهم ودامت المناوشات وقتاً غير طويل إلى أن أطلق بدر سراح محمد بن على بن فارس ؛ وحاول ثابت بن على النهدى أن يقضى على سلطة بدر ، فهجم بقومه على القرين واحتلها سنة ٩٤٠ ، فسار إليه بدر بجميع عسكره وقضى على جميع محاولاتهم وأزالهم من الكسر كله ، ولم يعودوا إليها إلا بشفاعة بعض ولاة اليمن .

وفي سنة ٩٤٨ انتقضت عليه عمد والهجرين فسار وقضى على المشاغبات واحتل وادى عمد وألقى القبض على حاكمها فارس بن عبد الله بن على النهدى .

غيل بن يمين

وكانت نقطة ارتكاز قبائل الحموم يشنون منها غاراتهم على القوافل . سار إليهم السلطان بدر بوطويرق سنة ٩٣٦ واحتلها عنوة ونهب أموال سكانها الأمر الذى أغضب أخاه محمد بن عبد الله . وأراد الحموم الانتقام من السلطان بدر فأظهروا الخلاف والتمرد عليه ونهبوا الناس وقطعوا الطرق ، فاضطر السلطان بدر أن يظهر الطاعة لأخيه محمد وأن يمنحه غيل بن يمين ، وقيل : إن محمد بن عبد الله ردّ الأموال المنهوبة إلى أصحابها .

السلطان بدر والبرتغاليون

فى أيام بدر كانت شواطئ حضرموت مسرحا لهجوم عصابة من القرصان البرتغاليين . ففى سنة ٩٣٨ هجموا من البحر ، فخاف الأهالى واستطاع بعض التجار أن يفروا ببضائعهم إلى تبالة ، ولم تحدث خسائر تذكر فى الأموال ، ولكن سليمان أبو بكر باهبرى وهو من أتباع العمودى شيخ دوعن انتهز الفرصة وهجم بمائة وخمسين رجلا من البادية على تبالة فى ليلة الأحد ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ٩٣٨ ونهب كل البضائع المخزونة وعاد إلى دوعن .

وفى ذى القعدة سنة ٩٤٢ نزل الفرنجة فى ميناء الشحر وأسروا عدداً من النساء والأطفال، ولكن السلطان بدر صالحهم بعد أن استرد الأسرى بعدد كبير من البقر والغنم وأهدى لقبطانهم حصاناً جميلا وفرسين لبعض أتباعه . وطمع القرصان فعادوا فى السنة المذكورة وهجموا على الشحر فصدهم السلطان بدر وردهم على أعقابهم تاركين وراءهم ثلاثين قتيلا وأربعين أسيراً وعلى رأسهم القبطان ، واستولى على أموالهم و بعض سفنهم .

دخوله فى طاعة العثمانيين

ولما اشتد ضغط البرتغاليين على الشحر اضطر السلطان بدر إلى قبول سيادة الدولة العثمانية عليه ، وصدر فرمان بذلك من السلطان سليم الأول سنة ٩٤٤ .

آل العمودى

وهم من سلالة العالم الورع الشيخ سعيد بن عيسى العمودى ، و ينسبه الأكثرون إلى الصديق رضى الله عنه ؛ وقيل إن نسبه يرجع إلى حمير . و يقول السيد عبدالرحمن ابن عبيد الله : إنه اطلع على مصحف موجود بجامع رحاب فوجد فيه مانصه : « كتب هذا المصحف مالكه بل مملوكه عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن أحمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن محمد ابن الشيخ سعيد بن عيسى العمودى بن محمد بن سعيد بن شعبان بن عيسى بن داود بن محمد بن أبى بكر ابن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق » ومثل هذا مكتوب فى رسالة بمكتبة عبد الله باعفيف بمدينة كنينة .

اشتهر الشيخ سعيد العمودى بالذكاء الخارق وقوة الذاكرة وسرعة الفهم والإدراك ، وكان أمياً لايعرف القراءة ولا الكتابة ، تقيا صالحا ، جوادا شجاعا . ولما شعر الشيخ أبو مدين بقرب أجله فى مكة أوصى إلى الشيخ عبد الله المغربى بأن يؤدى خرقة التصوف إلى الشيخ سعيد بن عيسى العمودى فلبسها ؛ وعلى هذا فهو أول من تصوف بحضرموت .

وفى سنة ٦٧١ انتقل إلى الدار الآخرة ؛ وخلفه ولده الشيخ محمد بن سعيد ، وعرف بحب الإصلاح بين الناس وحب الخير فأحبه الناس ، وكان لايرد له أمر ولا يرفض له طلب . وفى عهد أحفاده تطوّر ذلك المنصب الدينى إلى مركز سياسى ، فقد صارت كلمته هى العليا ونفوذه دونه كل نفوذ فى الواديين : الأيمن والأيسر .

ولسوء الحظ لم يكن الشيخ سعيد ولا ابنه عثمان ولا حفيده عبد الله سياسيا حازما ؛ فلو أنهم حافظوا على كيان دولتهم وأحاطوها بالعدل لاستطاعوا أن يملكوا حضرموت ويمدوا سلطانهم على كل البلاد ، أجل لم يحسنوا سياستها ولم يحفظوها بالشكر فدب إلى دولتهم التلاشى والانحلال .

وعند ماجهز البرتغاليون على المشقاص بأربع عشرة سفينة سنة ٩٣٤ استنجد الأهالى بالشيخ عمر بن أحمد العمودى فسار إليهم فى جماعة من أولاده وأقاربه وفقهاء قيدون فصرف الله البرتغاليين عن الشحر والمشقاص ، وكان الشيخ عمر من كبار العلماء ومن أقطاب المتصوفين ، وقد تقيد فى أحكامه بالنصوص الشرعية ، وكان عادلا لايحابى أحداً الأمر الذى دفع بعض الناس إلى كراهته وتدبير مؤامرة لقتله وتولية أخيه عثمان ، ولما بلغه ذلك عزل نفسه من الحكم حقنا للدماء وذهب إلى الحجاز وتوفى بالقنفدة سنة ٩٤٧ .

بين العمودى والسلطان بدر

ولما سطع نجم بدر بوطويرق واتسع نفوذه خاف العمودى فتعاهد مع نهد وكوّن جبهة ضد الكثيرى ، ولكنّ السلطان بدرا هاجم وادى دوعن فى رمضان سنة ٩٤٨ قبل أن يتم استعداد العمودى ونهد ، واحتل قيدون وفتك بأهلها وفعل عسكره بها فعلا قبيحا، فلجأ النساء والأطفال إلى الجامع. وكان الشيخ عثمان بن أحمد العمودى فى بضة وأخواه عبد الله ومحمد فى حصن قيدون فأخرجتهما منه سيبان وآل باهبرى . ولما أراد إمام الجامع وهو العلامة عبد الله بن عمر بابشير أن يحرم بصلاة الفجر صاح بعضهم فى وجهه فانزعج وشهق شهقة طويلة خر بعدها ميتا . وضرب السلطان بدر مدينة قيدون ونقل أهلها إلى صيِّف ولم يبق بها إلا ستة بيوت واستمر بدر يحارب العمودى ، ثم عرض عليه الصلح بعد أن عقد صلحا منفردا مع نهد آل عامر . ولكن العمودى رفض الصلح فعاد بدر من الخريبة إلى بضة وهدم ساقيتها و بنى عليها ثلاثة حصون .

وفى سنة ٩٤٩ حط الشيخ عبد الله بن أحمد العمودى على فوة و بمعيته جماعة من آل باهبرى وسيبان وأتلفوا نخلا كثيراً ثم صالحهم أهلها بعد ثلاثة أيام على مال دفعوه لهم ، وأخيراً تم الصلح بين العمودى والـكثيرى سنة ٩٥١ وفى رواية سنة ٩٥٥ ولـكن العمودى ظل مشغول البال مضطرب الفكر من استعدادات السلطان الـكثيرى .

وفى ١١ محرم سنة ٩٦٥ توفى الفقيه الشيخ أحمد بن عثمان بن أحمد العمودى ؛ وفى ٢٩ رجب سنة ٩٦٧ توفى الشيخ عبد الرحمن بن عمر بن أحمد العمودى .

نهاية السلطان بدر

استطاع السلطان بدر بوطويرق بسياسته وقوة جيشه أن يقضى على تعدد السلطات فى حضرموت ويركزها فى يده ، واستطاع أن يمد نفوذه على معظم حضرموت وظفار وجعل ولاية العهد لابنه عبد الله ولـكن ابنه هذا خرج عليه وهجم عليه وهو فى حصن سيون فى ليلة الجمعة ٢٣ ربيع الثانى سـنة ٩٧٦ وألقى القبض عليه وسجنه أياما ثم نقله إلى حصن مريمة ، ومكث السلطان بدر مسجونا فيه أكثر من سنة ؛ ولما مرض واشتد به الألم أعاده إلى حصن سيون حيث أدركته الوفاة فى رمضان سنة ٩٧٧ فحزنت عليه الأمة أشد الحزن .

ابن مطهر العمودى

واستطاع الشيخ محمد بن مطهر العمودى أن يقوّى مركزه و يوطد سلطته . وفى سنة ١١١٥ هجم على القُزِهْ وضرب مجرى الجابية وأتلف نخلا كثيرا ومكث بها خمسة أيام . وفى محرم من السنة المذكورة أرسل السلطان عيسى الـكثيرى ابنه جعفرا على رأس قوم إلى دوعن، فلقيهم أصحاب العمودى ، وتقدم عليهم جيش جعفر وهم ينهزمون ، وقد دبر العمودى لهم مكيدة بكمين وضعه لهم فثار عليهم من خلفهم

وفتك بعدد كبير من جيش جعفر ، ولم يثبت فى المعركة سوى جماعة من يافع ، وحين اشتد بهم العطش ذهبوا إلى جبل به عين ماء أرشدهم إليه عبد الله الحميدى ، ولما وصلوا إلى العين قابلهم جماعة من أصحاب العمودى وفتكوا بهم ، وعاد جعفر بفلول جيشه إلى الهجرين ، وكتب إلى أبيه بالخبر فأعد السلطان عيسى جيشاً ، ولكن الشيخ سعيد بن عبد الله باوزير توسط لعقد صلح بين الكثيرى والعمودى فتم ذلك على يده لمدة أربعة أشهر ، وفى رمضان سنة ١١٢٣ أغار الشيخ حسن ابن مطهر العمودى على الهجرين بقوم ونهبوا الأموال والمواشى . وسار إليهم عمر ابن جعفر الكثيرى ومعه أبناء السلطان عيسى بن بدر وأكثر من مائتى مقاتل من يافع فقابلهم العمودى بقوم من آل باهبرى وسيبان بقرب شرج باصقر ولكنه انهزم ، وأراد عمر بن جعفر أن يتعقبهم إلى دوعن غير أن الشيخ على بن سعيد باوزير عقد صلحا بين الفريقين .

السلطان عبد الله بن بدر الكثيرى

بعد أن سجن عبد الله أباه احتل الحصون وأخذ الهجرين ورَخْيه وهينن وجزءا كبيراً من عمد ودوعن ، وأرسل إليه إمام اليمن المؤيد بالله محمد بن المنصور القاسم ابن محمد بن على يتودد إليه ويدعوه لطاعته ومات السلطان عبد الله فى ٢٤ ربيع الأول سنة ٩٨٥ فقام بالأمر بعده ابنه جعفر ، وكان هذا ضعيف الرأى سريع الغضب . اشتبك مع نهد فى عدة وقائع حتى قتلوه سنة ٩٩٠ وخلفه ابنه عبد الله ابن جعفر ، ولم تطل أيامه ؛ فقد عاجلته المنية وهو فى ريعان شبابه . وقام بالأمر بعده عمر بن بدر وكان عادلا عالما أديبا ليناً متسامحا ، قيل إنه حفظ البخارى من كثرة قراءته له ، مدحه الأديب الشيخ عبد الصمد باكثير بعدة قصائد وأطنب فى مدحه والثناء عليه صاحب النور السافر ، وفى آخر أيامه تأثر بالتصوف والمتصوفين فكان يقضى معظم أوقاته فى دراسة الكتب الدينية ، ومات سنة ١٠٢١ .

قام بالأمر بعده ابنه عبد الله وكان عادلا كريما كثير التصوف والزهد ، مدحه الأديب الشيخ عبد الصمد باكثير بقصائد من روائع شعره .

ولم يفكر السلطان عبد الله بن عمر الكثيرى فى الدخول فى طاعة إمام اليمن ، ولم يظهر شيئا من الولاء له والتقرب إليه ، ولم يبادله الهدايا الفاخرة التى كان يرسلها له بل تأفف برسله الذين حملوا إليه الهدايا وتهكم بهم ، ولعل هذا هو الذى دفع بالمطهر ابن محمد الهادى الجرموزى للتحامل عليه واتهامه له بكراهية آل البيت؛ على أن أخاه الأمير بدر بن عمر كان على العكس من ذلك ، فقد كان يظهر التودد للامام والتقرب إليه ؛ ولما حج السلطان عبد الله بن عمر سنة ١٠٤٠ واستخلف أخاه بدرا تبادل مع الإمام الرسائل والمكاتبات ، ولعل هذا التقرب أو التماق من بدر للإمام هو الذى أثار حفيظة ابن أخيه بدر بن عبد الله ضده ودفعه للتظاهر بالكره والعداء له وللامام، وكانت تلك الرسائل التى كان يبعثها بدر مليئة بالوشايات ضد ابن أخيه بدر ابن عبد الله الكثيرى .

سافر السلطان عبد الله بن عمر إلى الحجاز سنة ١٠٤٠ ، وفى رواية أنه تنازل قبيل سفره عن الملك لأخيه بدر ليتفرغ للعبادة ويزهد فى الدنيا ومات بمكة سنة ١٠٤٥ ؛ واستمر السلطان بدر بن عمر يوطد علاقاته بالمتوكل إسماعيل إمام اليمن ويرسل إليه الهدايا والأموال التى كان يجمعها من الشعب بالقوة ؛ ولقد تمادى فى غيه كما قال باعباد وسرعان ما كرهه الشعب وضاقوا به ذرعا، بينما استطاع بدر بن عبدالله ابن عمر أن يحبب الناس فيه ويستميل قلوبهم إليه لابتظاهره بكراهيته للامام فحسب؛ بل بحسن سياسته ولباقته ومن أبرز الناس الملتفين حوله قبيلة آل كثير الذين مالوا إليه كل الميل فى الوقت الذى انفضوا فيه من حول بدر بن عمر وإخوته وأبنائه ونفروا منهم كل النفور .

اعتقال السلطان بدر بن عمر

وجد بدر بن عبد الله الفرصة سانحة لتولى الحكم ، وقد شجعه على ذلك التفاف آل كثير حوله وحبهم له وكرههم للسلطان بدر بن عمر ، فوثب هو و إخوته على عمهم السلطان بدر بن عمر واعتقلوه وأولاده وصادروا أملاكهم وتولى الحكم ، فأقام العدل ونشر الأمن ، فأحبه الناس ووثقوا به وكان موضع آمالهم وقبلة أنظارهم قال الجرموزى « وكان هوى آل كثير وميلهم مع أولاد السلطان عبد الله بن عمر ؛ فاحتال هؤلاء على عمهم وقبضوا عليه وعلى أولاده وجميع ما يملكه وجعلوه فى حصن لهم وحلف آل كثير للسلطان بدر بن عبد الله بن عمر فساس البلاد وأطاعه أهلها ، وكانت له ملابسة السياسة ومراعاة أسباب الرياسة فكان أكمل من عمه وأنهض ، فأحبه أهل تلك الجهات ولكونه لم يوال الإمام » .

علاقة السلطان بدر بالإمام

وعلى الرغم من كره السلطان بدر بن عبد الله لإمام اليمن المتوكل إسماعيل وعدم الاعتراف بالطاعة له فإن المكاتبات لم تنقطع بينه و بين الإمام ، وقد أظهر السلطان شيئا كثيراً من الدهاء والمرونة فقد جاء فى إحدى رسائله :

« ... إن الآل سفينة النجاة ، المرء مع من أحب ، وقد خامر حبكم منا الأرواح ومازج الأشباح » . وفى رسالة أخرى « ... ونحن إن شاء الله على قدم الطاعة لم نبرح قائمين لكم ماترضونه منا ولم ننفك عن لزوم محبتكم ... فمن انفك عن ربقة طاعتكم فقد غمر فى أعمق بحار الخطر ، وعدم فى الدنيا والأخرى النجح والظفر ولسنا نجهل أن مصير من بغض آل البيت المحمدى إلى سقر ، إن حبكم الوسيلة العظمى إلى رضا الله الواحد الأكبر » .

ولما بلغ الإمام نبأ اعتقال السلطان بدر بن عمر ثار غضبه وعد ذلك إهانة

موجهة إليه لأنه يرى السلطان إنما أخذ ظلما بجريرة موالاته له ، هاج وماج وأرسل للسلطان بدر بن عبد الله رسالة فى رمضان سنة ١٠٦٥ يأمره باطلاق سراح عمه ، واسترداد ظفار من يد أخيه جعفر والقبض عليه .

وأطلق السلطان بدر سراح عمه وابن عمه وأخيه على وابن أخيه بدر بن جعفر ، وكتب بذلك للامام فى رمضان من السنة المذكورة . أما ظفار فلم يحاول استردادها لأن آل كثير لم يوافقوا على ذلك خوفاً من أن تخلفهم جنود الإمام فى حضرموت ، وقد ملأ رسالته بعبارات التودد والإخلاص ، و إظهار الولاء والطاعة الأمر الذى دفع الجرموزى إلى أن يصفها بالتلون والمداجاة .

ومن الأسباب التى قدمها السلطان للامام فى اعتقال عمه أنه أساء معاملتهم وضيق الخناق عليهم حين كان حاكما بالنيابة عن السلطان ، وفى ذلك يقول : « . . . فحلَّ بنا من ضيق المعاش ما يهون مقاساة الموت دون مقاساته ، وصبرنا على ذلك حتى عيل بنا الصبر ؛ ولما خشينا على أنفسنا الهلاك قدمنا على العم بدر وأولاده وما ظننا أن نسلم من قبل ذلك الأمر . ولما ضممنا قمنا بهم و بكالفهم ، وممن يلوذ بهم ، وقمنا لهم بالواجب من النفقات وغيرها ، وما كان سبب طلوعنا على العم بدر إلا خوفا على أنفسنا، وربما رفعوا إليكم أعداءنا وحسادنا أن لاسبب لثأرنا على العم إلا قيامه بطاعتكم ، فلا والله العظيم إنما السبب ماأوضحناه لكم فى هذا المكتوب» .

واستمر السلطان يتودد إلى الإمام ، و يتظاهر بالولاء والإخلاص له لا خوفا منه ولاحبا فى الدخول فى طاعته ولكن كسباً للوقت . وحدث فى أواخر عام ١٠٦٥ أن اشتد الخلاف بين السلطان بدر والشيخ العمودى ، فكتب إليه الإمام يأمره بالصلح مع العمودى ، فأجابه السلطان برسالة فى محرم سنة ١٠٦٦ جاء فيها مايأتى : « . . . ما الباعث على ذلك هو إعلامكم أن النقيب الأريب حسن بن هادى قد وجهناه راجعا إلى محلكم السامى بجواب مراسيمكم الكريمة ، وشرحنا لكم فيها

إجابتنا على انعقاد الصلح بيننا و بين الشيخ العمودى سنة كاملة ، بعد أن أبدى علينا في ذلك شرائط لا نعهدها فى سائر الإصلاح .

فأجبناه عليها رعياً لجبركم وطاعتكم ، و إيثاراً للصلاح ؛ ثم بعد أن وجه إليكم النقيب حسن بن هادى أبدى الشيخ العمودى علينا شرائط غير السابقة تشق علينا غاية المشقة لأنها غير معهودة ولا موافقة ، أجبناه إلى ما اشترطه علينا بعد عزم النقيب حسن ابتغاء جبر خواطركم ؛ وقصده بتلك الشرائط أن نشذ عن شيء منها ، وأن نتعاظمها لفحشها وننكل عنها ، وقصده أيضا بذلك أن نصير عصاة لأمركم المطاع ، وأن نتباعد عنكم بعد أن كنا لكم من الأتباع » ورد عليه الإمام شاكرا له ما أظهره من لباقة وكياسة .

وظن الإمام أن السلطان بدر يرغب فى الدخول فى طاعته ، وأنه من السهولة أن تصبح حضرموت ولاية خاضعة له ، منقادة لأمره ؛ فأرسل القاضى العلامة شرف الدين الحسن بن أحمد بن صالح الحيمى مزودا برسالة للسلطان الكثيرى يخبره فيها أنه إنما أرسل القاضى شرف الدين لأخذ البيعة والعهد منه ، وليساعده فى الإصلاح ونصب النواب والحكام ، و إحياء السنة ، ومحو آثار البدع والتذكير بحق الله ورسوله ، وحق أهل بيته المطهرين ، والالتجاء إلى أهل البيت فى الأحكام الشرعية والعقائد ، وأخذ ما أمر الله بأخذه من نحو الصدقات والأخماس والمظالم ، وصرف القدر الذى أمرنا بصرفه فى مواضعه ، و إيصال ما أمرنا الله بإيصاله إلينا ، لنضعه حيث أمر الله ؛ إلى آخر ما هنك من الألفاظ البراقة ، وقد وصل القاضى شرف الدين إلى هينن يوم ٧ جمادى الأولى سنة ١٠٦٧ فاتى السلطان هناك وسلم إليه الرسالة والعهد ، وعن هينن أرسل القاضى كتاباً إلى الإمام بتاريخ ١٠ جمادى الآخرة أخبره فيه بتسليم الرسالة والعهد للسلطان ، و يقول له إنه اتصل ببعض الفقهاء والعلماء فسر منهم كثيرا ، وأخبره أنه عقد صلحا بين السلطان والشيخ العمودى لمدة خمس سنين .

اشتداد الخلاف بين السلطان والإمام

كان الأمير جعفر بن عبد الله الكثيرى — وهو أخو السلطان بدر — يظهر الولاء والإخلاص لعمه السلطان بدر بن عمر صاحب ظفار ، فأرسل إليه كتابا أخبره فيه بعزمه على السفر إلى الهند عن طريق ظفار ، وعين له الطريق الذى سيسلكه ، فخرج السلطان بدر بن عمر للقائه والترحيب به ، ولكن الأمير جعفرا حشد كثيرا من الرجال المسلحين ودخل بهم إلى ظفار من طريق آخر واحتل الحصن وقتل ابن عمه .

ويقول الجرموزى إن ذلك كان باتفاق مع السلطان بدر بن عبد الله ، وأنهما احتالا فى الاستيلاء على ظفار ، وأبحر السلطان بدر بن عمر إلى عدن ومنها إلى ذمار وبعث الإمام ولديه لاستقباله ومنحه حلة فاخرة وحصاناً ومبلغا من المال ؛ ومن ذمار سار إلى الحصين فى طريقه إلى الإمام ، فأكرمه الإمام المتوكل إسماعيل ، وتألم من أعمال الأمير جعفر ، واتهم السلطان بدر بن عبد الله بتدبير تلك المكيدة ضد السلطان بدر بن عمر ، وكتب إليه بهذا الشأن ، فنفى السلطان التهمة عن نفسه وتبرأ من أخيه جعفر ، وتبودلت الرسائل بين السلطان والإمام ، ولكن من غير جدوى .

هذا كتابى وبعده ركابى وسيفى

وفى رمضان سنة ١٠٦٩ أرسل السلطان بدر الشيخ محمد بن شيبان بكتاب للصفى أحمد بن الحسن ابن أمير المؤمنين وكان فى مدينة الفراس من أعمال ذى مرمر وبعد أن قرأ الصفى رسالة السلطان قال : « قد غششنا الإمام بانتظارنا بهذه المكاتبة الكاذبة التى هى خديعة لا محالة ، ثم التفت إلى الشيخ محمد وسلمه الرد قائلا : « قل للسلطان هذا كتابى وبعده ركابى وسيفى هذا » .

الإمام يغزو حضرموت

أصدر الإمام المتوكل إسماعيل أمرا بالتعبئة العامة ، ودعا القبائل للتطوع لمحاربة سلطان حضرموت ، وفى يوم الخميس ١٨ شوال سنة ١٠٦٩ زحف الصفى أحمد ابن الحسن ابن أمير المؤمنين المؤيد بالله إلى مدينة الأنبا ، حيث انضم إليه صنوه الحسين برجاله وسار إلى الشرفة فإلى مساح ، فأكرمهم الشيخ عبد الله الجمرة وزودهم بسبعين رأساً من الأغنام ، ومقدار كبير من القمح والشعير والزبيب وعلف الدواب ، ثم سار إلى المربك فإلى العبرين فإلى أسفل مشور ، ثم اتجه إلى إقحون من بلاد الأعروش ، وظل ينتقل بجيشه من بلد إلى آخر حتى وصل إلى مرخة ، فأكرمهم السلطان صالح الرصاص ، وأهداهم تسعمائة رأس من الغنم ومقدارا كبيرا من الطعام ، ثم سار الصفى إلى بلاد العوالق .

وفى الوقت الذى كان جيش الإمام يزحف إلى حضرموت كانت رسل الإمام تفاوض السلطان بدر بن عبد الله ليقوم بجيش إلى ظفار للقبض على أخيه جعفر وضم البلاد إلى ملكه ، ولكن السلطان اعتذر خوفاً من أن تزحف جيوش الصفى وتحتل حضرموت : على أن السلطان اشترط على الإمام لقبول طلبه وتنفيذ رغبته إيقاف الزحف وعودة الصفى إلى اليمن ؛ وهكذا فشلت المفاوضات وعاد الرسل إلى الإمام خائبين ؛ و بعد أن انقطعت المفاوضات أرسل الإمام ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله ، ومحمد بن أحمد المنصور بالله فى ثلاثة آلاف مقاتل مددا للصفى أحمد ، سار هذا المدد من مدينة الحصين فى شهر ربيع الثانى إلى ذمار فإلى رواع فإلى البيضاء ، وهناك انضم إليهم الفقيه محمد بن على بن جميل السيرافى فى نحو خمسمائة فارس من أتباعه ، وانضم إليهم بعض سكان المخاليف المجاورة ما عدا السلطانين محمد الهيثمى وأحمد الفضلى ، فقد امتنعا عن الانضمام إليهم بالرغم من إلحاح الإمام عليهما ، وأمر الإمام السيد عز الدين بن دريب بن مطهر السليمانى التهامى ، والقاضى الحسن بن أحمد

الحيمى ، والقاضى الهادى بن عبد الله بن على الحارث أن يسير و بمعيته السلطان بدر ابن عمر الكثيرى وأولاده و يلحقوا بالصفىّ أحمد .

ظل الإمام يرسل الإمداد إلى الصفى ؛ فقد أرسل إليه من رواع خمسين فارساً وأربعمائة جندى ، ومن رجال عز الإسلام محمد بن الحسين زهاء ألف جندى ، ومن الأمير على المؤيد بالله أربعة وعشرين فارساً ، ومن كوكبان بضع مئات ، وأرسل من الخيمة أكثر من ألف جندى مسلحين بالبنادق .

وكان المشرفون على تعبئة هذه الإمدادات و إرسالها إلى الصفى الأمير محمد ابن الإمام المتوكل على الله ، والعلامة أحمد بن هادى بن هارون بن الحسن الهادى ، وشرف الدين بن مطهر ، والفقيه المجاهد على بن صلاح الحملولى وغيرهم .

كانت هذه الإمدادات تذهب أفواجا إلى الصفى ، وقام الصفى بجيوشه من واسط إلى نصاب فإلى بير حليمة من بلاد العوالق ، وهناك وصلته رسالة من السلطان منصر العولقى يقول فيها : إن ابنا صغيراً له أحب أن يركب مع الأمير على بن الصفى أحمد، فأرسل إليه حصاناً بحليته وسيفاً ورمحاً ؛ و يقول الجرموزى: إن هذا الإحسان لم يؤثر فى السلطان منصر لسوء اعتقاده فى أهل البيت ، وقد أخبر بعض الجند أنهم أمروا المؤذن بمسجد المدينة التى يقيم فيها العولقى أن يؤذن بالأذان النبوى (حى على خير العمل) فمنعه السلطان منصر من ذلك وهدده بالعقاب إن فعل . ولما بلغ الأمر إلى الصفى أحمد أمر المؤذن أن يؤذن بأيهما شاء قائلا : إن الدين كله محمدى والدعوة جامعة للشافعى والزيدى .

واصل الصفى زحفه إلى البير العورى فإلى حبان ، ثم إلى وادى عاطر فقرية الفقيه على فعزان فيفعة، وأقام بها شهراً .

عامل حضرمى يشاغب الصفى

كان فى أحور — وتقع على الساحل و بها سوق لقبائل ذيب وآل با كازم ، عامل كثيرى من قبل السلطان بدر بن عبد الله الكثيرى ، فبعد أن وصل الصفى

إلى ميفعة من بلاد الواحدى بلغه أن بأحور بيت مال للسلطان الكثيرى ، فأرسل إليها الفقيه يحيى بن أحمد بن قاسم السباعى الخولانى فى جماعة من الخيالة ، فحملوا مقدارا كبيرا من الطعام وعادوا إلى ميفعة ، ثم أرسل قافلة محملة بالطعام ؛ واستطمع الصفى فأرسل أحد كبار رجاله فى ثلاثة عشر فارسا وعشرة جنود مسلحين بالبنادق وسار خمسة من الفرسان إلى آل ذييب وآل با كازم وآل على وطلبوا إبلهم لحمل الطعام ، وحصلت مشادّة عنيفة فوثبوا على الفرسان وقتلوهم ، وعلم قائدهم محمد ابن قاسم فأسرع إليهم فى جماعة من عسكره للأخذ بالثأر ، ولكنهم قتلوه وقتلوا فارسا آخر وعقروا خيلهم .

وكان السلطان منصر العواقى وأخوه عز الدين مواليين للسلطان الكثيرى ، ويقول الجرموزى إنهما تسلما أموالا طائلة من السلطان لإثارة القبائل فى أحور وما جاورها ضد جيش الإمام ؛ ولقد اجتمعت القبائل وحاصرت جماعة من جيش الإمام فى أحد الدور ، ويقول الجرموزى إن رجلا من يافع على رأس ثلاثين من عسكر السلطان لم يشترك فى تلك المشاغبات .

وأرسل الصفى مائتين وخمسين من جنوده المسلحين بقيادة عز الدين بن على بفك الحصار المضروب على عسكره فى أحور ، واستطاع عز الدين وجنوده أن يفك الحصار ويقيم أسبوعين على حساب الأهالى ، ولكن القبائل اعتدت عليهم فى المسجد وجرحوا كثيراً منهم ، ودافع عسكر الإمام عن أنفسهم ، وقتلوا ستة من أهالى أحور ، وفى الليل عادت المعركة قتل فيها ثلاثة من القبائل وأسر اثنا عشر ، وانتهت المعركة بانتصار عسكر الإمام ، ثم طلبت القبائل دخول سوق أحور لبيع سلعهم ومواشيهم فرفض عز الدين طلبهم ، ولكنه اضطر أخيرا لأن يسمح لآل ذييب بدخول أحور لحاجته إليهم فى إيصال قافلة تحت حراستهم إلى الصفى ، فسار فيها بعض من آل ذييب . وفى اليوم الثالث شعر من فى القافلة من عسكر الإمام بنية آل ذييب على الغدر بهم فأسرعوا فى السير حتى وصلوا إلى الجون واجتمعوا بالشيخ محمود بن عبد المانع

وكان للبدو فيه اعتقاد فأبقاهم عنده حتى عاد الصفى أحمد ظافرا من حضرموت .

استأنف الصفى زحفه حتى إذا وصل إلى جبل السوط نفد الزاد ومات كثير من الإبل وأخذ الجوع ينقصهم من أطرافهم حتى اضطروا لأكل الميتة وكانوا يموتون جوعا لولا الشيخ محمد العمودى ، فقد استقبلهم فى وادى السوط وشاهد ماحل بهم من الجوع فأحضرلهم ثمانمائة جمل محملة بالطعام والماء وعددا كبيراً من المواشى والأغنام، وسار الصفى بجيشه إلى وادى يبعث وأقام به ثلاثة أيام ، ثم استأنف زحفه إلى الريدة فإلى الدرب ثم إلى القفر فإلى الهجلا، وأرسل أربعة من جنوده من بنى الخياط لطلب الماء فوجدوا عليه أربعة من أصحاب السلطان وقتلوا اثنين منهم .

وفى رجب سنة ١٠٧٠ عسكر الصفى بالقرب من الهجرين . ويقول الجرموزى إن السلطان بدر بن عبد الله كان يرابط أسفل الوادى فى خمسة عشر ألفا من جيشه ومعهم من الخيل ما ينيف على الألف .

بدء القتال

دخل جماعة من جيش الإمام منطقة الهجرين للبحث عن علف فأطلق عليهم حماة المدينة الرصاص وكانوا سبعين رجلا، فقابلهم جنود الإمام بالمثل واشتدت المعركة وهجم المعتدون على الهجرين واحتلوها عنوة وقتلوا معظم حاميتها وكان ذلك يوم الجمعة سلخ رجب سنة ١٠٧٠ .

المعركة الفاصلة

وكان السلطان بدر قد حشد جنوده فى سدبة وركز قوته فيها حيث أتته إمدادات من قبائل وادى عمد ومن الشحر . أما الصفى فقد زحف بجيشه صوب سدبة فى يوم الأربعاء فى شعبان سنة ١٠٧٠ وفى يوم الخميس بدأت المعركة بين الجيشين وكان صراعا عنيفا جدا استعمل فيها السلاح الأبيض فتكدست الجثث والجرحى ،

ولقد أثخن الصفى فى القتل واستطاع بقوة سلاحه الحديث وكثرة جيشه أن يهزم الحضارمة و يأسر كثيرا منهم وانسحب السلطان بدر مع بعض رجاله من آل كثير إلى هينن واستمر الصفى فى زحفه إلى الخينيق ، وهناك جاءه الشيخ محمد بن شيبان بكتاب من السلطان بدر يطلب فيه الصلح فلم يجبه الصفى إلى ذلك وأرسل جنوداً بقيادة صلاح بن محمد والفقيه على بن صلاح الجلولى لمحاصرة السلطان بدر فى قلعة هينن ولكن السلطان غادرها إلى وادى جعيمة . ولما وصل الصفى إلى حذية طلب أهالى شبام الأمان ، فأجابهم إلى ذلك ودخل مدينة شبام بالطبول يوم السبت ٧ شعبان سنة ١٠٧٠ وأقام فيها ثمانية أيام جاءته فى أثنائها وفود من تريم وسيون وعينات ومريمه وتريس والغرفة ، ومعظمهم من آل كثير وعلى رأسهم النقيب على ابن راشد الديبانى للترحيب به . وفى يوم الاثنين سار الصفى إلى سيون عاصمة الدولة الكثيرية فاستقبله وفد من لدن السلطان بطلب الأمان للسلطان ولأهل بيته وأولاده وجميع حاشيته و بطانته فأجابه إلى ذلك ، وقدم السلطان على الصفى يوم الجمعة أول رمضان فاستقبله الصفى بما يليق به من التقدير والاحترام ، وطلب السلطان من الصفى السماح له بالسفر إلى اليمن لمقابلة الإمام فأجابه إلى طلبه وزوده بأحسن زاد و بعث بصحبته الأمير على بن الحسين بن الشريع والقاضى عامر بن أحمد الذمارى فى نحو سبعين جنديا وعشرين فارسا .

واستقبل الإمام السلطان بدر بن عبد الله بمنتهى الحفاوة وأنزله فى قصره وأغدق عليه نعمه وآلاءه وجمعه بأخيه الأمير على بن عبد الله الكثيرى وكان أظهر براءته منه حين علم بعزم الإمام لمحاربته وقدم إليه أخا آخر له هو الأمير طالب وكان عاملا على الشحر من قبل أخيه . و يقول الجرموزى إن الأمير طالبا فر بنفسه من ساحل حضرموت قاصداً جدة فجنحت به السفينة فى ميناء عدن واضطر للنزول فى المدينة وأظهر لعاملها أنه ساخط على أخيه وأنه إنما فر بنفسه إلى الإمام فأرسله عامل عدن إلى الإمام فكان عنده حتى جاء أخوه بدر .

تسليم الشحر

انتهت الحرب بهزيمة السلطان بدر وانتصار الصفى ودخلت حضرموت فى طاعة الإمام وعين الصفى العمال على المدن والمقاطعات ونصب القضاء ونظم جمع الزكاة وقرب إليه الأمراء والعلماء والأعيان ، وحرم الملاهى وكل مالا يقره مذهب الزيدية .

هدأت البلاد من الاضطرابات وعاد إلى الأسواق نشاطها وحركتها . أما الشحر فقد أرسل الصفى للاستيلاء عليها بدرالدين محمد بن على بن جميل السيرانى فى نحو ستمائة جندى وعلى رأسهم الأمير على بن السلطان بدر بن عمر الكثيرى وجعل إليه ولاية الشحر واحتل جيش الإمام الشحر دون أن يلاقى مقاومة وكان بها — حين احتلها جيش الإمام — أكبر سوق تجارى فى حضرموت فقد كان بها نحو ثلاثمائة تاجر من البانيان البراهمة ، وكان فى الميناء أكثر من خمسمائة مركب للصيد .

أقام بدر الدين فى الشحر شهرا وسبعة أيام ثم غادرها إلى اليمن بعد أن قام بالأمر فيها الأمير على بن بدر الكثيرى وترك بها حامية للمحافظة على الأمن وللقضاء على مشاغبات الحموم .

السلطان بدر يستعيد سلطته

بعد أن هدأت الحالة واستتب الأمن لم يبق مايدعو لإقامة الصفى ، وليس فى مقدور حضرموت الفقيرة أن تمون الجيش اليمنى ، لذلك أصدر الإمام أمره إلى الصفى أن يترك البلاد للسلاطين و يغادرها بعد أن يأخذ منهم عهداً بالخضوع والطاعة لأئمة اليمن . سلم الصفى أمر حضرموت للسلطان بدر بن عمر الكثيرى واعتقل كل من أظهر العداء والأذى للسلطان بدر بن عمر . أما الشيخ العمودى فقد أبقاه واليا على دوعن جزاء ماقدمه لجيش الإمام من المساعدات العظيمة إبان زحفه على حضرموت .

عاد الصفى بجيشه من سيون ؛ ولما وصل إلى هينن فى طريقه إلى اليمن قسم الجيش إلى ثلاث فرق ، الأولى وعليها على بن صلاح الحلولى سلكت طريق جبل السوط والنعمان ، والثانية وعلى رأسها الأمير أحمد بن الحسن بن عبد الرب سلكت طريقا آخر ، والثالثة وعلى رأسها الصفى اتخذت طريق شبوة .

ظفار

ولم يتمكن الصفى أحمد من الذهاب إلى ظفار لطرد السلطان جعفر بن عبد الله الكثيرى واحتلالها لبعد المسافة وصعوبة وسائل النقل ، ولكن صاحب النعمان أرسل أربعمائة مقاتل إلى ظفار بقيادة عامر بن أحمد وهزموا السلطان جعفرا واحتلوا البلاد وكتبوا بذلك إلى الصفى بالطاعة للامام .

معتقدات الحضارم

لم يكن لاحتلال اليمن لحضرموت أى أثر فى معتقدات الحضارم، ولم يجبر الصفى ولا العلماء الذين أحضرهم معه الناس على اعتناق مذهب الزيدية فهم تركوا الحضارم أحراراً فى معتقداتهم .

وذكر المطهر بن محمد الهادى الجرموزى فى كتابه « تحفة الأسماع والأبصار بما فى السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار[1] » .

نبذة قصيرة عن معتقدات الحضارم فى القرن الحادى عشر

يقول : إن معظم الحضارم جبرية وحلولية وأنه يوجد بين الفقهاء ورجال الدين أشعرية ، ويقول عن بلاد يافع وحضرموت إنهم يخضعون لسلطة رجل من آل

(١) كتاب ضخم مخطوط فى تاريخ اليمن توجد منه نسخة فى مكتبة المرحوم الأمير على بن صلاح القعيطى بمدينة الريضة ، وقد أمدنا صديقنا الوفى السيد سعيد باوزير بملخص واف للكتاب .

أبي بكر بن سالم آل باعلوى فيلهجون بذكره ويدّعون له الخوارق المؤثرة فى العالم وأنهم يحلون الطرب وجميع الملاهى ويعتبرونها عبادة .

واستدل الجرموزى على شيوع مذهب الجبرية بين الحضارم وإفتاء علمائهم وإقرارهم العامة على مايأتون من المنكرات بما رواه له غوث الدين بن محمد ؛ ذلك أنه وجد رجلا من مغارب ذمار فى سنة ١٠٣٨ عليه لباس أهل حضرموت وخرقة التصوف واستخلص من حديثه معه أنه كان متصلا بأبى بكر بن سالم ثم بابنه الحسين وأنه دخل معهم فى طريقتهم ، واتفق أن وجد رجلا من الوجهاء مع امرأة لها فيهم قدر رفيع ، فقال من حضروا قصتهم منكراً عليهم أتأتون المنكرات وتفعلون الحرام ؟ فقال : « وماذا لنا من فعل وإنما ذلك حكم القضاء والقدر » . ثم قال راوى هذه القصة لغوث الدين بن محمد : « ولما رأيت ذلك منهم عرفت خطئى فى الدخول معهم وهربت بنفسى إلى هـذه البلاد تائبا نازعا من المقام بين أظهرهم » .

ويقول الجرموزى : إن السلطان عبد الله بن عمر الكثيرى كان ناصبيا وكان هو وبطانته يكرهون آل البيت ويسيئون الاعتقاد فى آل محمد وحكى ماروا له الشيخ صلاح بن مقنع الأسعدى من أن الحسن والحسين من آل بيت الإمام أرسلاه مع رسول آخر إلى السلطان عبد الله بن عمر الكثيرى برسالة وخلع ثمينة وكان هذا الرسول قد عاد من صنعاء بجوائز من الباشا حيدر وللسلطان الكثيرى وأن السلطان لبس الكسوة المرسولة من الباشا حين قدمت عليه وأظهرها ولم يأذن باظهار كسوة آل الإمام وقال السلطان للرسل « مايريدون الزيدية بالكتاب إلينا » وتأفف وتهكم برسلهم فقال الرسل « إنما أرادوا إعلامكم أن أهل البيع والشراء والتجار من أهل بلادكم يختلفون إلى اليمن على عاداتهم الأولى » ويقول الجرموزى عن الكسوة المرسلة من آل بيت الإمام نقلا عن الرسل « فما راعنا إلا وهى مع حاشا السامع من النساء والمطربات وأهل اللعب وهم وهنّ فى لهوهم ولعبهم يحفون

بمكانه (أى بمكان الحسين بن أبى بكر بن سالم) رجالا ونساء ، و بعد مضى أيام أجاب بما لا نعرف ما أودع فى ذلك الكتاب ولم نسمع منه ولا من أصحابه غير كراهية أهل البيت ومذهبهم » .

والظاهر أن الجرموزى إنما يقصد بآل البيت وآل محمد أئمة اليمن وأتباعهم من الزيود لأنه فى الوقت الذى يقول فيه عن السلطان عبد الله إنه يسىء الاعتقاد فى آل محمد يقول إن السلطان نفسه يتبرك بالحسين بن أبى بكر بن سالم المقيم فى عينات ولا يقطع أمرأ بدون استشارته والرجوع إليه . وهذا ملخص ما قاله : « أخبرنى الشيخ الأسدى وكان رجلا باديا صدوقا من حذاق القوم فى عام ١٠٤١ أن أمير المؤمنين المؤيد بالله أرسله إلى سلطان حضرموت عبد الله بن عمر الكثيرى بكتاب وهو فى سيون قال وقال لى بعد الإقامة عنده نحوا من ثمانية أيام لا يكون الجواب على الإمام إلا بعد تعريف الحبيب (يعنى الحسين بن أبى بكر بن سالم) وأخذ رأيه الكريم . وأمر كاتبه بالمسير إلى عينات وأرسل معه كتاب الإمام . فقلت للسلطان وأنا أحب زيارة الحبيب ومرادى معرفة حاله لأخبر الإمام بها فأركبونى معهم ووصلنا محله على بقية من الليل وتركونى فى منزل وصاحب السلطان فى آخر، وكانا بالقرب من قبة والده الشيخ أبى بكر بن سالم والقناديل فيها مسرجة والأفراش فيها والقبرعار كذلك، وفيها وحولها نحو من أربعمائة نفر أكثرهم من يافع يهللون و يصيحون بالأصوات المرتفعة : ياحبيب ياحبيب ، وهم مع ذلك يضربون الدفوف والطارات ، قال : فسألت من وكل بضيافتنا عنهم ؟ فقال : ومنهم من يقيم الشهر ومنهم الشهرين وأقل وأكثر لا يرون الحبيب ، وقد يتجلى بعضهم فيظهر عليه و يخبره عن نفسه واسم زوجته و بلده فعرفت أنه يتركهم على ذلك حتى يعرف كثيراً من أخبارهم و يتصل به أخبار خواصهم فى بلادهم فينتشرون فى الأرض و يشهدون له بعلم الغيب قال وكنا لم يؤذن لنا .

« . . . ولما كان ثانى يوم أو ثالثه أذن لى فدخلت عليه فوجدته فى منزل

كبير مملوء من حفدته وآلة الملاهى على أنواعها تتخذ عنده شيئا فشيئا ، ورأيته فإذا هو رجل ضخم كثير الشعر لايحلق رأسه ولا يقص شاربه ولا يقرض أظفاره ، وعلى رأسه امرأتان تسرحان شعره ، عليهما فاخر الثياب والحلى وسألت عنهما ؟ فقالوا من اللقايين الذين يسمونهم الشحذ ، وعادتهم الطرب ويلعب نساؤهم عند الفساق ؛ وبينما كنا كذلك إذ ظهر من باب آخر أسفل الديوان شاب يقلّ الشعر فى وجهه ووضع له كرسى فقعد عليه ومعه امرأتان كذلك تمشطان له شعره ، فسألت عنه فقيل هذا ولد الحسين المسمى أحمد » .

« . . . قال وكنا كذلك فنادى المؤذن لصلاة الظهر فقال من حضر ذهب الحبيب ذهب الحبيب، قال وإذا به ساكن لايتحرك حتى كأنه ميت وهم يتلاكئون بأنه ذهب مكة قال : قال فانتظروه وقتا طويلا وإذا به قد تحرك وتكلم فقاموا للسلام عليه .

وينتقل الجرموزى من هذا الحديث ويقول : « أخبرنى غير واحد ممـا أفاد خبره الاستفاضة لمطابقته الأخبار الـكثيرة أنه وجد قبة على بعض جهلتهم وحولها مسجد كبير مأهول للصلاة والجماعة فى كل وقت ويأتى النسوان لكل صلاة باللباس الحسن والستر المشروع فراقنى ذلك كثيرا وقلت هؤلاء أهل السنة وحضرت معهم مجلس القراءة ، فإذا هى حكايات بهتية وأكاليم كفرية وفى الطرب كغيرهم ، فما قالوا فى ذلك الكتاب فى ذكر مناقب الشيوخ ، أما الشيخ فلان فتجلى له الرب العظيم ، وأما الشيخ فلان فعرضت عليه النبوة مراراً وهو يأباها إجلالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك من الخزعبلات .

اتهم الجرموزى الحضارم بالجبرية والإباحية وربمـا يكون لذلك نصيب من الصحة ولـكنه كان عند أفراد قليلين جداً ولا نجد لذلك أثرا اليوم ورماهم أيضا بالدجل والخرافات ، والحقيقة أنهم لم يكونوا كلهم دجالين وخرافين ؛ فالخرافات والدجل وما إلى ذلك إنمـا قام به ودعا إليه أفراد عجزوا عن النضال والـكفاح

فى الحياة فلجئوا إلى النصب والاحتيال واستغلال الجهلة باسم الدين ، ومثل هذا موجود فى سائر البلدان الإسلامية بين الطبقات الجاهلة . ولا شك أنه متى تثقفت العقول وتنورت الأفكار وانتشر العلم بين الناس سينكشف أمر أولئك الخرافيين وتبور بضاعتهم وتندثر سلطتهم الروحية ، بل سوف يلاقون من المثقفين ألوانا من السخرية والازدراء ، ويومئذ يختفى كل شيء اسمه دجل ونصب وتميمة ورقية وتوسل بالأحجار والأشجار والتراب وللعاب .

وفاة السلطان بدر

بعد أن أدى السلطان بدر بن عمر الكثيرى فريضة الحج ذهب إلى المدينة لزيارة قبر الرسول ، وبها أدركته المنية سنة ١٠٧٣ .

خلفه محمد المردوف بن بدر بن عمر الذى توفى سنة ١٠٨٠، وقيل إن الذى تولى بعده أخوه عيسى بن بدر ثم الحاج عيسى بأمر الإمام المتوكل إسماعيل، ثم قام بالأمر بعده السيد مهدى سنة ١٠٨١ ، وخلفه السلطان على بن بدر بن عبد الله بن جعفر ابن بدر بوطويرق الكثيرى .

تقلص نفوذ الإمام فى حضرموت

فى شوال سنة ١٠٩٣ أرسل إمام اليمن السلطان حسن بن عبد الله بن عمر ابن بدر بوطويرق الكثيرى واليا على الشحر ، فغضب السلطان على بن بدر وسار بجيش إلى الشحر وأخرجه منها فى ذى القعدة سنة ١٠٩٣ ، ولم يستطع الإمام إرسال جيش لإخضاع السلطان على بن بدر واسترجاع سلطة حسن بن عمر .

ومن هنا بدأ نفوذ الإمام ينكمش ويتلاشى .

وفى سنة ١١٠٧ توفى السلطان على بن بدر ، وقام بالأمر بعده عيسى بن على ابن عبد الله بن عمر الكثيرى .

ظهور سلطة يافع

لم يكن بدر بن محمد المردوف الكثيرى بالحاكم الحازم الذى يستعمل الشدة فى مواطن الشدة واللين فى مواضع للين ، وليس فى شخصيته ما يدفع الناس إلى احترامه وتقديره ، وليس هو بالرجل الطموح الذى يضحى بكل شىء لتقوية سلطته وتوسيع نفوذه ، فهو رجل بسيط ينظر إلى الحكم كوسيلة لجمع حطام الدنيا ، وكان معظم مقاليد الأمور فى أيدى يافع وكانوا مهابين من الناس ، واستطاع يافع أن يقووا مركزهم ويوطدوا سلطتهم حتى أصبحوا القوة المحركة ، وأمسى السلطان بدر بن محمد حاكما صوريا إلى أن وافاه الأجل سنة ١١١٩ ، وجاء بعده السلطان عمر بن جعفر ابن على ، وكان طموحا إلى المجد ولكنه لم يستطع أن يشق له طريقا إلى ذلك لأن الأمر كله فى أيدى يافع .

وفى سنة ١١٢٠ سار إلى نهد ودوعن وعمد ليجمع القبائل ضد يافع ، ولكن الظروف لم تساعده لقلة المال ودب اليأس إليه وتحطمت آماله فترك حضرموت ومات فى عمان وهو فى طريقه إلى الهند .

خلفه أخوه على بن جعفر ولم تطل أيامه وقام بالأمر بعده ابن أخيه جعفر بن عمر وكان التنافس على الحكم شديدا بين السلطان جعفر بن عمر الكثيرى و بين جعفر ابن عيسى بن بدر بن على الكثيرى ، واشتد الخلاف حين اعتدى جعفر بن عيسى على أموال يافع فى شبام ، وحالف يافع بعض قبائل آل كثير فى ذى أصبح سنة ١١٤٥ ، وخاف السلطان جعفر بن عمر عاقبة هذا التحالف فسار بقوم من نهد أو الشحابلة وآل رباع والجعدة وأفراد من يافع و قابل الفريقان بموضع يقال له الغطيل وكانت المعركة هائلة انتهت بانهزام جعفر بن عيسى وارتداده إلى شبام ، ولم يقم بها سوى ليلة واحدة ثم غادرها إلى العجلانية وظل بها إلى أن مات . و بموته انكمشت الدولة الكثيرية ، وتألق نجم يافع فى حضرموت. فقد آل أمر المكلا إلى بنى ناخب

وأصبح أمر غيل باوزير للبَعُوس وريدة المَعَارَة لِـكَلَد وغيل بن يمين للشناظير وتريم لِلَبمُوس وسيون لآل الظَبى وَتَرِيْس وحُورَه للنقيب وجِفل للربا كِى وشِبَام للمُوسْطَه وَمَرْيَمِه لآل البكرى ولحروم لعبد الله بن عوض بن عبد الله القعيطى وَسَدْبِه للجهورى والهَجْرَيْن لآل يزيد والقُزه لآل البطاطى .

محاولة جعفر لإحياء الدولة الكثيرية

جاء فى كتاب ابن حميد أن جعفر بن على بن عمر بن جعفر الكثيرى وصل حضرموت من برودة وسار إلى غيل باوزير سنة ١٢١٩ وكان يحمل أموالا كثيرة وذهب إلى هينن وحشد كثيرا من القبائل ثم زحف بهم على شبام واحتل معظمها وأخرج كثيرا من يافع منها ، ثم سار إلى سيون ودخلها سنة ١٢٢١ واحتل الجانب الشرقى منها واستمرت الحرب بينه و بين يافع سيون سنة ، وأرسل جزءا من جيشه إلى تريم واستولى على بعض دورها سنة ١٢٢٢ وعاد إلى شبام و بها مات وفى رواية قتل وأخفوا نبأ موته فى شبام ودفن بتريم ، ولما بلغ جيشه نبأ وفاته انسحب من سيون وتريم فعادت سلطة يافع فيهما كما كانت من قبل .

وجاء ابنه عمر مسرعا من الهند ليأخذ بثأر أبيه من الموسطة وقصد مدينة خشامر عند أخواله آل على جابر وأحضر معه أربعين صندوقا مليئة بالحديد ليوهم الناس أنه إنما أتى بأموال طائلة ، وقد انخدع الناس بهذه الفكرة وتوسط آل على جابر بينه و بين الموسطة بشبام على ألا يطالب بثأر أبيه مقابل ترشيحه فى منصب أبيه فيحكم نصف شبام ويحكم يافع النصف الآخر .

الوهابيون فى حضرموت

جاء الوهابيون إلى حضرموت سنة ١٢٢٤ بقيادة على بن قملا فراعهم ما رأوه هناك من الخرافات والخزعبلات وما شاهدوه من استعباد بعض رجال الدين للناس

وجدوا الحضارم يقدسون القبور و يقدمون لبعض الموتى القرابين والنذور و يطوفون بقبورهم كما يطوف المسلمون بالكعبة ورأوا بعض أصحاب السلطة الروحية يبيعون التمائم والأحجبة للجهلة والمغفلين . فهدموا القباب وحطموا التوابيت ومنعوا الرواتب واعتقلوا المناصب . وخاف أهل تريم فطلب عبد الله بن أحمد بن عمانى وعبد الله عوض غرامة إلى الوهابيين ألا يتدخلوا فى شئون تريم على أن يقوما بنشر مبدئهم ومحاربة الخرافات فأجابوهم إلى ذلك وعاد الوهابيون بعد أن مكثوا أربعين يوما ولكن قبائل المناهيل والمهرة اعترضتهم وسلبوا أموالهم وقتلوا كثيرا منهم فعاد بعضهم إلى حورة وأقاموا فيها . وقيل إن الوهابيين جاءوا المرة الثانية سنة ١٢٢٦ ولكنهم هزموا . وتضاربت الأقوال فى سبب قدومهم إلى حضرموت ، فقيل حصلت ظلامة على السيد أحمد الكاف ، ولما لم ينصره أحد سافر إلى نجد واستنجد بالوهابيين . وقيل إن الذى استنجد بهم هو منصب الحداد لينتقم من الحضارم حين عارضوا فى وضع التابوت على قبر جده .

تصرفات السلطان عمر بن جعفر الكثيرى

كان معظم السلطة فى شبام ليافع الموسطة وكان نفوذ السلطان عمر بن جعفر ابن على الكثيرى محدودا فى نطاق ضيق لايتجاوز حاشيته والمقربين إليه من عشيرته أو قبيلته آل كثير ، وكان فى استطاعة يافع أن يجمعوا كل السلطة فى أيديهم و ينفردوا بها لولا اشتداد الخلاف والتنافس فيما بينهم على الحكم .

حاول السلطان عمر بن جعفر تقوية مركزه وتوطيد سلطته ، فأحضر كثيرا من قبائل آل كثير وكانت حاجته إلى المال شديدة حتى أمسى عاجزا عن دفع تكاليف حاشيته و بطانته ومن استقدمهم من الشنافر وآل عبد العزيز فأخذ يرهق التجار وأرباب المال بكثرة طلباته و بالضرائب التى كان يفرضها عليهم فى غير رحمة ، واضطر بعض التجار للاستعانة بيافع لحراسة متاجرهم التى تعرضت للنهب والسلب ،

وقد ألقى السلطان عمر بن جعفر القبض على أحمد بن على الجنيد باعلوى حين اعتذر عن دفع ماطلبه منه . وهاج الشعب وانتشر الرعب فى قلوبهم وفر بعض التجار بأموالهم خوفا من الاعتداء عليها والتجئوا إلى آل العيدروس فى الحزم وآل أحمد ابن زين فى خلع راشد . أما زعماء يافع فى شبام فقد التزموا الحياد لم يتدخلوا بين السلطان والشعب ولم يحاولوا إسداء النصائح للسلطان عمر للعدول عن سياسة البطش والشدة . ولم يستعن السلطان بهم لأنه لايثق بهم بل ربما ذهب إلى أكثر من ذلك فاتهمهم بتحريض الأهالى ضده . ولم يكن ذلك الحياد من يافع نكاية بالشعب أو حبا فى نزول الأذى به ولكن ليضعفوا مركز السلطان ويصبح مكروها من الشعب؛ وهى سياسة سار على مثلها محمد على باشا حين أحضر خورشيد باشا والى مصر من قبل الدولة العثمانية جيشا من تركيا أخذ ينهب الأهالى بالقوة فى شوارع القاهرة فتركهم محمد على وشأنهم ولم يحاول بجيشه الألبانيين الأقوياء أن يمنع الأذى عن الناس حتى إذا اشتد الضرر من جيش خورشيد لجأ الشعب إلى محمد على واستنجدوا به ونادوا به واليا على مصر .

سادت الحالة فى شبام وأقفرت أسواقها من التجار ورجال الأعمال ، وحدث أن دخل كثيرى إلى شبام وأساء الأدب فقتله الأهالى. فاغتاظ آل كثير واعتبروا الحادثة إهانة موجهة إلى الدولة الكثيرية ، فسار منهم جماعة من زعمائهم إلى العقاد واستنجدوا بالثرى عمر بن جعفر بن عيسى بن بدر الكثيرى الذى جاء من جاوه سنة ١٢٣٠ ووعدوه بتولية حكم شبام متى هجم عليها واحتلها وطرد منها آل على جابر وغيرهم من يافع إذ لم يعد السلطان عمر بن جعفر إلا آلة فى يدهم فلم يكن من ابن عيسى بن بدر الذى ارتضاه الشنافر سلطانا عليهم إلا أن هجم بقوم منهم ومن يافع الظبى على شبام واحتل معظمها. وعجز السلطان عمر بن جعفر عن الدفاع والمقاومة فسلم المدينة لهم سنة ١٢٣٤؛ وقام بالأمر عمر بن جعفر بن عيسى خيرقيام وعاد التجار الفارون إلى ديارهم فعاد إلى المدينة نشاطها وحركتها .

وفى سنة ١٢٤٣ مات السلطان عمر بن جعفر فقام بالأمر عمه عبد الله بن جعفر الكثيرى إذ كان الأمير منصور بن عمر فى السنة الخامسة من عمره . ولم يستطع السلطان عبد الله معالجة الموقف وحل الأزمة المالية المستحكمة ، فاضطر لبيع نصف شبام ليافع وهكذا عادت السلطة ليافع . وقيل إنه لم يبع شيئا من شبام و إنما استعان بيافع فى حكم المدينة حتى تغلبوا عليه وقيل إن الموسطة هجموا على شبام سنة ١٢٤٩ واحتلوا معظمها واستمرت المناوشات بين الفريقين إلى أن انتهى الأمر بالصلح على المناصفة لآل عيسى بن بدر النصف والنصف الآخر من المدينة ليافع ، وعلى أن يدفع هؤلاء لآل عيسى بن بدر أربعمائة ريال .

مذبحة المساجد

سافر الأمير منصور بن عمر بن جعفر الكثيرى من الحجاز لتأدية فريضة الحج وعند عودته إلى شبام عزل عمه الأمير عبد الله بن جعفر وتولى حكم شبام وكانت مطامحه واسعة ، وفى الوقت نفسه كان قلبه مليئا بالحنق على يافع، إذ يرى أنهم اغتصبوا ملك أجداده فأراد أن ينفرد بالسلطة كل الانفراد وألا ينافسه فى ذلك إنسان ولكنه يعتقد كل الاعتقاد أنه لايستطيع بلوغ تلك الأمنية مادام فى حضرموت قوم من يافع، و بعبارة أخرى مادام فى شبام جماعة من اليافعيين، لذلك أخذ يترقب الفرص للقضاء عليهم و يتآمر لذلك مع آل كثير ، ونجح إلى حد بعيد فى إلقاء بذور الشقاق بين رجالات الموسطة فى شبام حتى إذا بلغ التنافس بينهم على الرياسة إلى أقصى حدوده وأخذ كل من ناصر جابر النقيب اليافعى وعلى بن عبد الكريم الجهورى اليافعى يكيل الشتائم والسباب والتهم للآخر دخل بينهما متظاهراً بالصلح فيتصل بالنقيب مظهراً له استعداده لمساعدته ضد خصمه ثم يذهب إلى الجهورى و يتظاهر له بما تظاهر به للنقيب ، وأدخل السلطان منصور جماعة من آل كثير سراً إلى شبام.
وفى ليلة عيد الفطر سنة ١٢٦٠ وقد خرج معظم يافع من شبام إلى أهاليهم فى القَطْن

أمر عبيده أن يكمنوا فى المساجد وقت الإفطار وكانت يافع محافظة على صلاة المغرب فلما حضروا فتك بهم العبيد و بلغ عدد القتلى منهم خمسا وثلاثين نفسا .

لقد قتل السلطان منصور عشرات من يافع فى أقدس الأماكن وأطهر البقاع ، قتلهم وهم عزل من السلاح لأنهم كانوا فى المسجد يصلون ، يا لهول هذا الغدر ، ولكن المطامع الجشعة طغت على عقله وجردته من الإيمان فلم يخش الله تعالى ولم يقم وزنا ليوم الحساب ، ومن غرائب الدنيا أن بعض أدعياء الصلاح والتقوى برروا فعلة منصور التى فعلها أو الجريمة الشنيعة التى اقترفها ، فقد أرسل عبد الله بن عمر ابن يحيى باعلوى كتابا مؤرخا ١٠ شوال سنة ١٢٦٠ إلى السلطان منصور مظهراً له استحسانه لتلك المذبحة ، واقد استنكر ذلك العمل السيد عبد الرحمن بن عبيد الله فى كتاب [بضايع الياقوت] ، وقال كلمته الصريحة وهى « . . . إن الإشكال عندى فى تبرير منصور فى غدره بيافع وهم قارّون فى المساجد لايتحمل على الجمال بل الجبال » .

ولم يكتف منصور بذلك فقد جهز ليلة عيد الحجة سنة ١٢٦٠ على حصن من حصون آل الخلاقى يقال له حصن معمر فأحرقه بالبارود فسقط على من فيه من الرجال والنساء والأطفال ومن النساء خالة عمر بن عوض القعيطى . وحاصر مدينة خشامِر مقر أخواله آل على جابر الذين نشأ بينهم ، وأنشأ منصور حصونا (القاهرة وسهالة والسوم وغرفة بشير) واستولى عنوة على حصن السعيدية وطرد منها حاميتها من آل عبد العزيز، وقوى مركز العقاد ، وجهز جيشا من العوامر وآل باجرى وآل كثير، وأخذ يضايق لخائذ يافع فى مضاجعهم و يقلق راحتهم و يتحرش بهم و يتحين الفرص للتنكيل بهم والقضاء عليهم .

هياج يافع

وليس من شك أن مذبحة المساجد أثارت غضب يافع وأثارت الألم فى كل من فى قلبه مثقال ذرة من الرحمة من غير يافع . وليس من شك أن محاصرة منصور لخشامر وتحصينه العقاد و بناء الحصون وتهديده ليافع ، كل ذلك نذير لهم بالقضاء والفناء .

التجاء يافع إلى القعيطى

عند ماساءت حالة يافع وتفرقت كلمتهم وذهبت ريحهم وبدأت الدولة الكثيرية بالغرف تنهض وتتوطد دعائمها ، اجتمعت نخائذ يافع بالقطْن وتبادلوا الآراء فيما بينهم لاسترداد سلطانهم ودفع مايحيط بهم من الأخطار والرزايا ، ولكن الذخائر كانت قليلة ولا طاقة لهم بنفقات الحرب ضد آل كثير ؛ لذلك قرّ رأيهم على الالتجاء إلى الثرىّ الكبير الجمدار عمر بن عوض القعيطى اليافعى المقيم فى حيدر أباد الدكن ، للاستعانة به لتنفيذ خططهم وتحقيق غاياتهم على أن يولوه شؤونهم بحضرموت .

أرسل يافع وفدا إليه سنة ١٢٥٨ تحت رياسة حسين بن على الحاج وحسين ابن صالح المصلى ، وعرضوا عليه ماحل بيافع من المصائب والنكبات ، وطلبوا إليه جمع شملهم واسترداد سلطانهم على أن يولوه أمرهم و يتعهدوا له بالطاعة .

ولقد تأثر القعيطى مما حل بقومه يافع إلى أقصى حدود التأثر ، فأرسل عامر ابن عوض القعيطى بأموال إلى حضرموت واشترى مدينة الحوطة من آل العيدروس، وسميت بعد ذلك حوطة القعيطى ، وتسمى الآن (الريضة) تحيط بها غابات كثيفة من النخيل ومساحات واسعة من الأراضى الزراعية الخصبة .

ابتاع القعيطى الحوطة لتكون نواة لدولة يافعية بحضرموت ؛ ولما اقترف السلطان منصور ما اقترف من الجرائم الشنيعة ضد يافع ولما بلغت أنباء مذبحة

المساجد ودك حصن معمر بمن فيه من يافع إلى الجمعدار عمر ، تألم أشد الألم وتحمس أيما تحمس ؛ فجمع أصحاب الفكر من يافع وشاورهم فى الأمر ؛ وقيل إن الشاعر الشعبي سعيد باعطوة أرسل قصيدة للجمعدار عمر القعيطى يستثير حفيظته وكان ذلك عن رأى من يافع فتأثر بها أيما تأثر ، وجمع رجالات يافع بالهند وقرأ عليهم قصيدة باعطوة فقرّ رأيهم على أن يولوه أمرهم .

وفى رواية أن الشاعر الشعبي ناصر باعطوة ، دخل على الجمعدار عمر فى جمع من يافع فى مكتبه بحيدر أباد ، وكان باعطوة متلثما بطرف ردائه ، فقال له الجمعدار : « ماذا دهاك ياعطوان ؟ » فقال : « لا شىء ياسيدى سوى أننى أشتمّ رائحة جلود محروقة بالبارود » و يقصد بذلك دك منصور لحصن معمر بمن فيه يافع، فتأثر الجمعدار عمر أشد التأثر وأرسل عبديه الماس عمر وعنبرا تحت ر ياسة ابنه محمد وزودهم بأموال، طائلة وعند وصولهم إلى القَطْن سنة ١٢٦٠ اشتروا حصون السكروس من سعيد ابن حسين بن على الحاج ، ثم أرسل الجمعدار عمر ابنه الثانى عبد الله فى سنة ١٢٦١ ثم ألحقه بعلى وعوض بطلى التاريخ الحضرمى و بصحبتهما بقية أفراد الأسرة ، وتكوّن للقعيطى جيش بلغ تعداده ٦٠٠ جندى من يافع كما فى رواية باعباد .

وفى سنة ١٢٦٤ اشتدت المناوشات بين يافع وآل كثير واستطاع يافع رفع الحصار عن خَشَامِر بعد معركة عنيفة ، واندفع جيش منصور إلى ضواحى شبام بعد سقوط حصون القاهرة وسهالة وغرفة بَشِير فى يد يافع .

سحيل آل مهرى

بعد أن استولى يافع على بعض مراكز الشَّنَافِر هجموا على سَحِيل آل مَهْرِى فى أواخر ذى القعدة سنة ١٢٦٤ ولـكنهم فشلوا لقوة دفاع آل كثير ، ثم حملوا على أحد الحصون المنيعة على مقربة من السَحِيل ، وكان فيه جماعة من آل كثير وعلى رأسهم ريس بن عبود ، وقد أصيب برصاصة فى إحدى عينيه ، و بعد مقاومة عنيفة

اضطر ريس بن عبود الـكثيرى لمفاوضة يافع فى التسليم على أن يعطوه ورجاله حرية العودة إلى شبام فأجابهم يافع إلى ذلك .

وهكذا احتل يافع هذا الحصن المنيع ولـكن بعد أن دفعوا الثمن غاليا ، فقد كان من بين القتلى شخصيات بارزة أمثال : عبدالله بن عبد الحبيب بن قاسم بن على جابر وصالح عمر بن على الحاج .

وبسقوط هذا الحصن فى يد يافع أصبح سَحِيل آل مَهْرِى مهدداً بالسقوط ، وابتاع يافع حصن سعيد بن بدر بن مَهْرِى وكان مركز قيادة جيش القعيطى فى النقر، ثم استمرت غارات يافع على المناطق الـكثيرية وكبدوهم خسائر فادحة فى الأرواح والأموال، وهكذا تحول موقف يافع من الدفاع إلى الهجوم .

عبود بن سالم يقود جيشا

شعر آل كثير بالخطر يدنو إليهم ويحدق بهم وينقصهم من أطرافهم ، واستطاع أقطابهم وفى مقدمتهم البطل الأمير عبود بن سالم الـكثيرى أن يوحدوا صفوف قبائلهم ويجمعوا شملهم ويقربوا بين وجهتى نظر آل عبد الله وآل عيسى ابن بدر .

لقد حشد عبود بن سالم لحائذ آل كثير ومماليكهم وسار بهم لمقاتلة يافع ، وفى ذى أصبح سمعوا صوت الصائح بمغار القوم فاتجهوا نحوها فعرفهم القوم وكرّوا عليهم بخيامهم ومطاياهم وقتل أحد العبيد ، وكاد القوم يحيطون بالأمير عبود لولا أن نجا بالهرب إلى شبام .

وقيل إنه اتفق مع السلطان منصور بواسطة آل يمانى على أن يعطيهم ناصفة شبام بثمن ، على أن يقوم بنصف تكاليف الحرب ضد يافع ، وعلى منصور النصف الآخر يخصم من ثمن ما أعطاهم ، وأن تكون المصروفات وإيراد السدة والبلد على يد آل عبد الله والحكم لمنصور ولحاشيته سبعة ريالات كل يوم .

وعاد الأمير عبود إلى سَيْوُن بعد أن حصن مدينة شِبَام والسَّحِيل والعقاد ، ومن سيون ذهب إلى تَارْبِهْ وتَرِيم ، وهناك جهز جيشا من العوامر وآل باجرى والشنافر ، وسار بهم ليلة الخميس آخر القعدة سنة ١٢٦٤ إلى الغرفة فى طريقهم إلى شبام ، فأضافهم منصب باعباد ؛ وفى ذى أصبح أضافهم حسن بن صالح باعلوى ودعا لهم بالنصر فى صلاة الجمعة ، وعلى مقربة من النقر مركز قيادة يافع قسم جيشه ثلاث فرق على كل منها قائد كثيرى ، ثم هجموا على يافع ؛ وجاء السلطان بجيشه من الشرق ، و بلغت المعركة أقصى حدود العنف ، وتحت نيران حامية انسحب يافع وأحرق آل كثير أكواخهم بمن فيها من المرضى والجرحى ، وتحصن جماعة من يافع فى مسجد النَّقْر و باتوا فيه فكر عليهم آل كثير وأخرجوهم منه ، وكان فيه من رؤساء يافع عبد الحبيب ابن بو بك بن نقيب ، واحتفظ يافع بالحصن الذى اشتروه من سعيد بن بدر بن مهرى و بالحصن الذى بنوه على مقربة منه على الرغم من حصار آل كثير لهما ، وذات ليلة أراد يافع إمدادهم بالذخيرة والغذاء والماء فصدهم آل كثير ، وأخيرا هجموا على أحد الحصنين وأسروا حماته وكانوا أربعة من المماليك وساروا بهم إلى شبام بالطبول والأناشيد ، ثم أحاط آل كثير بالحصن الآخر وكان فيه تسعة من يافع وحاصروهم ومنعوا عنهم الماء والغذاء فاضطروا للتسليم على الأمان فى وجه سالمين بن عبد الله ابن طالب ؛ وهكذا استطاع آل كثير رفع الحصار عن شبام بقوة السلاح . وقيل إن آل كثير أغروا قطيان الكربى قائد قوم القبلة الذين انضموا فى صف يافع لينصرف بقومه إلى بلادهم مقابل مبلغ كبير من المال .

جلاء يافع عن تريس

كان أمر مدينة تَرِيْس فى يد النقيب اليافعى ولوقوعها وسط المناطق الكثيرية أصبحت من أخطر الجيوب عليهم ولذلك فكروا فى إجلاء يافع عنها واحتلالها ، فأخذوا يشددون الحصار عليهم ، واستطاع أبو بكر بن عبد الحبيب النقيب وعبد الله

ابن صالح بن ناصر الوصول إلى القَطْن لطلب النجدة من يافع فى جمادى الأولى سنة ١٢٦٤ ، وعلم آل كثير أن نجدة قادمة فى طريقها إلى تَرِيس فكمنوا لهم على مقربة من تَرِيس ، ولحسن الحظ ترك يافع معظم ذخائر النجدة ومؤنها فى خَشَامِر عند آل على جابر خوفا من وقوعها فى يد آل كثير ،وعلى مقربة من حصون العوانزة وكان الظلام حالكا انقض عليهم آل كثير ، فانهزم يافع لقلة عددهم ونفاد ذخيرتهم وتكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح ونجا بأعجوبة عبد الله بن صالح ودخل مدينة تَرِيس ؛ أما أبو بكر عبد الحبيب فقد لجأ إلى حصن بئر بُوبَكْ وكان فيه مملوك لآل النقيب ، وفى أواخر شهر جمادى الأولى سنة ١٢٦٤ حشد آل كثير جنودا كثيرة من الشنافر والعوَامِر وجماعة من قبائل القبلة يرأسها الشريف أحمد بن مبارك من أهل بيحان وهجموا على تَرِيس واستولوا على جزء منها، واستمر الهجوم أمام مقاومة عنيفة من يافع وعبيدهم الذين تحصنوا فى بعض المنازل ؛ وحاول آل كثير وضع أكياس من البارود تحتها لهدمها بمن فيها من يافع ولكنهم فشلوا ، وأخيرا ضربوا نطاقا من الحصار حولهم ومنعوا عنهم المؤن والذخائر والماء سبعين يوما ، وكاد يافع يموتون جوعا وعطشا فسلموا المدينة لسالمين بن عبد الله بن جعفر بن طالب قائد آل كثير على شرط سلامة أرواحهم وعودتهم بأموالهم إلى القَطْن ، وقام سالمين ابن عبد الله وعلى بن مبارك بن عاوز بتنفيذ شروط التسليم .

استنجاد يافع بالقعيطى

بعد أن فشل يافع فى محاصرة شبام و بعد أن تكبدوا خسائر فى الأرواح والأموال أرسلوا إلى الجمعدار عمر بن عوض القعيطى اليافعى بحيدر أباد الدكن . وقيل إن وفداً منهم وعلى رأسه حسين بن على الحاج وحسين بن صالح المصلى ذهبوا إليه وأحرق أحدهم عمامة من الحرير المقصب بين يدى الجمعدار ، فثارت حميته وأرسل أمين أمواله محمد بَشْبَر إلى بلاد يافع وجهز ألفى مقاتل وعلى رأسهم

صائل بن ناجى وعلى بن حسين الضباعى والحريبى والبكرى ومحمد ابن سالم بن الشيخ أبى بكر ، وقبل وصولهم اقترح عبد الله بن عمر بن يحيى على السلطان منصور أن يغتنم الفرصة فيهجم على يافع بالقَطْن قبل أن يصلهم المدد ، وأرسل بعض كبار العلويين للفَضْلِي أمير الشُّقْرَا ليمنع اليافعيين من المرور فى أرضه فأجابهم إلى ذلك ولكن محمد بَشْهَر رشاه بمبلغ كبير من المال فسمح لهم بالمرور فى أقاصى بلاده ليوهم العلويين وآل كثير أنهم إنما مروا من غير أن يعلم بهم .

وصل يافع إلى المكلا فى محرم سنة ١٢٦٥ فاستقبلهم النقيب صلاح الكسادى اليافعى وأكرمهم إكراما عظيما وأرسلهم إلى القَطْن بعد أن أمدهم بالمؤن والذخائر .

سقوط العقاد

تقع مدينة العقاد على مقربة من شبام ، وموقعها الاستراتيجى هام جدا لشبام ولذلك حصنها آل كثير تحصينا قويا حتى أصبحت أهم خطوطهم الدفاعية ، وكانت تقيم فيه أسر من آل عيسى بن بدر ، ويافع يعلمون كل العلم أنه لاسبيل لاحتلال شبام إلا بعد دك حصون العقاد أو احتلالها ، لذا حملوا عليها بمدافعهم الثقيلة وأصلوها نارا حامية وأحدثوا بها أضراراً جسيمة وقتلوا عدداً كبيراً من حماتها وجرحوا كثيرين ، واضطر آل كثير إلى التسليم من غير قيد ولا شرط ، ودخل يافع المدينة فرحين بما أحرزوه من النصر وكان ذلك فى صفر سنة ١٢٦٥ ، وهكذا تحطم أهم خط دفاعى كان يعتمد عليه السلطان منصور كل الاعتماد . وقيل إنه كان فى بعض الدور أولاد عيسى بن جعفر و بعض الشنَافِر طلبوا الأمان من يافع على أن يسلموا لهم الدور بما فيها من الذخائر فأجابوهم إلى ذلك ، ولكن عند ماخرجوا ألقى عليهم القبض وأرسلوا إلى حوطة القعيطى وكانوا أحد عشر شخصا .

وظهرت بوادر النشاط فى آل كثير فى خَمُور فقد قامت دور ياتهم تهدد مواصلات

يافع ، فسار إليهم جماعة من يافع وقضوا على جيوب المقاومة وأوكار العصابات التي تقع بالقرب من خمور .

حذية وجلاء آل كثير منها

وبلدة حِذْيه غنية بالآثار لاسيما في منطقة عقْرَان ، ولا يبعد أن تكون هناك آثار مطمورة في قمة تل العِدفِه ولا تزال الأطلال قائمة هناك إلى اليوم ، وكان آل الحداد من يافع يقيمون في قسم منها ويقيم في القسم الآخر آل الهاجرى وآل سعد من فخائذ آل كثير ، وكان الوئام يسود الفريقين ولكن بعـــد سقوط خمور والعقاد وما جاورهما من الديار الكثيرية ظهرت بوادر نشاط آل كثير سكان حِذْيِة فقد صاروا يتجسسون لقومهم ضد يافع ، وليس من شك أن بقاءهم أصبح خطراً على يافع ، لذلك أصدر الأمير عوض بن عمر القعيطى أمره إلى آل سعد وآل الهاجرى بالجلاء عن حِذْية ، ولقد أذعنوا للأمر وانسحبوا إلى شبام .

معاهدة بين يافع وآل كثير

تقع قارة آل عبدالله في الشمال الغربي لشبام ويقع نحيل آل مَهْرِى على مقربة منها والبلدتان — ويقيم فيهما آل عبد العزيز وآل بَلَظْرَاف الكثيريون — من أهم المراكز الدفاعية لشبام ، وكانوا يحملون في قلوبهم الكره للسلطان منصور لجوره ولشدته ؛ ولقد اغتنم الأمير عوض بن عمر القعيطى اليافعى هذه الفرصة فتحالف معهم سنة ١٢٦٥ تمهيدا لاحتلال شبام .

محاصرة شبام

والآن وقد سقطت في يد يافع العقاد وخُمور وحِذْية وما جاور هذه البلدان من مساكن آل كثير ، أخذ يافع سنة ١٢٦٦ يشددون الحصار على شبام ويقطعون مواصلاتها بنهد واقبله ، ولقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد .

يافع فى تريم

حين انهارت الدولة الـكثيرية وزال سلطانها من تريم سنة ١٢٥٠ آل أمر تريم إلى آل لَبْعُوس من يافع ؛ ولقد استطاع الأمير عبد الله عوض غرامة اليافعى بحزمه وسياسته أن يقوم بالأمر وينشر فيها العدل والأمن ولـكن لسوء الحظ لم تستمر هذه الحالة ، فقد قام آل عبد القادر ينافسون آل غرامة فى حكم تريم و يعملون فى الخفاء لإضعاف قوتهم ، واشتد الخلاف بين الأمير عبد الله غرامة وأنصاره من سكان حصن الزناد و بين آل عبد القادر وأشياعهم سكان النويدرة ، وتطور النزاع إلى مناوشات بين الطرفين ، وتدخل فى الأمر الأمير غالب بن محسن الـكثيرى ، وقيل عبد الله بن محسن واتصل بآل عبد القادر لما بينه و بينهم من الصداقة القوية ، و بدلا من أن يصلح ذات البين أعادها جذعة وقام بأكبر قسط فى إشعالها بعض العلويين من سكان سيون وتريم لـكراهيتهم و بغضهم لابن غرامة لاعتناقه مبدأ الوهابيين الذين يحرمون البدع والخرافات و يعتبرون التوسل بالأموات شركا ؛ ولسوء الحظ مات الأمير عبد الله بن غرامة فجأة فخسرت يافع رجلا سياسيا حازما عادلا حراً كريما ، وخلفه ابنه عبد القوى وكان ضعيف السياسة قصير النظر ساذجا يحسن النية فى كل شىء سريع التأثر بأصحاب السلطة الروحية من العلويين وغيرهم حتى أصبح آلة صماء فى يدهم ، ونجح أصحاب السلطة الروحية فى عقد محالفة عسكرية سنة ١٢٥٠ بين آل عبد الله الـكثيرى و بين آل عبد القادر أعداء آل غرامة ، وجاء آل عبد الله بقوات إلى تريم يوم ٥ رمضان سنة ١٢٦٢ بحجة مساعدة آل عبد القادر ونشط جماعة من آل كثير ومن أصحاب السلطة الروحية فى بث الخوف فى قلوب آل غرامة وأنصارهم ، وأخيراً أغروا الأمير عبد القوى غرامة على التنازل عن حصته من تريم للأمير غالب بن محسن الـكثيرى مقابل أربعة آلاف ريال ، وأجابهم عبد القوى إلى طلبهم وهاجر هو وحاشيته وأنصاره إلى القوز مساكن آل مرساف

من آل تميم سنة ١٢٦٢ وطالب غالب بن محسن الكثيرى ماتعهد به له من المال ولكن من غير جدوى ، وهكذا انخدع عبد القوى نتيجة سياسته الخرقاء ودبرت له المكيدة فوقع فى حبالها وحاول استرداد حقوقه السياسية ولكن ذهبت محاولاته أدراج الرياح ، وليس من شك أن سبب ضياع سلطان يافع على تريم إنما هو التنافس فيما بينهم على السلطة والتنازع على الحكم .

يافع فى سيون

عاصرت سَيْوُن إمارات مختلفة المبادئ والأوضاع حتى إذا جاءت سنة ١٢٤٠ بدأت سلطة يافع تظهر ويتسع نطاق نفوذهم السياسى . وفى سنة ١٢٦٤ أصبح الأمر كله فى يدهم ولم يبق لآل كثير سوى أسماء جوفاء لا تحمل معنى ، ولكن سرعان ما أخذت سلطة يافع تتصدع وتنهار لتنافسهم على الزعامة والرياسة ، ففريق منهم يريد أن يكون أمر سَيْوُن لعلى بن حسين ابن الشيخ على ، وفريق آخر يريد سالم حسين بوطلعة الشرفى واشتد الخلاف والتنافر والشقاق ، وأخيراً ثارت بينهم المناوشات تبودل فيها إطلاق النار من الجانبين .

واغتنم بعض الشخصيات فى سَيْوُن ضعف يافع وتخاذلهم وتنافسهم على الرياسة فأخذوا يعملون سراً لإقصائهم عن سَيْوُن واسترداد سلطة آل كثير ، وقد نجحوا فى ذلك إلى حد بعيد ، فقد انسحب من ديارهم فراراً من الضغط والجور ماعدا آل الشيخ على فقد فضلوا البقاء لمصاهرتهم لآل طالب .

غزو سيون

ليس من شك أن سقوط سَيْوُن من أيدى يافع ترك فى نفوسهم أثراً سيئاً أليما ، وليس من شك أن أهم آمالهم استرداد سلطتهم عليها ، ولقد ظهر نشاطهم فى خَشَامِر حيث تركزت قواتهم بشكل واضح وتحمسوا لاسترداد ماغتصب منهم من البلدان

وقد استردوا العقاد وخُور وحِذْية وما جاورها من الديار وحاصروا مدينة شِبام حصاراً شديداً .

وفى ليلة الاثنين ٢٥ من ربيع الأول سنة ١٢٦٥ سار من يافع ٨٠٠ مقاتل لغزو سيؤُن وقابلهم على مقربة من سَيْؤن عبد من عبيد عبد الحبيب بن صالح ابن محمد سعيد الجَحْوَشِي وكان خبيراً بشوارع سَيْؤُن وحصونها ومنافذها فرسم لهم خطة الهجوم ، ولما علم آل كثير بذلك قام الأمير عبود بن سالم الكثيرى يحشد قبائل آل كثير والعوامِر وآل باجرى للدفاع عن سَيْؤُن وإقصاء يافع عنها، وخرجت القوات الكثيرية من سَيْؤن بقيادة الأمير عبد الله بن صالح بن محمد الكثيرى إلى مِسْيَال سَر حيث لا طريق ليافع إلا منه وكان البرد شديداً ، وقبيل مطلع الفجر انصرفوا إلى القَرِين من أعمال تريس ولكن القوات اليافعية مرت بعد ذلك فى المِسْيَال ووصلوا إلى سَيْؤُن والناس يؤدون صلاة الصبح ؛ وهناك دخل فريق منهم إلى الحوطة واستولوا عليها ، وفريق دخل الوسطة على مقربة من حصن الدويل وفريق ثالث دخل السحيل واحتله ، ودخل فريق آخر دار خلع أحمد والدجن ومسجد جوهر .

وفى اليوم الثانى وصلت إلى سيؤُن قوات كثيرة من آل عبدات وآل فَلْهُوم والعَوَانْزة لنجدة دولة آل عبد الله ، واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين أياما وهجم أربعون من عبيد آل كثير وعلى رأسهم فرج غالب على مسجد جوهر، وكان فيه سبعة من عبيد يافع هرب ثلاثة منهم واحتمى أربعة بالمئذنة واحتل المهاجمون المسجد وأقبل جماعة من يافع لاسترداد المسجد ولكنهم فشلوا .

وفى الليل تسلل العبيد من المسجد واحداً بعد واحد خوفا من هجوم يافع عليهم .

وكادت ذخائر يافع تنفد فأرسلوا إلى القَطْن يطلبون المدد ولكن من غير جدوى لأن آل كثير وأعوانهم من القبائل محاصرون سيؤُن من جميع الجهات ،

وحاولوا فتح ثغرة فهجم جماعة منهم على القرن واحتلوا جانبا منه ، ولـكن الأمير عبد الله بن أحمد وعبيده قاوموهم بكل قوة .

واستطاع أربعمائة مقاتل من يافع التسلل من سَيْوُن فى طريقهم إلى القَطْن لجلب مؤن وذخائر ، ومروا ليلة الاثنين ١٢ جمادى الأولى سنة ١٢٦٥ على مقربة من مخافر آل كثير فتركوهم يمرون حتى لم يبق منهم سوى ثمانين أطلقوا عليهم النار وجاء إلى جبل المحتَرِقَة آل الفاس وآل العاس والعوانزة وقتلوا منهم ثلاثين وأسروا أحد عشر نفراً جاءوا بهم إلى تريس ثم أرسلوهم إلى تريم وجرح كثيرون من الفريقين ، وقد تركت هذه الهزيمة التى لحقت بيافع أثراً سيئاً فى نفسية قومهم بسَيْوُن .

وأخيراً اجتمع محسن بن علوى وآل الضباعى بدار على بن جعفر السقاف بِيِثْمِة للمفاوضة فى الصلح بين الفريقين ، ولـكن آل الضباعى وهم من لَبْعوس لم يحضروا فى الميعاد المحدد لأنهم علموا أن مدداً كبيراً قادم ليافع من الأمير محمد بن عمر القعيطى ولما تأخر وصول المدد وكادت الذخيرة تنفد اجتمع زعماء الفريقين فى دار على ابن جعفر السقاف ، وكان الأمير على بن أحمد الـكثيرى وجماعة من آل باجرى نائبين عن آل كثير ، وكان على بن حسين الضباعى اليافعى نائبا عن يافع ، واتفق الفريقان على أن ينسحب يافع (الغرباء) وهم الذين أتى بهم محمد بَشْهَر من بلاد يافع ، ولـكن الضباعى عاد إلى محسن بن علوى وطلب إليه أن يكون الصلح ليافع جميعهم التّلد والغرباء ، فرفع محسن الأمر إلى الأمير على بن أحمد واجتمع الطرفان فى دار عبد الله بن سالم الحبشى ثم فى دار سالم عبود بَحْرق وحضر عن يافع (التُّلد) عبد الحبيب بن بو بك بن نقيب وصالح بن سالم بن يحيى عمر وسعيد عوض المرفدى ، وبعد مفاوضات انسحب يافع (الغرباء) من سيون ليلة الجمعة ٤ من جمادى الآخرة سنة ١٢٦٥ تحت حراسة جنود من آل كثير .

وصعب البقاء على يافع (التّلد) وكان عددهم لايتجاوز ١٥٠ فانسحبوا من

ديارهم واجتمعوا بالسحيل ، واقترح عليهم عبد الحبيب بن بُو بَك أن يخرجوا أفرادا وجماعات ، واندس عشرون منهم فى يافع (الغرباء) أثناء انسحاب هؤلاء ولجأ جماعة منهم إلى حصن الحد ليدافعوا إلى آخر رمق فى حياتهم ، واستمر عبد الحبيب يحثهم على الانسحاب فلم يجيبوه فتركهم وشأنهم ، وخرج هو وولداه حسين وسالم وعمر ابن سالم بن حسين بن يحيي عمر وولده ثم لحقهم جابر بن صالح بن ناصر بن نقيب واثنان من العبيد فقابلهم جماعة مسلحة من العوامر بالجبل وقتلوا جابر بن صالح وعبداً وأسروا العبد الثانى ودخلوا به إلى سَيْوُن ، واستمرت البقية من يافع (التُّلُد) فى حصن الحد يدافعون بأقصى مالديهم من بطولة وقوة ، وأشار عبد الله بن عمر ابن يحيي باعلوى بحرق الحصن بمن فيه من يافع ولكن آل كثير رفضوا ، ولما نفدت ذخائرهم وكادوا يموتون جوعا وعطشا عرض قائد الحامية وهو البطل صالح على بُوبَك بن على الحاج على الأمير على بن أحمد الكثيرى التسليم على أن يكون لهم حق الإقامة فى سَيْوُن أو العودة إلى القَطْن . وأخيرا اتفق الفريقان على أن يبقى جماعة من يافع رهائن لدى السلطان عبد الله بن محسن الكثيرى بتريم وخرج الرهائن من سَيْوُن وفيهم سعيد عوض المَرْفَدِي وسالم سعيد المصلِّي وعبد الحبيب بن أحمد صالح وصالح بن سالم بن حسين وعبد الله بن محسن بن غالب ابن يحيي عمر وغيرهم فى يوم السبت ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٢٦٥ وباتوا فى منزل آل عبد الغفار باكثير فى السحيل ، وانسحب الباقون صباح يوم الأحد ماعدا عبيد آل غرامة فقد أسروا ، وأرادت الدولة الكثيرية أن تعتقل آل محمد سعيد الجحوشى وتصادر أموالهم ولكن المصلحين توسطوا فى الأمر على أن تجليهم الدولة الكثيرية من سَيْوُن ويأخذوا معهم ما يستطيعون حمله من ممتلكاتهم ، وهكذا جلا يافع عن سيون بعد أن حكموها نحو سبعين يوما ، ولم يبق بها أحد منهم سوى على ابن أحمد هَرهَرَة .

إطلاق سراح بعض يافع

كان لقبول يافع (الغرباء) الانسحاب من سَيْوُن ليلة الجمعة ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٦٥ وقع حسن فى نفوس آل كثير ولذلك أطلق السلطان عبد الله بن محسن الكثيرى سراح من أسر منهم فى وقعة المحترقة وأبقى فى الأسر يافع (التُّلُد) لأنهم رفضوا الانسحاب .

وأمر السلطان بقتل عبيد آل غرامة الذين كانوا فى حصن الحد وعبيد القعيطى وآل عبد الهادى البالغ عددهم واحدا وعشرين نفسا .

ويقول ابن حميد إن أربعة من يافع تمكنوا من الفرار من السجن بعد أن حطموا القيود ؛ وهم : بُو بَك بن عبد الحبيب سلك طريق يَثْمِة ، ولكن بعض آل كثير أدركوه فى وادى شحوح وقتلوه وجزوا رأسه ودخلوا بها إلى سَيوُن . والثانى غالب بن سعيد بن عبد الهادى . والثالث من بنى أرض ، وقد نجاهما الله من الأسر والموت والرابع وهو الرباكى ولكن ألقى عليه القبض وقتل .

أما كيف استطاعوا تحطيم قيودهم ؛ فقد قيل إن بعض محبيهم أدخل بضعة مبارد إلى السجن داخل أقراص من الخبز قطعوا بها قيوهم وقتلوا الحارسين وهما من عبيد آل كثير وخرجوا من السجن ونجوا إلا واحدا أدركه الناس فى يثمِة وأحضروه إلى الأمير عبود بن سالم الكثيرى الذى أعجب بصراحته و بسالته حين سأله عن قاتلى الحارسين ، فقد حقن الأمير دمه حين اعترف بأنه واحد منهم .

بين آل كثير وآل تميم

لقد كان لوقوع بلاد آل تميم على حدود الدولة الكثيرية سبب لإثارة الخلاف والنزاع بين آل تميم وآل كثير وقام بعضهم باعتداءات متتالية على أراضى تميم ولما شعروا بالضغط الشديد عليهم أرسلوا وفدا منهم وعلى رأسه محمد بن سعيد

ابن شملان إلى الشحر والمكلا لطلب النجدة من ابن بريك والكسادى اليافعى ، وخاف آل كثير من وصول النجدة ، وخافوا من التطويق من الغرب والشمال الشرقى وأن يقعوا بين طرفى الكماشة ، ولم يجهل الأمير عبود بن سالم الكثيرى هذا الخطر وهو المعروف ببعد النظر وقوة الإدراك وصواب الرأى .

لذلك حشد فى سَيْوُن كثيراً من قبائله ومن العوامر وآل باجرى . وفى محرم سنة ١٢٦٧ سار عبود بن سالم بقواته واخترق المعجاز فى طريقه إلى تريم وهاجم آل تميم على غرة واستولى على كثير من ديارهم وأموالهم وقتل عددا كبيرا منهم .

ولما علم يافع أن آل كثير هزموا آل تميم أرسلوا حملة من يافع والعبيد وصلت السَّهْلَة وباغلال فى اليوم السادس من صفر سنة ١٢٦٧ واشتبك الفريقان فى معركة عنيفة ، وعلى الرغم من قلة عدد يافع فقد ثبتوا فى مراكزهم وأبلوا بلاء حسنا فى القتال والنضال حتى أرغموا آل كثير على الارتداد إلى مسيلة آل الشيخ ، وأخذ يافع وآل تميم يطاردونهم حتى دخلوا ديار آل طاهر واحتلوا حصون الوَهَد وابن صَبْرَة وغيرها ، واستولوا على مافيها من المؤن والذخائر ، واستمر الفريقان فى مناوشات إلى أن عقد الصلح سنة ١٢٧٤ لمدة أربع سنوات وقّع عليه السلطان غالب بن محسن الكثيرى والمقدم أحمد بن عبد الله بن يمانى التميمى .

معاهدة صداقة بين القعيطى وآل عبد العزيز

بعد أن احتلت القوات القعيطية حصون سهالة والقاهرة وغرفة بَشِير وهى أشبه بجيوب خطرة فى طريق من يريد احتلال شِبَام ، عقد القعيطى مع آل عبد العزيز معاهدة صداقة وولاء سنة ١٢٦٥ ، وآل عبد العزيز من العشائر الكثيرية يسكنون القارة على مقربة من شبام .

ولعل الذى حملهم وحمل آل بَلَظْرَاف سكان السِّحِيل على معاهدة يافع جور

السلطان منصور بن عمر الـكثيرى والى شبام وسوء معاملته لهم و إلا فبماذا نعلل انضمام عشيرتين من آل كثير إلى يافع لمحاربة آل كثير ؟ .

عقد القعيطى هذه المعاهدة لغرضين محاصرة شِبَام والهجوم عليها ، ولئن دلت على شىء فإنما تدل على دهاء الأمير عوض بن عمر القعيطى وسرعة انتهازه للفرص وحسن تصرفه فى المواقف الجديدة ، ولقد أظهر يافع نحوهم من الصداقة والحب شيئا كثيرا، وأصبح القعيطى يعاملهم كما يعامل يافع ويثق بهم إلى حد بعيد ، فقد سلمهم قيادة القوات التى هاجمت سَيْوُن وكانت هذه القوات مكونة من يافع وآل عبد العزيز وآل بَلَّظْراف وقبيلتى ذى محمد وذى حسين من قبائل القِبْـلَة ، وكادت تنجح فى الاستيلاء على سَيْوُن لولا تدخل أصحاب النفوذ من آل كثير وغيرهم لضم قبائل الْقِبْلَة إليهم بالعطايا السخية التى أثقلت كاهل دولة آل عبد الله .

نكث آل عبد العزيز المعاهدة

لم يقف عبود بن سالم وعبد الله بن محسن وغيرهما من قادة آل كثير مكتوفى الأيدى أمام معاهدة يافع مع آل عبد العزيز وآل بَلَّظْراف ، وليس انسلاخ القارة والسِّحِيل من المنطقة الـكثيرية إلا خطوة للوثب على شِبَام فهما من أقوى المعاقل التى تقف فى طريق الغزاة ، فلا غرو إذا هبّ قادة آل كثير يبذلون أقصى جهودهم لنقض المعاهدة وضم آل عبد العزيز وآل بَلَّظْراف إليه مستعينين فى ذلك بالمال ونفوذ بعض ذوى السلطة الروحية ، ولقد نجحوا كل النجاح ، فقد انضم آل عبد العزيز وآل بَلَّظْرَاف إلى قبيلتهم آل كثير وأعلنوا الحرب على يافع وقادوا جيش آل عبد الله واشتبكوا مع يافع فى معارك عنيفة انتهت باندحار قوات يافع ومقتل قائدها صالح عمر عبد الله بن على الحاج .

رفع الحصار عن شبام

وليس من شك أن استرداد آل كثير للسحيل والقارة قوّى مركز شِبَام وجعل حصارها أمرا مستحيلا لوقوع المنطقتين حائلا دون وصول المؤن والذخائر إلى المحاصرين الذين أصبحوا مهددين بالفناء ، لذلك انسحب المحاصرون إلى العقاد .

مساعى بعض ذوى السلطة الروحية ضد يافع

ومن هؤلاء إسحاق بن يحيى ومحسن بن علوى السقاف وصالح بن على الحامد وحسن بن صالح البحر وعبد الله بن حسين بن طاهر وعلوى بن سقاف بن محمد الجفرى وغيرهم ، فقد بذلوا أقصى جهودهم لحشد القبائل وضمها إلى آل كثير ضد يافع مستغلين فى ذلك نفوذهم الروحى ؛ ومع أن معظم مساعيهم كانت تذهب جفاء فإن اليأس لم يتطرق إلى نفوسهم ولم يقلل من نشاطهم البتة ، وعلى رأس هؤلاء إسحاق ابن يحيى الذى له القدح المعلى فى هذه المساعى ، ويليه حسين بن صالح البحر الذى كان يجمع الشخصيات الكبيرة فى سَيْوُن لتدبير المؤامرات ضد اليافعيين ، ومما تجب الإشارة إليه أن معظم آل الشيخ أبى بكر رفضوا دعوة حسن البحر وامتنعوا عن القيام بأى عمل ضد يافع . وهذا الفضل يجب أن يسجله التاريخ لهم .

ذهب إسحاق بن يحيى إلى الحجاز سنة ١٢٦٩ وقيل سنة ١٢٦٥ واستطاع بقوة شخصيته و بما لديه من الأموال التى جمعها من آل كثير أن يجهز ٧٠٠ مقاتل من الأتراك والحجازيين وأن يسافر بهم فى ثلاث مراكب لغزو المكلا والشحر وطرد يافع وآل بريك ، وقبيل قيامه كتب لآل كثير ليحاصروا الشحر برًّا ، واستطاع عبود بن سالم أن يحشد كثيرا من قبائل آل كثير والعوامر والمغارة وآل باجرى وسار بهم نحو الشحر ورابط فى مرير استعداداً لمهاجمة الشحر من البر حين يأتى إسحاق بجنوده من البحر .

لماذا قام ذوو السلطة الروحية ضد يافع ؟

قال بعضهم : إن جماعة من يافع استغلوا سلطتهم فى سيون وتريم فظلموا وجاروا وطغوا و بغوا ، فإذا كان هذا صحيحا فإنه أمر طبيعى يحدث فى كل بلاد العالم حين تتعدد السلطات وتتضارب الرغبات و يزداد التنافس على الحكم والسلطان .

ولعل ذوى السلطة الروحية إنما قاموا بتلك المؤامرات لاحبا فى آل كثير وقد انهارت سلطتهم ولا كراهية ليافع لأنهم يافع ولكنهم إنما يريدون إزالة ما قد حدث من الظلم من بعض اليافعيين فى سيون وتريم ، فإذا كان هذا صحيحا فهم معذورون بل هم مشكورون على ذلك . وقد جاء فى الحديث الشريف : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

ولكن لماذا سكتوا سكوتا عميقا حين جار السلطان عمر بن جعفر الكثيرى فى شبام وفرض الضرائب الفادحة وألقى القبض على أحمد بن الجنيد باعلوى وسجنه لالجرم اقترفه ولكن لأنه لم يجب السلطان أطلباته المرهقة لعجزه وفقره ؟ : لماذا التزموا الصمت الطويل حين قام السلطان منصور الكثيرى بمذبحة المساجد وهدم حصن معمر على النساء والأطفال ؟ لماذا لم يحاربوا الظلم والطغيان فيوقفوا السلطان منصور عند حده أو يرشدوه إلى الحق والعدل ؟ .

بل وجدنا بعضهم كعبد الله بن عمر بن يحيى أرسل للسلطان منصور خطابا بتاريخ ١٠ شوال سنة ١٢٦٠ استحسن فيه ما فعله فى يافع .

أما إسحاق بن يحيى فلا شك أنه إنما بذل أقصى مجهوده للوصول إلى الحكم ولسوء حظه كانت الظروف تعاكسه ، ولذا كان نصيبه الفشل على الدوام .

نشاط يافع

وعلم اليافعيون بزحف الجيش الـكثيرى وتكتله فى مريز لمحاصرة الشحر ، فأرسلوا إلى أمير المكلا النقيب صـــلاح بن محمد الـكسادى وأمير الشحر على بن ناجى ابن بريك ليقاوما كل غزو ويثبتا فى مراكزهما مهما كلفهم ذلك من تضحيات ، وأمدوهما بأربعمائة مقاتل من يافع تحت قيادة سعيد بن حسين بن على الحاج اليافعى ، وانضم إليهم جماعة من آل تميم وعلى رأسهم محمد بن سعيد بن سملان .

محاولة يافع احتلال شبام

لم يضعف نشاط يافع حول احتلال شِبَام ، ولم يدب اليأس إلى قلوبهم حين فشلوا فى الاستيلاء عليها لخيانة آل عبد العزيز ، فقد استمرت أنظارهم متجهة إليها وآمالهم منصبة نحوها لجعلها قاعدة لدولتهم الجديدة ومركزا لقيادتهم وأعمالهم وهى بلا شك أحسن موقع لتوجيه الضربات لآل كثير . وتمهيداً لذلك عقد القعيطى معاهدة صداقة بينه وبين آل هُضِيل سَكان الظاهرة التى تقع على مقربة من شِبَام وذلك يوم ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٧٠ ؛ وآل هضيل فخذ من آل كثير عاهدوا القعيطى على أن يبقوا على الحياد ويسمحوا ليافع بالمرور لمحاصرة شبام والهجوم عليها لاحتلالها ، وقبل ذلك أى فى شعبان سنة ١٢٧٠ عقد القعيطى مع ابن يمانى التميمى معاهدة عسكرية .

أرسل القعيطى حملة من يافع وهجموا على شبام ودخلوها من الشمال واحتلوا الشويرع ، وهناك دارت بين يافع وآل كثير معارك بالبنادق والسلاح الأبيض ، ولمـا علم العوامر وآل باجرى نبأ تلك المعارك جاءوا لنجدة السلطان منصور بن عمر الـكثيرى ، واستطاع السلطان منصور أن يؤثر فى آل هضيل حلفاء يافع ويشترى ضمائرهم بالمال ؛ فقد نقضوا العهد وانضموا إلى منصور وحاربوا وطعنوا يافع من الوراء ،

واستمر القتال والمناوشات بين الفريقين نحو ثمانية شهور ، توقفت فى خلالها حركة التجارة فى شِبَام ودبت الفوضى فيها وانتشر التذمر بين التجار الأمر الذى دفع بعضهم لمساعدة منصور بالمال لتحريض آل هضيل على تمزيق المحالفة بينهم و بين يافع ، ولم يكن ذلك حبا من الشباميين فى آل كثير أو كرها ليافع ، ولكن توقف مصالحهم التجارية وانقطاع مواصلاتهم بالخارج وتعرض أموالهم وممتلكاتهم للخسائر والأضرار، كل ذلك دفع بعضهم لمساعدة منصور حين رأوا رجحان كفته .

استسلام حامية الظاهرة

عند ما نقض آل هُضَيل عهدهم غادر معظمهم الظاهرة وانضموا إلى جيش منصور، ولم يبق فيها من حاميتها سوى عشرين من يافع ومنهم عبد الله بن صالح سعيد التوم الرضى و يحيى عمر ، وفيهم أيضا عمر باعطوة الشاعر الحمينى وأحمد عمر بن طاهر .

وفى ليلة ظلماء هجم عليهم كثير من قوات السلطان منصور وعلى رأسهم آل هُضيل و بالرغم من قلة عدد الحامية دافعت دفاعا مجيداً حتى إذا انتهى ماعندها من الذخيرة استسلمت على أن يعود كل منها إلى أهله فى القطن ، ولكنّ آل كثير لم ينفذوا شروط التسليم ، فقد أخذوهم وزجوهم فى سجن بير التل بِشِبَام ماعدا اثنين من آل على جابر ، فقد توسط سالمين بن عبد الله بن طالب فى إعادتهما إلى أهلهما .

انسحاب يافع من شبام

لاشك أن سقوط الظاهرة ضربة قاصمة على يافع لأنها من أهم القواعد الحربية لشبام ، وقبل ذلك سقطت حصون آل مَهْرِى وآل بَلظَّرَاف وتارة آل عبدالعزيز ؛ فيافع داخل شِبَام أصبحوا محاصرين من جميع الجهات ولا يمكن بأى حال وصول مدد إليهم لاسيما بعد سقوط الظاهرة ، ولم يكن يافع يتوقعون أن تأخذ حرب شبام وقتا طويلا وتتطور هذا التطور الغريب ، فقد اندفعت قبائل آل كثير كالسيل

الجارف للدفاع عن شبام ، ولم يتوقع يافع أن ينكث آل هضيل عهدهم و يطعنوهم من الخلف ، هكذا قضى على يافع أن ينسحبوا من المعركة و يتراجعوا إلى قواعدهم الأولى ، وقد لحق بهم بعض الأسر الشبامية كالأشعيب وآل بلْربعية وغيرهم فراراً من متاعب الحياة فى ظل السلطان منصور .

موقعة المكلا البحرية

وفى ليلة حالكة الظلام وصل إسحٰق بقواته فى بضع سفن إلى ميناء المكلا ولم يدر بخلده أن النقيب الكسادى على أتم استعداد لدحرهم و إصلائهم ناراً ، فقد كان النقيب يقظا حازما باسلا ؛ فعند ماعلم بوصول سفن الأعداء أصدر أمره إلى حماة المدينة ليدحروهم و ينزلوا بهم شر هزيمة ، وانطلق الحماة من يافع والمماليك فى عشرات القوارب وأحاطوا بالأعداء فبهت إسحاق وقومه وانتشر الذعر بينهم وكانت بعض حصون المكلا تطلق عليهم قذائفها فى شدة وعنف فانسحب المهاجمون ولاذوا بالفرار واتجهوا نحو الشحر للهجوم عليها ولكنهم لم يستطيعوا أن يرسوا بمراكبهم فى الميناء لضحولته ولهيجان البحر وهبوب العواصف ، وأخذت مدافعهم تطلق قذائفها على المدينة ولم يفلحوا فى إصابة الأهداف لبعد المسافة ؛ ولم تقع خسائر فى الأرواح والأموال، وأخيراً بعد أن نفدت أو كادت تنفد ذخائر إسحاق بن يحيى أبحر بسفنه مخذولا مهزوما ، وهكذا فشل إسحاق فى أعظم محاولة للقضاء على يافع ، ولم يكن هذا الفشل لضعف تفكيره وقصر نظره ؛ فهو على جانب كبير من الذكاء والنشاط وقوة الشخصية و بعد النظر ولكنه سيىء الحظ ، و يظهر أنه لم يحسن إدارته العسكرية و إن كان ذكيا نبيها نشيطا فصيح اللسان قوى الحجة ولكنه لم يكن قائداً حربياً ، وكان يمكن أن يصيب شيئا من الظفر والنصر لو لم يظهر يافع من الشجاعة والبسالة الشيء الكثير ولو لم يستميتوا فى الدفاع عن كل شبر من أراضيهم بكل قوة وعنف .

أما الأمير عبود بن سالم الكثيرى القابع بجيشه فى مريمة فقد تلقى إنذارا شديد

اللهجة من أمير المكلا النقيب صلاح الـكسادى اليافعى ، وخاف بعض رجاله عاقبة الإنذار فانسحبوا ؛ ومن هؤلاء : محسن بن علوى السقاف الصافى وعلوى بن سقاف ابن محمد الجفرى وأحمد بن زين بن سميط وأبو بكر بن محمد بن أحمد بن زين الحبشى وشيخ بن عبد الله بن زين الحبشى وعبد الرحمن بن علوى السقاف وعبد الله ابن حسين بن شهاب وعلى بن حسن بن حسين الحـــداد وعبد القادر بن حسن ابن صالح البحر ومحمد بن محمد بن هاشم الحبشى .

ولم يرضخ عبود بن سالم لإنذار الـكسادى فثبت بجيشه فى مريمر حتى إذا أرسل الـكسادى مددا من يافع للأمير على بن ناجى بن بريك والى الشحر ثارت الحرب بين الفريقين ، وكانت معركة عنيفة أبلى فيها يافع بلاء حسنا ، وانهزم جيش عبود على الرغم من كثرة عَدده وعُدده وعاد إلى سيون .

مناوشات

فى سنة ١٢٦٩ هجم يافع وآل تميم على حصون الوهْد وابن صَبْرة الواقعة شرق المسيلة واحتلوها وغنموا أسلحة من عبيد آل عبد الله وأسروا أربعة منهم فتحمس آل كثير وأرسلوا قواتهم على ثلاث دفعات: إحداها تحت قيادة عبود بن سالم والثانية برياسة على بن أحمد الـكثيرى ، والثالثة بقيادة عبد الله بن صالح الـكثيرى وهجموا على حصون آل تميم الواقعة بين حصن ابن فلْوقة وحصن بَلفَيْث واحتلوها عنوة وأسروا ثمـانية من حماتها .

وجاء جماعة من آل تميم ومعهم مائتا مقاتل من المناهيل ورابطوا شرق تَرِيم وقطعوا المواصلات و بنوا حصونا على مقربة من مَضْلَعَة ابن سهل ورابطوا فيها ؛ ولما علم آل كثير ساروا إليهم بقوم من العوامر وآل باجرى ، واشتبك الفريقان فى معركة عنيفة انتهت باندحار آل تميم .

قدوم السلطان غالب بن محسن الكثيرى

فى صفر سنة ١٢٧٢ جاء السلطان غالب بن محسن من حيدر أباد إلى سَيْؤُن ، وهو من أعظم الشخصيات الذين بذلوا كل مرتخص وثمين فى تكوين الدولة الكثيرية الفتية ، وقام بدور كبير فى الصراع الذى كان قائما بين يافع وآل كثير : وكانت حيدر أباد مهجره الوحيد وفيها ساعده الحظ فأثرى وسطع نجمه وعلا اسمه وأصبح من الرجال البارزين ؛ على أن مركزه كان دون مركز الجمعدار عمر بن عوض القعيطى ، ولذا قام التنافس بين هذين البطلين ، وتطور هذا التنافس إلى لون آخر إلى التعصب القومى حين اشتد الصراع فى حضرموت بين يافع وآل كثير، فقد نشط غالب بن محسن فى نشر الدعاية ضد القعيطى وأخذ يهدده بالانتقام من أولاده ومن يافع بحضرموت ، ولكن القعيطى كان أقوى منه نفوذا وجاها وأكثر منه مالا ودهاء ، فلم تؤثر فيه مساعى غالب ولم تلحق به أدنى ضرر ، ولما شعر بالفشل والخذلان قفل راجعا إلى حضرموت حاملا معه أموالا كثيراً ، وقيل إن ملك حيدر أباد خشى قيام الفتنة بين العرب عند ما اشتد النزاع والصراع بين البطلين فأصدر أمره بترحيل غالب عن ولايته .

القعيطى والخالدى

فى شهر محرم سنة ١٢٧٣ عقدت اتفاقية عسكرية بين القعيطى والخالدى ، وتدل هذه المعاهدة على نشاط فكر القعيطى و بعد نظره ، فالخالدى زعيم تخضع له قبائل قوية الشكيمة شديدة البأس ، وليست حاجة القعيطى شديدة إلى تجنيد هذه القبائل فلديه قبائل يافع طوع أمره ورهن إشارته ولكنه خشى أن يسبقه الكثيرى فيتفق مع الخالدى ضده .

وهذه هى المعاهدة كما نقلها السيد على بن عوض بانعيمون من مكتبة المرحوم

صاحب السمو الأمير على بن صلاح القعيطى : « الحمد لله — لما كان يوم الاثنين لسبعة أيام خلت من شهر محرم الحرام إلى يوم عاشوراء سنة ثلاث وسبعين بعد المائتين والألف شاهد كريم بيد محمد وعبد الله وعلى أبناء عمر بن عوض بن عبد الله القعيطى على الشريف عبد الرحمن بن محسن الخالدى بأنه قبض وتسلم مائتين وخمسين قرشا الذى جعلها له محمد وعبدالله وعلى المذكورون وشل، واحتمل الشريف عبد الرحمن بن محسن المذكور لمحمد وعبد الله وعلى المذكورين بأنه يوافقهم ويكون تحت إمارتهم و إشارتهم وخدمتهم من قرب ومن بعد من حال التاريخ إلى آخر شهر ربيع الثانى فى السنة المذكورة وليس له فى قبل ماصدرت منه من خدمة ونفاعة إلا ماذكرت أعلاه وصارت مقبوضة بيده ؛ وأيضا حال تاريخه بايسير إلى جبل يافع و بيده وُثور مكتوبة يعتمدها إذا وافق مافى الوثور عند أهل جبل يافع يرفع بها مكاتب إلى عند محمد وعبد الله وعلى وما عرفوه فى الجواب يعتمده ، وكان المقصود بعد مضى الأربعة الأشهر المذكورة ، وأيضا شلو وتحمل محمد وعبد الله المذكورين للشريف عبد الرحمن المذكور بأن يدفع لأهل جبل يافع إلى غاية ثمانمائة قرش على أن يوافقوا على مافى الوثور ، فإذا وافقو وجعل لهم الشريف عبد الرحمن وما جعله إلى غاية الثمان المائة القرش ، فعند ما يخرجون بالقوامة ولم يحصل تكشيف ووافقوا بالتاريخ من الغد أن يسلم محمد وعبد الله وعلى للشريف عبد الرحمن المذكور الثمان المائة القرش وإن كانت دون ذلك فيسلمون إلى غاية الثمان المائة القرش، جرى ذلك والله رقيب صحيح ذلك وقاله الشريف عبد الرحمن بن محسن الخالدى » .

ووجدت فى أعلى الاتفاقية ختما على شكل دائرة مكتوب داخل محيطها « الواثق بالله القوى الشريف عبد الرحمن محسن علوى سنة ١٢٦٨ » .

الأمير القعيطى يقود جيشا

جهز الأمير عوض بن عمر القعيطى اليافعى ٦٠٠ مقاتل يافعى وأمدهم بكل مايحتاجون إليه من المؤن والذخائر وتولى بنفسه قيادتهم وسار بهم نحو شِبَام فى يوم ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٧٤؛ ولما وصلوا الموزَع (الخزان) بدأت المناوشات بينهم و بين آل كثير ، وكان حصن السعيدية المنيع يقف حائلا دون هجوم يافع على شِبَام؛ فقد حصنه السلطان منصور بن عمر الكثيرى بأربعين مقاتل من عبيده وجعل عليهم مبارك العريان بن عبد العزيز الكثيرى ، ويقول باعباد إن مبارك العريان حين شعر بقوة يافع المعنوية واستماتتهم فى الهجوم فكر فى تسليم الحصن مقابل مبلغ من المال ، وفى ليلة حالكة الظلام انسل من الحصن وذهب رأساً إلى مركز قيادة يافع وقابل الأمير عوض واتفق معه على أن يمهد له الاستيلاء على الحصن مقابل ٥٠٠ ريال ، وعاد مبارك إلى الحصن وحين استولى النوم على جنوده صعد إلى السطح وأشعل ناراً فتقدم ثلاثون من يافع ونقبوا جدار الحصن ودخلوه فبهت الحماة وقامت معركة عنيفة بالسلاح الأبيض واحتل يافع الحصن وأسروا عدداً من رجاله ، وهكذا سقط فى يد يافع حصن منيع . أما خطوط دفاع آل كثير فى بَزْرَق والركز فقد دكتها مدافع القعيطى الثقيلة وغادرها المدافعون بعد أن اشتبكوا مع يافع بالسلاح الأبيض تاركين وراءهم عددا كبيرا من القتلى والجرحى .

الصلح بين الفريقين

لاشك أن سقوط السعيدية ودك خطوط الدفاع فى بَزْرَق والركز جعل مدينة شِبَام تحت رحمة يافع ، ولقد بذل السلطان منصور كل مافى وسعه لجلب الإمدادات ولكن من غير جدوى فقد خذله قومه آل كثير ، ويقول السيد ابن عبيد الله السقاف إن السلطان منصور انسلّ فى أثناء حصار يافع لشبام وذهب إلى سَيْوُن

وكان بها السلطان غالب بن محسن الكثيرى وشكا حاله إليه وقال له « أعطونى بلاداً من بلدانكم وأسلم لكم شبام ، فقال له عبود بن سالم الكثيرى نعطيك مريمة أو تريس ، فاغتاظ السلطان منصور وقال أتعطونى الأتان من بعد الفرس ، لأحفرنّ لكم حفرة لاتنجون منها أبداً، وعاد إلى شبام وشرع يفاوض الأمير القعيطى بواسطة آل سميط، وأخيراً باع له النصف الغربى لِشِبَام ودخلت جموع يافع شِبَام يوم الخميس ٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٤ ؛ وفى يوم الجمعة من الشهر المذكور جاء السلطان عوض بن عمر القعيطى وتسلم نصف شبام .

جلاء يافع عن غيل بن يمين

عند ماقوى مركز الشناظير ؛ وهم فخذ من يافع وتوطدت دعائم سلطتهم فى غيل ابن يمين خاف الحموم أن يؤدى ذلك إلى القضاء على سلطتهم فأخذوا يفكرون فى زحزحة يافع من غيل بن يمين ، وانتهز آل كثير الفرصة وحرّضوا قبائل الحموم على التمرد والقيام ضد يافع و إخراجهم من ديارهم عنوة وأمدوهم بسلاح ومقاتلين من آل جابر والعوامر .

وهجم الحموم وأنصارهم على يافع وأحاطوا بهم من كل جانب واستمر يافع يناضلون و يكافحون أربعين يوما، ولما نفد الماء والزاد والذخيرة سلموا حصونهم إلى آل كثير فى رجب سنة ١٢٧٥ ؛ وانسحبوا بأسرهم إلى القَطْن بعد أن جردوا من كل أملاكهم .

وقعة « الحصاة »

والحصاة حصن شاهق كان مقرا لعبود بن محمد زعيم آل حرير الجعديين ، كان هذا الزعيم يتحدى القعيطى ويجاهر بالعداء لكل يافعى وكان حصنه وكرا لآل كثير يلجئون إليه بعد شن غاراتهم على يافع ، ولقد تضرر يافع من هذا الحصن

ولحقت بهم أضرار فادحة ، لذلك أرسل الأمير عبد الله بن عمر بن عوض القعيطى جماعة من يافع وأمرهم ألا يعودوا إلا بعد احتلال الحصن وإبادة من فيه من المقاتلين أو أسرهم .

وفى ليلة حالكة الظلام هجم يافع على الحصن ولم يكن حماته يتوقعون هذا الهجوم فوثب بعضهم من الشبابيك حذر الموت وقتل نجل الزعيم وأسر البعض ، كان ذلك ليلة ٢٥ رمضان سنة ١٢٧٦ و بعد الاستيلاء على هذا الحصن أمنت الطرق بين بلدان القَطَن وشبام وعاد السلام .

الشريف حسين

يقول باعباد فى كتابه المخطوط: إن القعيطى حين أزمع وأجمع على احتلال شبام أرسل الشريف حسين إلى والده أمير الجوف الشريف عبد الرحمن الخالدى ليمده بألف جندى وتعهد له بدفع جميع التكاليف و بمنحه المكافأة التى يستحقها ، ولكن الشريف عبد الرحمن لم يرسل المدد فى الميعاد الذى ضرب له .

وهجم القعيطى على شبَام واتفق مع منصور على أن يتنازل له عن نصفها ، وجاء بعد ذلك الشريف عبد الرحمن الخالدى بألف جندى وفيهم مائتا فارس ونصب خيامه فى المِشْحَرَة، فخرج إليهم الأمير عوض فى جماعة من كبار يافع منهم سالم بن على بن هرهرة وعبد الله مانع بن على جابر وعمر عبد الله بو بك ، وتكلم السيد عمر بن محمد الهدار فقال للشريف حسين « لقد وصلتم فأهلا وسهلا بقدومكم ولكنكم جئتم متأخرين والقعيطى على استعداد لدفع ٤٠٠ ريال لعودتكم إلى بلادكم » فرد الشريف عليه وقال صه صه ، كن سيد مسبحتك ولا تتكلم فى هذا الشأن فأجابه السيد الهدار ، سترى بعينيك آثار مسبحتى هذه ، سوف تسمع أخبارها بأذنيك وسوف تندم .

وطالب الشريف حسين الأمير القعيطى بمرتبات جنوده لسبعة أشهر وهدده

بالحرب إن لم يجبه إلى طلبه ، فقال له القعيطى إنى على استعداد للحرب إن أردتها وضرب الفريقان موعدا للقتال .

وأرسل الأمير القعيطى لحليفه فى شِبام السلطان منصور وجاء منصور بعبيده إلى القَطْن وانضم إلى يافع، وقامت المعركة بين الفريقين استعملت فيها الرماح والخناجر وتفرّق قوم الشريف شذرمذر تاركين وراءهم عشرات القتلى والجرحى ، هذه خلاصة ماذكره باعباد .

ويقول ابن عبيد الله: « فى رجب سنة ١٢٧٤ وصل الشريف عبد الرحمن بقوم من القبلة إلى العُرُوض ، وأرسل ابنه حسينا إلى القَطْن عند القعيطى ، وأرسل لآل عبد الله بِسَيْوُن كتابا يخبرهم فيه بقدومه ويقول لهم إن أردتم القوم على دراهم معلومة من أصلها ماقد تسلمه القوم منكم لقوت شهرين وإلا نخاطب يافع ، ولابد للقوم من دراهم يرجعون بها من حضرموت ، فأجابه السلطان غالب بن محسن الكثيرى إن أردتم القوت فنعم ، وأما المشاهرة فلا نقدر أن نجعل لكم شيئا مقررا ، وأما حسين بن عبد الرحمن فإنه لما وصل القَطْن صادف عندهم الزواج الذى سبق أن السلطان منصور حضره فحصلت منازعة بين الشريف حسين ويافع ، وقال حسين لابد أن أمر بخيلى ورجلى فى القطْن إلى سَيْوُن فقال له يافعى لن تستطيع أن تمر فى القطن ، فعاد الشريف مسرعا إلى العُرُوض وأخبر والده بما حدث بينه وبين اليافعى ، وفى يوم الأحد لعشر من رجب المذكور أغار الشريف بقومه على القَطْن وقتل الشريف حسين وفرسه وأخذت يافع سلاحه ولا يزال رمحه محفوظا إلى اليوم فى قصر المرحوم الأمير على بن صلاح القعيطى بالرّيْضَة ، وكان عدد الجرحى والقتلى كثيراً من الفريقين ، ومنهم مبارك العريان بن عبد العزيز الكثيرى وكان يحارب ببسالة فى صف يافع ضد الشريف ، ولقد دفن الشريف فى بَاطنَه آل بَلفَقيه .

وتتفق رواية الراحل الكريم الأمير على بن صلاح القعيطى مع قول باعباد

إلى حد بعيد ، يقول سمو الأمير وهو حجة فى التاريخ : إن مراسلات تبودلت بين الشريف عبد الرحمن الخالدى و بين السلطان منصور بن عمر الكثيرى ليأتى بجيشه إلى شِبَام على أن يمنحه مبلغا كبيرا من المال و يسبغ عليه نعمه وآلاءه ، وغرض السلطان منصور من ذلك أن يقضى على حلفائه يافع و ينفرد بحكم شِبَام ، ولقد وصل الشريف بقومه إلى العُرُوض ثم زحف إلى المِسْحَرَة وهناك أخذ يتحرش بيافع و يتحدى قوتهم بما يقوم به من النهب والسلب فى ضواحى القَطْن؛ وقيل إن ذلك كان باتفاق مع السلطان منصور ليضعف قوة يافع و يحدّ من نشاطهم ؛ ومن غرائب الصدف أن السلطان منصور جاء إلى القَطْن بدعوة من السلطان عوض ابن عمر القعيطى لحضور وليمة زواج ، وقيل إنه حضر إلى القَطْن قبل اشتباك الفريقين ليراقب تنفيذ مكايده ، وفى الوقت نفسه كان يتصل سراً بالشريف حسين و يرسم خططه ضد يافع ؛ ولما تقابل الفريقان ، ولحقت بقوم الشريف هزيمة منكرة تألم السلطان منصور وتحطمت آماله وعاد إلى شِبَام خائبا محسورا ، وقبل عودته أراد جماعة من يافع اغتياله ولكن الأمير محمد بن عمر القعيطى أبى أن يغدر بضيفه .

آخر مؤامرة للسلطان منصور

وأخيرا بعد أن خانه الحظ فى تدبير مكايده ومؤامرته فكر فى أن يقوم بمذبحة ثانية ليضمها إلى مذبحة المساجد ، فكر فى اغتيال السلطان عوض بن عمر القعيطى وكبار مستشاريه وأعوانه من يافع والعبيد، أمثال: عبد الله مانع بن على جابر اليافعى وسالم بن على بن هرهرة اليافعى وعمر عبد الله بو بك اليافعى والحاج ألماس وغيرهم اجتمع ببطانته فى قصره وشاورهم فى الأمر واتفقوا على أن يدعوا السلطان القعيطى وكبار رجاله لحضور حفلة ختان نجله ثم يغتالهم عن بكرة أبيهم ، ويقول باعباد إنهم وضعوا أكياسا من البارود على البساط المعد لجلوس المدعوين من يافع ، وشاء الله أن ينجو القعيطى وأعوانه من المكيدة الشنيعة التى دبرها لهم حليفهم منصور ،

فقد سمعت خادم عجوز كل مادار من حديث المؤامرة فى قصر منصور والخادم من تلك الأسر الفقيرة التى كان يواسيها السلطان عمر القعيطى بالمال و يعطف عليها كل العطف ، قابلت الماس عمر فى طريقها إلى قصر السلطان القعيطى وأخبرته بمؤامرة السلطان منصور الكثيرى ، فهرع الماس عمر إلى القعيطى ، ودهش القعيطى واعتراه الذهول لاخوفا من الموت فهو الباسل المقدام ولكن لأن محالفة قوية تربط السلطانين برباط الود والولاء ، ولم يحدث من يافع مايعكر صفو تلك الصداقة و يدفع بمنصور إلى الخيانة والغدر .

مقتل السلطان منصور

لقد تعددت مكايد منصور وتكررت مؤامراته ضد يافع وآخرها هذه المكيدة الشنيعة التى لو نفذت لغيرت مجرى التاريخ الحضرمى ، وليس من الحكمة ولا من الحلم التسامح واللين من جانب القعيطى فقد تكون الشدة أحيانا من الحلم وفى هذا يقول المتنبى :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه   إذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

لذلك رأى السلطان عوض وأعوانه من يافع أن يدعو السلطان منصور إلى مأدبة و يفتكوا به و ببطانته ، وتحرك السلطان منصور من قصره إلى قصر الخضراء وأجلسوه فى غرفة عليا وهناك ضربه أحد اليافعيين بالسيف فسقط جثة هامدة ، ثم قتلوا ابن عمه عبد الله بن على بن جعفر وأربعة من مماليكه وألقوا القبض على بقية آل عيسى بن بدر وعبيدهم وأجلوهم عن خَشَامِر وقرى القَطْن .

و يقول باعباد إن زوج السلطان منصور هرعت إلى قصر الخضراء حين علمت بمقتل زوجها وكان فى يدها سيف ، وعند مدخل القصر قابلت سالم بن على بن هرهرة وعبد الله مانع بن على جابر فهوت عليهم بالسيف وجرحتهما جرحا بسيطا وأخذا يقاومانها بشىء من اللين والرأفة ولكن لما تمادت فى غيها ضربها أحدهما بالسيف

فهوت نحو الأرض ميتة ، يالها من جرأة وشجاعة سيدة يافعية تحمل السيف لتقاتل به جماعة من يافع انتقاما لزوجها الكثيرى، إنها مثل أعلى للحب والإخلاص والوفاء.

وأراد جماعة من يافع قتل الأمير عمر بن السلطان منصور الكثيرى ولكن السلطان عوض منعهم ، وليس هذا فقط بل أحاطه برعايته وأكرمه كل الإكرام وقرر له مرتبا شهريا مدى حياته ، ولما رغب الأمير عمر فى السفر إلى أندونسيا زوده السلطان عوض بكل مايحتاج إليه خلال سفره ومنحه مبلغا كبيراً من المال .

انفرد السلطان عوض بن عمر القعيطى بحكم شِبَام وركز السلطة فى يده ولكن من غير استبداد فقد كان لايبتّ فى أمر إلا بعد أن يستشير أعوانه من يافع .

سحيل آل مهرى

احتل آل كثير جانبا من سِحِيل آل مَهْرِى بقيادة السلطان غالب بن محسن الكثيرى وقاوموا بكل قوتهم محاولات يافع لاستردادها، واستمرت تلك المحاولات أربع سنين استمات آل كثير فى خلالها فى الدفاع عن ذلك الجزء ، وكان هدفهم الأكبر تركيز قواتهم هناك للهجوم على المناطق المحتلة بيافع واستردادها ؛ ولما كان سِحِيل آل مَهْرِى من أعظم المواقع الاستراتيجية لِشِبَام ، فقد قام يافع بهجوم عنيف اضطر آل كثير أمامه للانسحاب من مراكزهم و بذلك تم ليافع احتلال السِحِيل،وكان عدد القتلى من يافع أربع منهم عبد الله بن صالح بن نقيب، وعدد الجرحى عشرة منهم جابر سعيد النقيب وحيدر عبد الله المرفدى . أما قتلى آل كثير فهم ١٢ وعدد الجرحى ٦ .

حصن المعيقاب

حين انسحب آل كثير من السِّحِيل تحصنوا فى حصن المعيقاب الواقع على مقربة من السحيل ولا تزال أنقاضه قائمة إلى اليوم ورأى يافع أن بقاء هذا الحصن

فى أيدى آل كثير خطر على السحيل بل وعلى شِبام ، لذلك عادت الحرب بين الفريقين ؛ وأخيرا عقد صلح بينهم بواسطة منصب آل الشيخ أبى بكر على أن يتنازل آل كثير عن سِحِيل آل مَهْرِى وحصن المعيقاب ليافع مقابل عشرة آلاف ريال ، وانسحب جميع آل كثير من السحيل وضواحيه فى يوم الأربعاء أول ربيع الأول سنة ١٢٨١ .

وفاة الماس عمر

مات الماس عمر فى جمادى الآخرة سنة ١٢٨١ فخسرت الدولة القعيطية رجلا وطنيا مخلصا ، لقد كان من مماليك الجمعدار عمر بن عوض وكان من أبرز الشخصيات وأبعدهم نظرا وأسرعهم إدراكا وأنشطهم تفكيرا وأكثرهم إخلاصا ، فلا غرو إذا أحبه القعيطى وقرّبه إليه واتخذه من كبار بطانته المخلصين .

وفاة عاهل الدولة القعيطية

فى يوم الأربعاء من صفر سنة ١٢٨٢ مات عاهل الدولة القعيطية ومنشئها الأول الجمعدار عمر بن عوض القعيطى اليافعى ، وافته المنية وهو فى حيدر أباد ودفن بها .

وحيدر أباد مهجر الحضارم بعد أندونسيا ، وأول من سافر إليها من الأسرة القعيطية المالكة عامر بن عوض وسافر بعده عبد الله بن عوض إلى تاجفور سنة ١٢٢٥ ؛ وقد انخرط عبدالله فى سلك جيش إحدى ولايات الهند وسرعان ماترقى إلى قائد على ثمانمائة جندى من العرب المجندين لما أبداه من الشجاعة والمهارة . أما عمر بن عوض قطب العائلة المالكة وعميدها ومؤسس دولتها فى حضرموت فقد سافر إلى الهند فى ربيع الأول سنة ١٢٢٨ .

ولد فى الحرم على مقربة من عَندَل ، ونشأ فى شبام . تعلم القراءة والكتابة فى صغره ودرس العلوم الدينية ، واشتهر بالذكاء وقوة الإدراك وبعد النظر ، وبالعطف على الفقراء والبائسين .

وعندما سافر إلى الهند ذهب إلى أخيه عبد الله فى تاجفور ولم يكن أخوه راضياً عن سفره . ومات عبد الله ولم يكن له وارث لأمواله سوى زوجه . واختار أمير تاجفور عمر بن عوض ليحل مكان أخيه الراحل . وقام عمر بوظيفته بنشاط وإخلاص عظيمين فأعجب به الأمير أيما إعجاب ، ثم تزوج أرملة أخيه فأحبته ووثقت به كل الثقة ووهبته كل ما تملك لما رأته فيه من الأمانة والصدق والإخلاص . واستطاع عمر بذكائه ونشاطه أن ينمى تركة أخيه وساعده الحظ فأثرى بصورة لم يكن يتوقعها من قبل .

وشاء الله أن تظهر بسالته وعبقريته فى فنون القتال . فقد هجم أحد أمراء الهند بجيشه على أمير تاجفور ، فنهض عمر بن عوض بجيشه العربى وانطلق كالأسد يدفع العدو دفعاً حتى أقصاه عن الحدود .

ومن ذلك الوقت عظم مقام عمر لدى أمير تاجفور ، وأكبر فيه بسالته وبطولته ومقدرته الحربية وقدّره كل تقدير . ولما مات أمير تاجفور انتهز العدو الفرصة فجاء بجيش عظيم يفوق جيش عمر عددا وعدة ، ورابط به فى الحدود وأرسل إنذاراً لعمر لينسحب بجيشه العربى من تاجفور ويترك البلاد لأبنائها الهنود ، على أن يمنحه كل مايطلبه من مال . وانسحب عمر تحت ضغط العدو وأخذ معه جيشه العربى وما استطاع حمله من المال وسافر إلى حيدر أباد ، وكان حاكمها قد سمع الشىء الكثير عن بطولة عمر ومقدرته الحربية ، فاستقبله بكل مايستحقه من الإجلال والتكريم ، وعرض عليه الانضمام إلى جيشه على أن يبقى قائدا للجيش الحضرمى .

وهكذا استقر الجمدار عمر فى حيدرأباد . وكان له من الأولاد خمسة وهم : صالح ومحمد وعلى وعبد الله وعوض ، وكلهم أشقاء ماعدا محمدا المولود من أمّ حبشية . وكان عوض أحب أبنائه وأقربهم إلى قلبه ، ولعل ذلك يرجع إلى ذكاء عوض ونباهته الممتازة وحسن تصرفه فى الأمور .

آل كثير يحتلون الشحر

أراد آل كثير الاستيلاء على الشحر، ليكون لهم ثغر يمكنهم من الاتصال بالخارج فدولة آل عبدالله الكثيرية محصورة فى داخل حضرموت وليس لها منفذ إلى البحر ولذا بذلوا أقصى مجهودهم للوصول إلى هذه الغاية ، و إذا كانت الظروف لم تساعدهم فيما مضى على احتلال الشحر لتفرقهم واختلاف كلمتهم فإن السلطان غالب بن محسن الكثيرى استطاع أن يهيىء الظروف بتوحيده صفوف قومه وجمع كلمتهم ولمّ شعثهم . فنى شهر رجب سنة ١٢٨٣ جهز جيشا للهجوم على الشحر، على أن بعض كبار رجال آل كثير ومنهم صالح بن سالمين بن مرعى بن طالب ، وعبد الله محمد الدقيدق ابن مرعى بن طالب لم يوافقوا السلطان غالب على ذلك نظرا للصداقة القوية القائمة بين أمير الشحر على ناجى بن بريك و بين آل عبد الله ، ولكن السلطان غالب أزمع على تنفيذ ما أراده . وكان فى إمكانه أن يعتمد محالفة صداقة بل محالفة عسكرية مع ابن بريك ، و بذلك يستطيع استغلال ميناء الشحر فى جلب الذخائر والمؤن من الخارج ؛ ولكن يظهر أنه رأى أن يهاجم الشحر ويحتلها خوفا من وقوعها فى يد القعيطى .

زحف جيش السلطان غالب إلى الشحر فى يوم الأحد سلخ جمادى الأولى من السنة المذكورة وقيل فى رجب سنة ١٢٨٤، وكان فى مقدمة الجيش عبود بن سالم الكثيرى، وعبد الله بن صالح بن مطلق الكثيرى وعايض بن سالمين بن طالب الكثيرى وهادى ابن سيف الذى تعهد بربع تكاليف الغزوة .

واستطاع الجيش الكثيرى أن يدخل الشحر بعد مقاومة ضئيلة من حماتها آل بو بك وعبيدهم الذين فوجئوا بالهجوم ، وكان عدد القتلى منهم أحد عشر ومن آل كثير خمسة، والجرحى من الفريقين كثيرون. واستطاع الأمير على بن بريك و بعض أعوانه الفرار بحرا إلى المكلا ؛ ولكن الأمير صلاح بن محمد الكسادى

لم يسمح له فى بادئ بدء بدخول المكلا إذ لم يطلب النجدة من يافع ولم يقاوم آل كثير طويلا ، وقيل إن جماعة توسطوا بين الأميرين فعفا الكسادى عنه وسمح له بالدخول .

صدى سقوط الشحر

كان لسقوط الشحر فى أيدى آل كثير أثر سئ فى نفوس يافع لما لها من الأهمية العظمى اقتصاديا وحربيا ، فهى الميناء الثانى لحضرموت ، وهى نقطة ارتكاز لاحتلال الحامى والديس وغيل باوزير ، ولكن لم يدب اليأس فى نفوسهم ولم تضعف روحهم المعنوية . على أنهم أرسلوا مائتى مقاتل لنجدة ابن بريك حين علموا بهجوم آل كثير عليه ، ولكن هذه النجدة وصلت بعد سقوط الشحر وأبى عمر عبد الله بوبك أن يزجّ برجاله ويلقى بهم إلى التهلكة فقصد إلى المكلا فاستقبلهم أميرها الكسادى وأنزلهم على الرحب والسعة .

هجوم آل كثير على المكلا

بعد أن احتلّ آل كثير الشحر طمعوا فى احتلال المكلا ثغر حضرموت الأكبر ليحاصروا اليافعيين بحرا ويقطعوا مواصلاتهم بالخارج . ففى أواخر رجب سنة ١٢٨٣ سار السلطان غالب بن محسن الكثيرى على رأس ألفى جندى من آل كثير وأنصارهم وهجم على الحرشيات ، وكان بها مائة جندى من جنود الأمير الكسادى ، والحرشيات أهم مراكز الدفاع للمكلا — وقد فوجئ حماتها بهجوم آل كثير ودافعوا بكل قوة وعنف وأظهروا من الشجاعة والبسالة شيئا كثيرا ، غير أنهم أخيرا اضطروا للانسحاب أمام جيش السلطان غالب وتحصنوا بحصن خازوق تاركين وراءهم عدداً كثيراً من القتلى ، ولما علم الأمير الكسادى بتقهقر جنوده أرسل مائتى جندى بقيادة عمر عبد الله بوبك الحداد القعيطى ليمكنوا حماة حصن خازوق من الثبات وليصدوا زحف آل كثير وقتا غير قصير ريثما يعد العدة الكاملة

لإقصائهم عن حدود إمارته ، واشتد القتال بين حماة خازوق و بين آل كثير ، واستمرت المعركة ثلاثة أيام أبلى فيها يافع بلاء حسنا وأظهروا من الشجاعة والبطولة ما حير عقل السلطان الكثيرى وقتل منهم اثنان وأر بعون وفى مقدمتهم عمر عبد الله بو بك اليافعى وعبد الله جابر الأحمدى اليافعى ومحمد صالح بن مدشل اليافعى ، وقتل من جيش السلطان الكثيرى مائة جندى منهم عبد الله بن صالح الكثيرى وسالم ابن منيف بن مجاج النهدى . واستمر آل كثير فى زحفهم إلى البقرين بعد أن هزموا يافع وأنزلوا بهم خسارة فادحة ، وتألم الأمير صلاح بن محمد الكسادى فاستدعى الشاعر الشعبى عمر بن محمد بن سعيد باعطوة وقد شاهد هزيمة يافع وسأله عما رآه فقال بعد أن وصف المعركة وأشاد ببطولة يافع وشجاعتهم :

على خازوق بارودنا بيت وظلا ونفقنا البضاعة وسلمنا المكلا

ولقد أشعل هذا البيت حماسة الأمير الكسادى ، فجمع كبار يافع فى المكلا وشاورهم فى الأمر ، وكان الشاعر عمر بن محمد باعطوة حاضرا ، واستقر رأيهم على الدفاع مهما كلفهم ذلك من التضحيات ؛ فسار الأمير الكسادى على رأس قواته ، وتقابل الفريقان فى البقرين واندفع يافع وعبيدهم بكل عنف وقوة فى هجومهم على جيش آل كثير، فانسحب هؤلاء إلى الحرشيات تاركين وراءهم عددا كبيرا من القتلى والجرحى ، وطاردهم الأمير الكسادى وأصلاهم نارا حامية ، ولم يقو السلطان غالب ابن محسن الكثيرى أمام هجمات يافع ولم يستطع الصمود فانسحب بجيشه إلى الشحر مهزوما مدحورا .

وفى هذا قال الشاعر عمر باعطوة :

أسلابنا زيدتهم من كيله عبرتكم فى السدة و إبليس حاوى ذيله

وذلك رداً على بيت قاله ابن المديد والعمودى حين استولى آل كثير على الحرشيات وهو : —

الشنفرى قدوشن عاق يسقى خيله وشن بغابا يدخن فى القابلة ياليله

وليس من شك أن هذه المعركة من أعظم المعارك الفاصلة ؛ فلو أن السلطان غالب انتصر على يافع واحتل المكلا لتغير مجرى تاريخ يافع بحضرموت ، لأن السلطان غالب حين عجز عن قهرهم داخل حضرموت أراد الاستيلاء على الثغور ليحاصرهم فى رقعة ضيقة ويمنع عنهم كل المؤن والذخائر .

هجوم يافع على الشحر

سرّ اليافعيون من استردادهم الحرشيات والبقرين و إقصاء آل كثير عن ضواحى المكلا و بلغ نبأ ذلك الانتصار إلى يافع بالقطن وشبام فابتهجوا ابتهاجا عظيما، ولا غرو فإن تاريخهم كاد ينقلب رأسا على عقب ؛ ولقد دفعهم النصر إلى التكتل والتجمع فى شبام وقرى القطن وإعداد العدة للهجوم على الشحر و إقصاء الغاصبين عنها . وأخيرا بعد أن استنجد الأمير عبد الله بن عمر القعيطى بأخيه الأمير عوض بحيدرأباد ، وبعد أن تبودلت الرسائل بينه و بين أمير المكلا صلاح بن محمد الكسادى سار من يافع القطن وشبام ثلاثمائة مقاتل وعلى رأسهم سالم بن على بن هرهرة وأحمد عامر الحضرمى وعبد الله عوض بن على القعيطى ، فاستقبلهم النقيب الكسادى بما يليق بهم من الحفاوة .

وفى ٢ رمضان سنة ١٣٨٣ وصل من الهند الأمير عوض بن عمر القعيطى و بصحبته ٢٠٠ يافعى من مهاجرى الهند و ٥٠٠ مقاتل من الرويلة الهنود وثلاث بواخر صغيرة وست سفن شراعية محملة بالذخائر والمؤن ومنها عشرون مدفعاً ، وكان وصول الأمير القعيطى بهذا المدد العظيم يوما مشهودا فى تاريخ المكلا ، فقد خرج الأهلون من منازلهم رجالا ونساء يستقبلون القادمين ووجوههم تطفح بالفرح والسرور ولاحديث لهم غير استعدادات يافع للهجوم ، وزاد فرحهم حين جاء فى ٢٦ رمضان من السنة المذكورة ١٥٠٠ يافعى مسلح من بلاد يافع وعلى رأسهم الحريبى أحد أبطال يافع المشهود لهم باصابة الرأى و بعد النظر . وفى شوال سنة ١٢٨٣ جاء من شِبَام الأمير

محمد بن عمر القعيطى و بمعيته ٢٠٠ مقاتل من يافع وآل تميم، وجاء أيضا الأمير منصر ابن حسين بن قملا حليف الدولة القعيطية و بصحبته ٥٠٠ مقاتل وفيهم مائة فارس، هكذا تكتلت جموع يافع وأنصارهم فى المكلا وأصبحت الدور والشوارع تعجّ بهم ولـكن كل شىء كان يبتسم فرحا وكان كل شخص يبدى للآخر كل ما يمكن من المساعدة والمعاونة ، وتعهد القعيطى والـكسادى على أن تكون ثلاثة أرباع تكاليف الحملة عليهما وربع على حسين صالح المصلى وسعيد بن حسين بن على الحاج وسعيد ابن على النقيب .

بعد أن جهز الجيش البالغ عدده ٤٠٠٠ مقاتل أحسن تجهيز تحرك فى طريقه إلى الشحر فى شهر ذى القعدة سنة ١٢٨٣ وضرب حصاره على المدينة، وعلم آل كثير بسيون مايحيق بقومهم فى الشحر وما يحيط بهم من الأخطار فأرسلوا قافلة محملة بالذخائر والمؤن يحرسها جماعة من جنودهم ولسوء حظهم وقع هذا المدد فى يد يافع بعد معركة عنيفة بينهم و بين عصبة من يافع بقيادة حسين بن صالح المصلى فى قرية رَشْنِيت على مقربة من الشحر ، وقد قتل فى هذه الوقعة ستة من آل كثير وأسر منهم عشرة وقتل من يافع أربعة .

وفى فجر يوم الاثنين ٢٤ من ذى الحجة سنة ١٢٨٣ أصدرت الدولة القعيطية أمرها بالزحف وانقسم يافع قبيل الزحف إلى ثلاث فرق: الأولى وكانت مكونة من المماليك والهنود بقيادة الأمير عبد الله عوض بن على القعيطى ، والثانية وكانت مكونة من يافع الظبى بقيادة سالم بن على بن هرهرة ، والثالثة وكانت مكونة من يافع الموسطة بقيادة سالم غالب بن على الحاج ؛ أما الرابعة فهى السفن الحربية التى أخذت تطلق مقذوفاتها أثناء الهجوم .

وقاوم آل كثير بكل بسالة وشجاعة يومين كاملين ، ولما كادت ذخيرتهم تنفد وقد أخذ يافع يتسلقون سور الشحر ويحاربون فى الشوارع والدور انسحبوا تحت غلالة من نيران البنادق والمدافع وكان القتلى من آل كثير ١٣٥ قتيلا منهم الأمير

عمر بن على بن أحمد الكثيرى ومن يافع ٩٠ ومنهم ستة من آل على الحاج وثلاثة من آل على جابر ، أما الجرحى فى الفريقين فكثيرون .

واتجه السلطان غالب بن محسن الكثيرى بفلول جيشه مخترقا الجبال إلى سَيْؤُن ، وفى رواية أن السلطان غالب تنكر فى زى امرأة وخرج من الشحر مع النساء والأطفال ، وقد أطلق يافع سراح الذين اختبأوا فى دار باجمال فى دفيقة أثناء انسحاب آل كثير وهم عبود بن سالم الكثيرى وعايض بن سالمين بن طالب وهادى ابن سيف وعبد الله بن صالح بن مطلق وعادوا إلى سَيْؤُن مكرمين .

محاولة يافع الهجوم على تريم

أرسل بنو تميم إلى السلطان عوض بن عمر القعيطى يطلبون جنودا لاحتلال تريم نظراً لقربها من حدودهم ولأن آل كثير اتخذوها قاعدة لمناوأتهم من حين إلى حين ، وبما أن المعاهدة القائمة بين القعيطى وآل تميم تقضى بمساعدتهم عسكريا حين تدعو الضرورة إلى ذلك ، وبما أن آل تميم ساعدوا يافع فى بعض حروبهم ضد آل كثير ، فإن السلطان عوض لم يجد مناصا من إجابة طلبهم ، فقد أرسل مائتى مقاتل بقيادة عبد الله جابر المصلى اليافعى ، وصلت هذه القوة إلى السويرى فى جمادى الآخرة سنة ١٢٨٤ ولكن بنى تميم اختلفوا فيما بينهم لتدخل بعض ذوى السلطة الروحية ، وبما أن المصلى لا يستطيع أن يقوم بالهجوم بقوته القليلة العدد على مدينة كبيرة محصنة تحصينا قويا ، فقد ظل فى السويرى وأخذ يبذل مجهوده لجمع كلمة آل تميم وتوحيد صفوفهم ، وفى الوقت نفسه أخذ يناوئ سكان تريم وضواحيها ويحاول قطع مواصلاتها بِسَيْؤُن .

الخلاف بين القعيطى والعواقى

كان عبد الله بن على العولقى من كبار الشخصيات العربية بحيدر أباد ، واستطاع بذكائه ونشاطه ودهائه وحزمه وعزمه أن يملك ثروة طائلة ويتبوأ منصبا عاليا لدى ملك حيدر أباد .

وكان كثير المطامح والآمال ، فقد حاول التغلب على أقرانه أمثال عمر ابن عوض القعيطى وغالب بن محسن الكثيرى ويسبقهم إلى أعلى المراتب، وأكثر من ذلك كان يحلم باقامة حكومة بحضرموت ؛ وعلى الرغم من صداقته للقعيطى واحترامه لشخصيته كان يبطن الحقد له ويدبر المكايد فى الخفاء ، ولكن القعيطى كان حليما معه إلى أقصى حدود الحلم .

وفى أحد الأيام زار العولقى القعيطى فى قصره الفسيح وكان فى حديقة القصر نخل لم يثمر بعد ، فقال للقعيطى حين استقبله « متى يثمر نخلك يا عمر ؟ » وكان تحت النخل بعض أبنائه يلهون ويلعبون فرد عليه قائلا « عن قريب سوف يثمر وسوف تذوق أنت وغيرك خريفه » .

وشاءت الأقدار أن يبتاع العولقى أرضا فى حضرموت على مقربة من غيل باوزير ، وأقام عليها حصنا كبيرا قويا لا تزال جدرانه وغرفه ودهاليزه قائمة إلى اليوم ويعرف بحصن الصداع ، بناه ليكون نواة للإمارة التى كان يحلم بها .

وبعد وفاة الجمدار عمر بن عوض القعيطى أظهر العداء والبغضاء ليافع وانتهز فرصة الحرب القائمة بينهم وبين آل كثير فأظهر عطفه للسلطان غالب بن محسن الكثيرى ، وتطور هذا العطف أو هذه الصداقة إلى عقد اتفاق على محاربة يافع وإقصائهم عن الثغور على أن يقوم العولقى بأكبر قسط من تكاليف الحرب .

هجوم آل كثير على الشحر

وفى رجب سنة ١٢٨٤ سار السلطان غالب بن محسن الكثيرى على رأس ثلاثة آلاف مقاتل نحو الشحر وكان بها ألف مقاتل من يافع ، واستطاع جيش الكثيرى بعد أن تكبد خسائر فادحة أن يقترب من سور المدينة ويفتح ثغرة فيه بقرب مسجد باهارون دخل منها الجيش أفراداً وجماعات واحتلوا نحو ثلثى المدينة واستمرت المعارك بضعة أيام فى المنازل والشوارع ؛ ولما أحدق الخطر بيافع اجتمع كبارهم برياسة السلطان عوض بن عمر القعيطى وكان عبد الله بن علوى ابن الشيخ أبى بكر الملقب بخمور حاضراً فى الاجتماع ولكنه أخرج من الجلسة حين ظهر ليافع عدم إخلاصه لهم وطلب المجتمعون من القعيطى أن ينسحب إلى المكلا بحرا ويتولى يافع الدفاع إلى آخر لحظة ولكنه أبى وأصرّ على البقاء معهم إلى النهاية ، وأمر السلطان القعيطى بوضع أكياس من البارود فى سراديب دار ناصر وحصن ابن عياش ليشعل فيها النار عند مايدخلهما المهاجمون؛ وتحمس يافع كل التحمس حين رأوا ثبات سلطانهم واستخفافه بالموت فى سبيل الدفاع عن الشحر ، فاندفعوا بكل عنف وأصلوها ناراً حامية واشتبك الفريقان فى الشوارع والمنازل بالسلاح الأبيض ، فأخذ السلطان الكثيرى يتراجع بجيشه شارعا شارعا وبيتا بيتا وينسحب من غير انتظام ، وهكذا تحول الدفاع إلى هجوم وكان الذهول باديا على وجوههم وظنوا أن مددا كبيراً وصل ليافع ، وأخيراً انهزم آل كثير شر هزيمة تاركين وراءهم ١٢٠ قتيلا وستين جريحا وعشرين أسيراً ، وسار السلطان الكثيرى بفلول جيشه إلى غيل باوزير .

أما عدد القتلى من يافع فهم ٣٦ نفسا ؛ ومنهم الأمير عبد الله عوض بن محمد ابن على القعيطى وسالم غالب بن على الحاج وثلاثة من آل تميم وخمسة من الهنود .

احتلال غيل باوزير

وعلم يافع أن العولقى وآل عمر باعمر وآل كثير يقومون بنشاط عظيم فى الغيل لاسترداد الشحر ، فأرسل السلطان عوض ١٦٠٠ مقاتل بقيادة سعيد أحمد الحضرمى اليافعى وسعيد بن على النقيب اليافعى وسعيد حيدر البكرى اليافعى ، وكان البكرى رئيسا على القوة الهندية إذ كان يعرف لسانهم .

سارت هذه القوات إلى الغيل وكان بها ٢٥٠ من آل عمر باعمر ، و ٢٠٠ من الحُموم و ١٥٠ من آل كثير ، وعلى رأس هؤلاء عبود بن سالم الكثيرى وعايض ابن سالمين بن طالب الكثيرى ، وكان العولقى وأعوانه فى حصن الصداع على أتم استعداد لمناصرة آل عمر باعمر وغيرهم ضد يافع .

حاصر يافع الغيل يومين وفى اليوم الثالث جاءهم السلطان عوض بن عمر القعيطى وأصدر أمره بالهجوم ، ولما سقطت المدينة لم يجد يافع فيها من المدافعين سوى آل عمر باعمر ؛ أما آل كثير والحموم فقد تمكنوا من الفرار فى جنح الظلام ، وقد أسفرت هذه المعركة عن ٧٨ قتيلا و٦٠ أسيرا من آل عمر باعمر و٤٥ قتيلا من يافع وعدد الجرحى فى الفريقين كثير .

واستمر يافع فى زحفهم إلى حصن الصداع وحاصروه بضعة شهور واضطر العولقى وأنصاره إلى التسليم ، وقيل إن السلطان القعيطى حين اشتد النزاع بينه و بين العولقى أوعده باحتلال حصن الصداع و بارسال حفنة من ترابه بعد هدمه إلى حيدر أباد ليذره حتى شار منارة ، وأنجز القعيطى ما أوعد ، ومات الجمعدار عبد الله على العولقى فى حيدر أباد فى صفر سنة ١٢٨٥ .

استيلاء آل كثير على مريمة

تقع بلدة مَرْيَمة فى قلب المنطقة الكثيرية ، وقد أنشأها بنو بكر حين سطع نجم يافع فى تَرِيم وسيون .

ولم تكن الدولة الكثيرية تخشى هذا العدد القليل من يافع ولكن حين منى السلطان غالب بالهزيمة الشنيعة فى موقعة الشحر أراد أن يصبّ غضبه على آل البكرى فأجلاهم من ديارهم وساروا إلى القطن وأقاموا فى الحوطة (الرَّيِّضَة) ولقد تألم الأمير محمد بن عمر القعيطى ، لذلك فأجلى قبيلة آل زُيمَة من عَرْضِ سرور الواقع غربى شبام وأسكن فيه بعضا من بنى بكر ولكن هؤلاء لم يرتاحوا فى الإقامة هناك فعادوا إلى الرَّيْضَة ثم ابتاعوا أرضا بين الخَبَّة والفرُط و بنوا عليها حصونا وأقاموا فيها وتسمى اليوم (بَا بَكَر) ولا تزال أطلال مَرْيمة قائمة إلى اليوم وقد شاهدتها تعجّ بالصمت والعدم حين مررت بها فى رحلتى إلى تريم فى سبتمبر سنة ١٩٤٧ .

استقلال نهد

كان السلطان بدر بوطويرق الكثيرى قد احتل معظم بلاد نهد وأدخلها تحت حكمه وكان آل عمر بن جعفر الكثيرى يقومون بالحكم بالنيابة ، وكان بنو بكر فى سدبة يتولون شئون الأهالى و يذودون عن حوضهم من اعتداءات آل محفوظ وغيرهم ، وكانت إمارة لحروم وعندل فى يد أحمد محسن الحثامى البكرى اليافعى . ولما مات أحمد عبيد البكرى اليافعى والى سدبة لم يقم بعده وال فانتشرت الفوضى بين الأهلين ، وسافر أحمد محسن البكرى إلى حيدر أباد لطلب الرزق إذ لم تقم لحروم وعندل بسد حاجياته ولم يكن له من عشيرته من يقوم بالأمر بعده فأصبحت المدينتان فى فوضى ؛ على أن عامر جعيم المرفدى اليافعى قام بأمر عندل ولكنه كان ضعيف الإرادة والسياسة .

وفى ذات يوم خرج من حصنه إلى جبل (شرج) عندل فرآه جماعة من آل منيف سكان لَخْماس فساروا إليه وقتلوه وساروا إلى حصنه ونهبوا مافيه من المال والطعام وهدموه وردموا بئره .

وكان لانحدار آل كثير من الشحر وشبام أكبر مشجع لنهد فى الاستقلال فخلعوا طاعة آل كثير وأخذوا يهيئون أنفسهم و يعدُّون العدة للاستقلال . وفى سنة ١٢٨٤ ثار آل منيف على القُفُل(١) واحتلوه ثم ساروا إلى الدَّهيل واستولوا عليها وعلى نحاس وقتلوا صالح بن عمر بن جعفر الكثيرى ، وبقتله انتهى نفوذ آل كثير على نهد .

بين العمودى والكسادى

والنقيب صلاح بن محمد الكسادى اليافعى أمير المكلا من أقوى الشخصيات وأكثر الناس حزما وأسمحهم سيرة ، ولا يزال ذكره يحتل مكانا كبيرا فى قلوب الناس حتى اليوم .

أراد أن يقضى على الفوضى والاضطرابات فى دوعن ، و ينشر الأمن و يبسط السلام فأرسل قوة من جيشه بقيادة مججم أحمد سنة ١٢٨٦ واستولى على معظم وادى الأيمن ، ونهض العمودى أمير الخريبة ، وجمع قبائل القثم وسيبان والمراشدة والجمدة لمحاربة الكسادى وأرسل وفدا للسلطان الكثيرى يستنجد به — و بعد أن احتل الكسادى الخريبة طلب الأهالى حرساً من عبيده لحماية أموالهم وأنفسهم من بطش قوم العمودى فأجابهم إلى ذلك ، ولكن النساء تضررن من العبيد فطلبوا إلى الكسادى أن يبدلهم بجماعة من البادية .

وفى ٢١ صفر من السنة المذكورة سار المقدم عمر بن سالم بن مساعد إلى سيون لطلب المساعدة عسكريا للعمودى من آل كثير ، فوعدوه بإجابة طلبه . واستمر الكسادى فى هجماته واحتل حصنا قويا على مقربة من الخريبة بعد أن دافع حماته دفاعا مجيدا وقتل منهم خمسا وعشرين نفسا .

وأرسل الشيخ عبد الله بن محمد القحوم للدولة الكثيرية فأمدته بثلاثمائة مقاتل من الشنافر والعوامر وآل جابر ؛ ولكن هذا المدد لم يُقِم طويلا بدوعن فعادوا

---

(١) حصن شاهق ، يقع على مقربة من شراح ، بناه السلطان بدر بوطويرق الكثيرى .

إلى سيون بحجة أن السيد العمودى لم يقم بالواجب نحوهم . فانتهز الكسادى هذه الفرصة وأرسل مائة وخمسين مقاتلا واحتلوا ديار المشايخ الواقعة على مقربة من الرباط. وفى جمادى الآخرة سنة ١٢٨٨ عقد صلح بين الكسادى والعمودى .

هذه خلاصة ماذكره ابن حميد . وأما السبب لغزو الكسادى لدوعن فهو كما قال الشيخ عمر بن سعيد الفقيه العمودى — اختلاف المشايخ فيما بينهم واشتداد النزاع بين زعمائهم على الرياسة والسيطرة وحب الظهور ، الأمر الذى دفع ببعضهم للاستعانة بالكسادى ضد البعض الآخر .

واستطاع الشيخ أحمد بن عبد الله بن بدوى العمودى أن يؤلب معظم قبائل دوعن ضد الكسادى ، وعقد مؤتمرا فى الشعبة حضره رؤساء المشاجرة وهم : أحمد ابن سالم بابحير وسعيد باصليب وصالح باحكيم والشيخ أبو بكر بن عبد الله ابن الشيخ عمر وأخوه من النجيدين بِرِيدة الدين وأتباعهم من مقاومة الدَّيِّن وهم سالم بن عمر بامسدوس وعوض بن عمر باكرتوم ومحمد بن قردان ومقدم القثم محمد بن عبد الله بامغرومة والشيخ عمر بن عبد الله باطوق وأتباعه من مقاومة آل بالعبيد وهم عمر بن عبد الله باهيصمى وأبناء عمه .

اتفق هؤلاء جميعا واجتمعت كلمتهم على طرد الكسادى من دوعن وسلموا القيادة للشيخ صالح بن عبد الله بن مظهر العمودى والد الشيخ عبد الله بن صالح منصب بِضة .

ولما علم محجم قائد قوات الكسادى بتألب القبائل ضده ، أرسل من يعرض على الشيخ أحمد بن عبد الله بن بدوى ثلاثة آلاف ريال ليعدل عن مشروعه و يصرف القوم ؛ ولكن الشيخ رفض، وهجم المشاجِرة وآل بالعبيد على رحاب واحتلوها بعد معركة عنيفة قتل فيها من قبائل العمودى ثمانون ومن جنود محجم أكثر من مائة .

وأراد محجم حين شعر بالخطر يحدق به أن يحرم العمودى من الغنائم ، فحشى مدفعه بكمية من البارود وربط حماره بفوّهته ؛ ولكن جماعة من رجال العمودى

وثبوا عليه واعتقلوه قبل أن يشعل النار فى البارود ؛ وكان الحمار من نصيب الشيخ أحمد بن عبد الله بن بدوى والمدفع من نصيب حاكم بضة ، ولا يزال المدفع هناك إلى اليوم . وهكذا استطاع العمودى أن يقضى على سلطة الكسادى و ينفرد بالسلطان على دوعن .

وفاة السلطان غالب بن محسن الكثيرى

فى رجب سنة ١٢٨٧ توفى السلطان غالب فى سيون عن ٦٤ سنة ، قضى جانباً كبيرا منها فى النضال والكفاح . كان قائدا مقداما وحاكما حازما ، أنفق ثروته لخدمة قومه آل كثير و إعلاء شأنهم ؛ ولا شك أنه أحيا ملك آبائه بعد اندثاره ، وأقام بنيان الدولة الكثيرية الفتية .

امتداد سلطان يافع

فى سنة ١٢٨٧ أرسل السلطان عوض بن عمر القعيطى ٣٠٠ مقاتل يافعى من الشحر إلى الحامى واحتلوها واحتلوا بعد ذلك رأس باغشوة والقرن والديس ، دون أن يلاقوا أمامهم مقاومة شديدة . وفى سنة ١٢٨٨ أرسل ٥٠٠ مقاتل من يافع إلى قصيعر وكانت محصنة بقوم من الحموم ، فثارت الحرب بين الفريقين وانتهت بهزيمة الحموم واحتلال يافع لمدينة قصيعر ومينائها الصغير .

وفاة الأمير الكسادى

فى سنة ١٢٨٨ مات الأمير صلاح بن محمد الكسادى اليافعى ، فبكته الأمة بكاء مراً وخسرت فيه رجلا وطنيا مخلصا ، وحاكما عادلا كريما . قام بالأمر بعده ابنه النقيب عمر بن صلاح الكسادى اليافعى .

محاولة آل كثير احتلال شبام

إنها طعنة من الوراء وأية طعنة ؟ ففى شهر الحجة سنة ١٢٩١ ذهب معظم يافع فى شبام إلى قرى القطن لقضاء أيام العيد بين أهاليهم ، ولم يبق منهم فى المدينة سوى الأمير عبد الله بن عمر القعيطى و ٢٩ رجلا من يافع و١٥٠ مقاتلا من المماليك، فانتهز آل كثير هذه الفرصة ، وهجموا على شبام فى يوم الزينة ودخلوها ونهبوا المتاجر ، فأرسل الأمير عبد الله بن عمر القعيطى إلى فخائذ يافع بالقطن يطلب المدد ، فجاءه خمسمائة وسبعون مقاتلا من يافع منهم سبعون من آل على جابر . واشتدت المعركة فى شوارع شبام . وكان الأمير عبد الله يراقب بنفسه مراكز الدفاع ، وربما مرّ على المناطق المحتلة بآل كثير راكباً فرسه فظنوه من رجال الدين ، إذ كانت ملابسه واسعة بيضاء وعلى رأسه عمامة كبيرة .

وانتهت المعركة باندحار آل كثير وانسحابهم وحدانا وجماعات ، وقد بلغ عدد القتلى من يافع سبعة ومن آل كثير ٢٥ دفن عشرون منهم فى بقعة من الأرض على مقربة من باب شبام يقال لها الآن نخل عشرين .

الخلاف بين القعيطى والكسادى

كان النقيب صلاح بن محمد الكسادى اليافعى جوادا ، يدفع مرتبات جنوده فى المكلا وبروم بسخاء ويبتذل من ماله لإصلاح شئون شعبه شيئا كثيرا . ولما نقصت إيرادات الجمرك اختلت ميزانيته واضطربت شئونه المالية . وحين أراد السلطان عوض بن عمر القعيطى اليافعى غزو سيون للمرة الأخيرة أبدى النقيب صلاح استعداده لمساعدته عسكريا ضد آل كثير واقترض منه مائة ألف ريال على أن تبقى فى ذمته يدفعها له متى استطاع إلى ذلك سبيلا .

وزحف القعيطى والكسادى بجنودهما شطر سيون والتقى بهم آل كثير وآل باجرى والعوامر فى الغبيضات فانهزم يافع وعادوا إلى شبام ، ثم حدث نزاع

بين السلطان القعيطى والنقيب الـكسادى ، فأخذ السلطان جنوده وعاد بهم إلى الشحر وعاد النقيب برجاله إلى المكلا . وأراد الـكسادى أن يمد نفوذه ، وينشر سلطانه على دوعن ؛ فأرسل جيشا بقيادة مجحم واحتل قرى كثيرة ؛ ولما توفى النقيب صلاح بن محمد الـكسادى قام بالأمر بعده ابنه عمر . وفى عهده تمرد العمودى شيخ دوعن وأخذ يؤلب قبائل البادية ضده ، فعرض السلطان عوض بن عمر القعيطى مساعدته للنقيب ضد العمودى فقبل هذا العرض وجاء القعيطى بمائة وخمسين مقاتلا وقيل ستمائة مقاتل . واغتنم فرصة دخوله إلى المكلا ، وطالب الـكسادى بدفع المائة ألف ريال التى اقترضها منه والده الراحل .

واشتد الخلاف بين الطرفين ؛ وقيل إن الـكسادى استعان بآل كثير ضد القعيطى . بيد أنه فى سنة ١٨٧٣ م عقدت بينهما معاهدة على أن يتنازل النقيب عن ناصفة المكلا وعن بروم والحرشيات مقابل دفع لا كين ونصف لاك من الريالات ، يخصم منها الدين الذى يستحقه القعيطى . و بعد ذلك بزمن اشترى القعيطى مركباً وأرسله إلى عدن غير أن حكومة عدن ألقت القبض عليه طبقا لقانون التسجيل ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد القعيطى أن يرسلها فى الحال إلى بومباى من دون أن يقوم بأعمال عدائية ضد أى ميناء من الموانئ الحضرمية .

على أن القعيطى حاول مرة أخرى أن يضرب حصارا بحريا على المكلا وحجز بعض زوارق كانت قاصدة إلى المكلا ، ولـكن حكومة عدن أمرته بدفع غرامة قدرها ٦١٤٢ ريالا وأنذرته عاقبة الاعتراض للمواصلات التجارية فى المستقبل .

وفى سنة ١٨٧٦ فوضت الحـكومة الإنجليزية المقيم السياسى بعدن لعقد صلح بين القعيطى والـكسادى ، فسافر المقيم السياسى إلى المكلا وتم بواسطته عقد صلح لمدة سنتين ، و بعد انتهاء السنتين مدّ فى الصلح سنة أخرى . و بما أن الصلح كان مؤقتاً استؤنفت الأعمال العدائية من جديد . وفى سنة ١٨٨٠ استولى القعيطى على

بروم ، وقيل إن النقيب سلمها له من دون إراقة دماء ، بناء على الأمر الصادر من حكومة الهند .

وفى نوفمبر سنة ١٨٨١ اضطر النقيب عمر بن صلاح الكسادى تحت الضغط الشديد أن يسلم نفسه إلى قبطان البارجة (دراجون) فأبحر إلى عدن فى طريقه إلى زنجبار ، وبصحبته عدد من الأتباع والأنصار ، ودخلت المكلا وملحقاتها تحت سيطرة القعيطى .

وفى سنة ١٨٨٢ عقدت اتفاقية مع السلطان عوض بن عمر القعيطى بأن يتقاضى النقيب وورثته وخلفه مرتبا سنويا قدره ٣٦٠ ريالا ؛ وفى الوقت نفسه دفع السلطان إلى المقيم السياسى بعدن ماينيف عن ١٠٠٠٠٠ ريال ، مقابل نفقة أمير المكلا السابق النقيب عمر بن صلاح الكسادى .

وفى سنة ١٨٨٨ قبل النقيب النفقة بعد أن رفضها بضع سنين .

وعقدت فى أول مايو سنة ١٨٨٨ معاهدة حماية مع الجمدار عبد الله بن عمر القعيطى وأخيه عوض بن عمر و وقع عليها فى فبراير سنة ١٨٩٠ وأهم ماجاء فى هذه الاتفاقية تعهد الحكام المحليين ألا يرتبطوا مع أية دولة أجنبية إلا برضا الحكومة الإنجليزية .

وقعة التخم المشهورة

اغتنم آل كثير فرصة قيام الفتنة بين القعيطى والكسادى واتساع نطاق الخلاف بينهما فعرضوا مساعدتهم للكسادى ضد خصمه، وقيل إن الكسادى استنجد بهم فجاءه ١٤٠٠ مقاتل من آل كثير ، وثارت حماسة يافع فى الشحر وطلبوا إلى السلطان عوض ليتعرضوا لهم ويمنعوهم من دخول المكلا وسار عمر عوض القعيطى بثلاثمائة مقاتل وانضم إلى هؤلاء مائتا مقاتل من غيل باوزير بقيادة سعيد أحمد الحضرمى . تقابل الفريقان فى التُّخُم وأحاطبهم آل كثير إحاطة السوار بالمعصم وقتلوا من يافع ٤٥ وجزوا رأسى عوض القعيطى وسعيد أحمد الحضرمى، ولم يقتل من آل كثير سوى ١٢

وأرادوا الذهاب إلى المكلا ، ولـكن النقيب الـكسادى أمرهم بالبقاء فى الحرشيات خوفا من أن ينقلبوا ضده و يحتلوا المدينة و بعد بضعة شهور عادوا إلى سَيْوُن .

وفاة الجمعدار عبد الله بن عمر القعيطى

فى يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٨ مات الجمعدار عبد الله ، ولم يمنع هذا الحـكومة الإنجليزية من الموافقة على استمرار إطلاق المدافع كتحية ودفع المرتب السنوى إلى أخيه السلطان عوض بن عمر ، فأطلقت للسلطان ١٢ طلقة كتحية و ٩ طلقات منحت له على الدوام ، وقد نجحت الموافقة على هذا فى سنة ١٩٠٢ .

الخلاف بين أعضاء الأسرة الملـكية

فى سنة ١٨٩٦ قام نزاع عنيف بين السلطان عوض بن عمر القعيطى وابنى أخيه حسين ومنصر ، وكان النزاع حول أحقيتهما فى الإمارة وتوزيع أموالهما ، وكان الأمير منصر بن عبد الله القعيطى قائما على غيل باوزير والأمير حسين حاكما على نصف الشحر والنصف الآخر للأمير غالب بن عوض القعيطى ، ولا شك أن وجود حاكمين فى مدينة واحدة يثير الخلاف والنزاع والتنافس على السلطان ، وعند ما اشتد التنازع والتقاطع انضم يافع المُوسْطَة إلى آل عبد الله كما انحاز يافع الظَّبِى إلى السلطان عوض .

وقد حاول المقيم السياسى بعدن فى سبتمبر سنة ١٩٠١ أن يصلح ذات البين بين المتنازعين ولسوء الحظ ذهبت محاولاته أدراج الرياح ؛ كما أن المفاوضة التى جرت فى عدن فى فبراير سنة ١٩٠٢ باءت بالفشل أيضا .

وسافر عوض بن عمر إلى الهند بينما عاد ابنا أخيه إلى الشحر بعد أن وقعا على التزام تعهدا فيه بأنهما لن يتعرضا لسياسة البلاد، غير أن هذا التعهد لم يستمر طويلا .

وأخيرا تدخل منصب آل الشيخ أبى بكر السيد أحمد بن سالم بن سقاف

لإصلاح ذات البين بين المتنازعين ، و بعد جهود بذلها المنصب للوصول إلى هذه الغاية حكم لكل من حسين ومنصر بمبلغ كبير من المال ولكنهما رفضا قبول هذا الحكم .

وفى يوليو سنة ١٩٠٢ ذهب المقيم السياسى مصحوبا بالسلطان عوض بن عمر فى بارجة إنجليزية إلى الشحر ومعهما قوة مسلحة ، وقد صعد الأمير حسين إلى ظهر البارجة للمفاوضة ولكن البارجة أبحرت به إلى عدن و بعد زمن لحقه أخوه منصر ، ولقد حاول الأمير منصر بعد وفاة أخيه حسين سنة ١٩٠٦ أن يثير الخلاف والنزاع من جديد ولكن محاولته كان من نصيبها الفشل .

سلطان بدل جمعدار

فى سنة ١٩٠٢ أصدرت حكومة الهند أمرا بوقف استعمال (جمعدار) كلقب للرياسة الذى لم تعد حكومة عدن تستعمله نظرا لاستياء القعيطى منه وأمرت أن يتخذ لقب سلطان بدلا من جمعدار .

دوعن

تشمل بلاد دوعَن جزءا كبيرا من الهضاب الشمالية لحضرموت ، وتتفرع إلى واديين كبيرين يقال لأحدها الأيمن (ليمن) وللآخر الأيسر (ليسرَ) تحيط بكل منهما جبال شاهقة داكنة جرداء تنحدر انحدارا هائلا يبلغ ٩٠٠ قدم . وفى المناطق المنخفضة يوجد عالم من الفتنة والجمال فتسطع الشمس بأشعتها الذهبية اللامعة على الوادى الساكن العديم الحركة ، و بين حقول الذرة الخضراء التى تروى بالسيل تنتشر أحراج النخيل تطاول السماء يخترقها شريط أبيض كالثلج هو قاع السيل ، والقرى متناثرة بين كل ذلك وهى لا تتصل ببعضها فى سهولة لوعورة الأرض والتواء أديمها .

وكانت دوعَن معروفة عند قدماء الجغرافيين ، فقد ذكرها بطليموس باسم « توانى » Toani ، وكانت مدينة الخريبة مقراً للأباضة ، ولما أبيدوا هدمت مدينتهم ، ولما كان اسمها يدل على الخرائب فقد استنتج بعض الجغرافيين أنها تقوم على أطلال مدينة دوعن القديمة .

ولم يكن الدوعنيون مجتمعا واحداً تشرف عليه حكومة واحدة فكل مدينة مستقلة فى إدارة شئونها تحكم نفسها بنفسها وتخضع لزعيمها خضوع العبد لسيده ، فهم يشبهون إلى حد كبير الإقطاعيين فى القرون الوسطى Faudalism وكان معظم تلك المدن بالغا من الصغر حدا بعيدا حتى لم يتجاوز عدد سكان بعضها عددا ضئيلا من الناس ، ولقد أدى تفرق القوم فى مدائن ؛ و بعبارة أوضح فى مقاطعات إلى تنافرهم وتناكرهم ، فتولد بينهم شعور المنافسة ، وتمكنت فى نفوسهم العصبية للمقاطعة .

وفى المناطق العليا تسكن قبائل بادية كالقثم والدين، وهم مشاغبون محبون للحرب لم يخضعوا للحكومة إلا بعد معاناة الأمرّين .

واستطاع الزعماء أن يكوّنوا لهم إقطاعا و يخلقوا لهم نفوذا وسلطانا ؛ ولم يكن لرؤساء تلك الإقطاعات رابطة تربطهم ولا مرجع أعلى يرجعون إليه ، فكل منهم حاكم مطلق ، لا يردّ له أمر ، ولا يسأل عما يفعل ، ينهبون أموال الأهالى و يكنزونها لأنفسهم .

وكان لآل العمودى فى دوعن العليا نفوذ دونه كل نفوذ وسلطة دونها كل سلطة ، ولم ينالوا هذا النفوذ المطلق بقوة الحديد والنار ، و إنما نالوه بواسطة السلطة الروحية التى انحدرت إليهم من المرحوم الشيخ سعيد العمودى ؛ فقد كان هذا الرجل عالما صالحا ورعا كريما متفانيا فى الإصلاح بين الناس و إرشادهم إلى الخير حتى عظم مركزه وعلا شأنه واحترمه الشعب وأحبوه وانقادوا له وكادوا يعبدونه ، وأتباعهم من القبائل القِثم من سيبان وقبائل الدِّين .

وهؤلاء يدافعون بكل مالديهم من قوة دون أن يأخذوا على ذلك أجرا لأن لهم مع آل العمودى مصالح مشتركة واعتقادات خرافية فى الشيخ سعيد العمودى يقدسون ضريحه فى قَيْدُون و يستغيثون به من دون الله ، فهم إنما يدافعون عن آل العمودى بدافع سلطة هـذه الروحية ؛ وعلى الرغم من أن حكام الخريبة و بِضَهْ والرباط وغيرها من آل العمودى ، فإن كلا منهم حبله على غاربه لا يرتبط بالآخر فى شيء ما ، يحكم مقاطعته بما تهواه نفسه وما تدفعه إليه إرادته ؛ وقام التنافس والتنازع والتشاحن بين ابن مُطَهَّر صاحب بِضَه وابن على باكريم وآل عمر باحسين وآل محمد بن سعيد وغيرهم من الأسر العمودية ، وهذا التنازع والتنافس كان من أعظم الأسباب التى ساعدت يافع على احتلال دوعن كما سيأتى ذلك .

وكان لآل باصرة نفوذ لاسيما فى مدينة الرشيد وكان عميد هذه الأسرة السيد عمر بن أحمد باصرة الجمعى السيبانى وقد كان محبوبا من الأهالى لحسن معاملته وحبه للخير . ولد فى الرشيد سنة ١٢٧٧ ، ولما مات أبوه بعد ولادته بسنتين كفله عمه سعيد بن سعيد باصرة ، و بعد أن درس القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الدينية أرسله إلى مصر تحت رعاية السيد محمد عبد الله بازرعة ، وهناك مكث سبع سنين أخذ فى خلالها قسطه من العلم وعاد إلى حضرموت إجابة لطلب عمه سعيد الذى ألح فى طلب عودته إليه ، ومات عمه سنة ١٣٠٩ بعد أن سلمه الحكم ودرّبه على تصريف شئون الأهلين ، ولقد عرف بين قومه بالعدل والسماحة وحب الخير .

دوعن تطلب حماية القعيطى

وعند ما تمادى معظم ولاة دوعن فى غيهم واستبدوا فى أموال الأهالى وأرغموهم على تنفيذ أوامرهم القاسية وتحقيق رغباتهم ، عند ما أذاقوهم ضروبا من الظلم وألوانا من العذاب ، نهض كثير من الدوعنيين فى حضرموت وعدن وأرسلوا إلى السلطان

عوض بن عمر القعيطى اليافعى يستنجدون به و يستغيثون و يرجونه احتلال بلادهم لإقامة العدل ونشر السلام .

ولما بلغ ذلك إلى السيد العمودى حاكم الحريبة خاف على مركزه من الانهيار والاندثار ، وهو يعلم كل العلم أن القعيطى إذا جاء بجيشه يحتل البلاد لاشك فى ذلك؛ فالأهالى يكرهون حكامهم كل الكره ، وهؤلاء الحكام ليسوا على وفاق ووئام كل منهم يريد أن يأكل لحم أخيه ميتا . أراد العمودى أن يحافظ على مركزه و يوطد دعائم سلطته ، لذلك لجأ إلى القعيطى وطلب إليه أن يمده بجيش لإزالة الظلم و إقامة العدل ونشر الأمن حتى إذا فاز فوزا كبيرا سلم إليه البلاد ، ولكن كان نصيبه الفشل إذ لم يجبه القعيطى إلى طلبه ؛ واستطاع السيد عمر بن أحمد باصرة بلباقته ودهائه وحسن أخلاقه أن يستميل إليه السلطان القعيطى ، وعاهده أنه إنما يقدم نفسه وقومه كجنود لاحتلال دوعن و إقامة العدالة فيها . واتفق الطرفان على تخليص دوعن من الظلم والجور وكتبت بينهما معاهدة ، وأمده القعيطى ببعض الأسلحة وعدد من رجال المدفعية سنة ١٣١٧ ، وقيل سنة ١٣١٦ .

زحف يافع على دوعن

بعد أن احتل باصرة بعض القرى طلب المدد من السلطان عوض فأمده بمائتى مقاتل من يافع وعلى رأسهم عبد الخالق الماس وكتب إلى الأمير صلاح بن محمد القعيطى ليرسل إلى دوعن جيشاً فبعث مائتى مقاتل من يافع وعليهم سالم بن على الدُّهرى اليافعى . والتقى جيش المكلا بجيش شبام فى أعلى وادى دوعن ، وعلم بهم العمودى فاستنجد بقبائله وجاءه ألف مقاتل من الدَّيِّن وخمسمائة مقاتل من التِّمْ . ولم يهرع هؤلاء القوم لنجدة العمودى فحسب بل كان الدافع الأكبر لهم حب النهب والسلب كما هى عادتهم حينما تثور الحرب بين ولاة دوعن حيث ينتشرون فى القرى ويهجمون على المتاجر والمنازل .

هجم يافع فقامت الحرب واحتلوا بعض الحصون وأحاط بهم قوم العمودى وحاصروهم ٢٩ يوما ، وكان يافع يموتون جوعا وعطشا وكادت قبائل العمودى يقضون عليهم و يبيدونهم عن بكرة أبيهم لولا أن الأمير صلاح بن محمد القعيطى أمدهم بمائتى مقاتل من يافع وآل محفوظ ، فأعاد إليهم نشاطهم وبعث فيهم الثبات والإقدام. واستنجد العمودى بقبائل رخيه وعمد فأتوه مهطعين ، وخاف القعيطى من هزيمة جيشه لقلة عدده فأرسل خمسمائة مقاتل من البنادر فقابلهم ١٢٠٠ مقاتل من أتباع العمودى بالقرب من الخريبة ، ولكنهم لم يصمدوا كثيراً أمام ضغط يافع فانسحبوا من غير انتظام ، وعلم العمودى بهزيمة قومه وأراد أن يقاوم هو و بعض أتباعه ولكنهم فروا ليلا إلى الجبال ، و بلغ عدد القتلى منهم ٧٤ ومن يافع ٢٢ ، أما الجرحى من الفريقين فهم كثيرون .

و بعد أن هدأت الأحوال واستتب الأمن أرسل والى دوفة السيد عبد الله أحمد بحمد العمودى والسيد عبد الله بن صالح بن مطهر العمودى حاكم بضة وزعيم آل العمودى الأكبر وخليفة الشيخ سعيد العمودى إلى السلطان عوض بن عمر القعيطى يطلبون وده وكان بينهم و بين العمودى حاكم الخريبة نزاع وخلاف ولذلك لم ينجدوه فى حربه ضد القعيطى وظلوا على الحياد ومنعوا قبائلهم من الانضمام إليه ضد يافع ، وأرسل بَلْحَمَرَ حاكم خُونَة ومبارك بن سعيد الحبشى وسعيد بن عبد الله الحبشى إلى القعيطى يطلبون وده أيضا ، هكذا أصبحت دوعن موالية للقعيطى .

وقد تولى الحكم سالم بن على الدُّهْرِى اليافعى ونائبه عمر بن أحمد باصرة ، ولكنه استقال بعد عامين وقام بالأمر بعده عبد الخالق الماس ولكن لم تطل مدته أكثر من سنة فقد انتحر. وقد اختلفت الروايات فى سبب انتحاره، فقيل إنه أخفى مبلغا كبيرا من مال الحكومة عند بعض التجار ، ولما اكتشف السلطان أمره وبخه توبيخا شديدا فدفعه الحياء والخجل من سيده إلى الانتحار، وقيل إنه اغتيل ، والله أعلم .

وقام بالأمر بعده عمر بن أحمد باصرة بالنيابة عن السلطان عوض بن عمر القعيطى ، وقد أدار دفة الحكم بكياسة وسياسة وحالف قبائل دُوعَن وعَمْد ورَخْيه ودُهُر إلى حدود يَبْعث ؛ وكان محبوبا عند الناس كل الحب لتفانيه فى إصلاح ذات البين وعطفه على الفقراء والبائسين ، وقد أنشأ مسجدا فى الحريبة على مقربة من السوق العامة وحفر بئرا فى الرشيد ليشرب منها السكان .

وفاة السلطان صلاح بن محمد القعيطى

بعد أن انتهت حرب وادى الأيمن بدوعن واستتب الأمن عاد السلطان صلاح بن محمد القعيطى إلى عمله بالقَطن، ولم تطل أيامه فقد وافته المنية فى يوم ١٠ ذى الحجة سنة ١٣١٨ ؛ ولقد عرف بالشجاعة والكرم والعلم والأدب ، وكان ميالا للتاريخ مغرما بقراءة سير العظماء ، ودفن بجوار قبر السيد عمر بن محمد الهدار على مقربة من الرَّيضة .

احتلال حجر

فى سنة ١٣١٧ جهز السلطان عوض بن عمر القعيطى ٦٠٠ مقاتل من يافع وآل تميم ، وفى مقدمتهم محمد بن عبد القوى غرامة ومحسن مخارش وأحمد حبيب الحداد وصالح بو بك الحضرمى وعوض عبد الله اليزيدى ومنصر بن على جابر وجابر بن على جابر لاحتلال بلاد حجر ، وهى من أخصب المناطق بحضرموت وأغزرها ماء ؛ ومعظم سكانها من قبائل نوح الشديدى الشكيمة ، وكانت السلطة موزعة فى أيدى الأعيان وهم يشبهون إلى حد كبير أمراء الأقطاع فى القرون الوسطى . وكان الأمن فيها منقودا يعتدى الأقوياء على الضعفاء، فيسلبونهم حقوقهم .

وعلمت قبائل حجر بزحف يافع على بلادهم فكمنوا فى عقبة حجر ، ولما جاء

يافع أطبقوا عليهم وأصلوهم ناراً حامية ، فبهت يافع ودافعوا بكل قوة ولكن من غير جدوى وانسحبوا تاركين ٦٣ قتيلا .

ولم تضعف هذه الهزيمة نشاط القعيطى ولم يدبّ اليأس فى قومه يافع، فقد أرسل السلطان سنة ١٣١٨ : ٢٠٠ مقاتل من يافع و بمعيتهم وزيره السيد حسين بن حامد المحضار وزوّده بالمال لشراء أراض بوادى حجر تمهيداً لاحتلالها ، واستطاع السيد حسين بدهائه أن يعقد حلفا بين الحكومة القعيطية و بين قبائل حجر وميفع ، وأخيراً خضع الحجريون للحكم القعيطى .

احتلال وادى الأيسر

تركزت سلطة آل العمودى فى وادى الأيسر بعد أن انهارت فى وادى الأيمن واستمر اليافعيون يحملون لهم ماهم جديرون به من الاحترام والتبجيل، غير أن بعض القبائل أخذت تتحرش بيافع، فقد اغتال جماعة من آل بلحمر الحربى وابن شيهون بدون سبب، وعند ماقتل يافعى اثنين منهم أخذا بالثأر زاد التوتر وكادت الحرب تعود جذعة لولا تدخل الشيخ العمودى فى الصلح . بيد أن آل بلحمر كتموا غيظهم ثم أخذوا يتربصون الدوائر بيافع ؛ ففى سنة ١٢٢٧ سرى ستة من يافع وعلى رأسهم ابن حطبين فتعرض لهم جماعة من آل بلحمر وأطلقوا عليهم الرصاص من كمين وقتلوهم جميعاً ، لذلك لم ير السيد باصرة بدا من إعلان الحرب على وادى الأيسر .

وكان اشتداد النزاع بين آل باهبرى وبين الخنابشة من الأسباب الدافعة للحرب، فقد استنجد آل باشجيرة بالخنابشة سكان الجحِى، كما استنجد آل باهبرى بالحالكة سكان وادى الأيسر ، ولقد أمد المقدم باصرة الخنابشة بالسلاح والمال و بمقاتلين من يافع وأرسل للسلطان غالب بن عوض القعيطى لإقامة العدل ونشر الأمن ، فأرسل إليه ذخائر وأسلحة وهبت قبائل الحالكة تحارب يافع بكل مالديها من قوة . وظل آل محمد بن سعيد العمودى على الحياد إذ كان من مصلحتهم انهيار نفوذ آل بلحمر وتحطيم سلطتهم فى وادى الأيسر ، واستمرت الحرب نحو سنة انتهت باندحار قبائل

الحالكة وتشتيت شملهم . أما بلحمر فقد غادر الفرسمة وهام فى الأودية والجبال لايلوى على شىء حتى إذا بلغ ريدة الجوهيين أقام بين قبيلته سيبان .

و بعد بضع سنين سار بلحمر وآل نعشان ورؤساء الحالكة والشيخ أحمد الحسينى العمودى إلى المكلا وحالفوا القعيطى ونادوا بذلك فى الأسواق .

وفاة السلطان عوض بن عمر القعيطى

توفى السلطان عوض فى حيدر أباد سنة ١٣٢٧ ، فذهل الناس لوفاته كل الذهول و بكوه بكاء مرا ، وكادوا يصعقون . التف حول نعشه جميع الطوائف تقديرا لتلك النفس التى ذهبت إلى جوار ربها راضية مرضية .

كان قويا شديد القوة ، لا يعرف الضعف ولا الفتور ، ولا يحب التردد ، ذكيا نافذ الذكاء ؛ ولكنه كان هادئا فى الوقت نفسه ، حليما شديد الحلم لايعرف الطيش ولا التعجل ولا الاندفاع . كان من أبعد الرجال نظراً وتقديراً للأمور ووزنا للحقائق، فكانت بصيرته النفاذة تستطيع أن تكشف خبايا المستقبل من وراء حجب الزمان، وقد علمته تجاربه أن يطرح اليأس جانبا . فلم تكن كلمة «مستحيل» تحتل مكانا فى قاموس حياته الحافلة بالجهاد والإقدام ، لذلك لم يكن من المستحيل على هذا الرجل أن تتطور سياسته و يتسع نطاق نفوذه حتى أصبح ملك حضرموت .

لقد ساس الناس بحزم وعزم وسياسة وكياسة . كان صالحا ورعا يؤدى الفروض فى أوقاتها . لم تغره الدنيا ولم يعبد المادة كما عبدها كثير من الملوك ، ولم يندفع وراء اللذائذ البشرية كما اندفع أولئك وراءها ، بل كان كثير الانشغال بشئون الدولة وأحوال الشعب . قام بالأمر بعده ابنه السلطان غالب بن عوض القعيطى اليافعى .

ساه

تقوم مدينة ساه على هضبة مرتفعة فى وادى عدم وأشهر غلاتها البلح ومعظم سكانها من آل جابر وكانت مسرحا للظلم والجور ، فقد كان الأقوياء يعتدون على

الضعفاء ويذيقونهم ألواناً من العذاب ، وكان الأشرار يحرقون النخل ويقطعون الطريق ، ولما فقد الأمن وانتشرت الفوضى أرسل بعض الأعيان وفدا إلى المكلا سنة ١٣٣٢ وطلبوا إلى السلطان غالب بن عوض القعيطى أن يبسط حمايته على ساه ويزيل معالم الظلم ويقطع دابر المفسدين ، فأجابهم السلطان إلى طلبهم وأرسل سالم أحمد البكرى اليافعى وبمعيته ٢٥ رجلا من يافع على أن يقوم بتكاليفهم آل جابر مدة إقامتهم هناك . واستطاع سالم أحمد البكرى أن يقوم بالأمر خير قيام ويعيد إلى الضعفاء حقوقهم المهضومة وأموالهم المنهوبة .

معاهدة عدن

عندما رغب السلطان غالب بن عوض القعيطى فى إنشاء مكتب لجوازات السفر وجد أنه لابد لتحقيق ذلك من اعتراف الدولة الكثيرية بالسيادة العامة للدولة القعيطية على حضرموت ، فأرسل وزيره السيد حسين حامد المحضار إلى آل كثير . واستطاع الوزير بسياسته ودهائه وكياسته ومرونته أن يؤثر فى الدولة الكثيرية، فقد اعترفت بالسيادة للقعيطى حبا فى التعاون والتساند والترابط والاتحاد . بيد أن معظم نخائذ آل كثير أعلنوا فى شىء كثير من الصراحة عدم موافقتهم على ذلك فسار إليهم الوزير ولكن من غير جدوى .

وازداد الخلاف فأخذ آل كثير يتكتلون ويتجمعون لمحاربة القعيطى فأرسل السلطان غالب بن عوض جيشا من يافع والمماليك إلى شبام وأمره ببناء قلاع فى الدحقة على مقربة من آل سند . وثارت الحرب بين الفريقين وحاصرهم القعيطى من الثغور فلم يستطع آل كثير السفر إلى الخارج أو يأتى المهاجرون منهم إلى حضرموت ومنع أيضا صادراتهم ووارداتهم دون أن يضع يده عليها فأصبح موقفهم حرجا . وبعد سنة تدخل والى عدن فى الأمر وطلب إلى الفريقين إيقاف الحرب ، وأرسل إلى بعض كبار آل كثير فى جاوه وسنغفورة فجاءه السادة سالم بن جعفر وسالم بن محمد بن

طالب وصالح عبيد بن عبدات كما أرسل إلى السلطان على بن منصور الكثيرى .
وسافر السلطان على إلى المكلا فى طريقه إلى عدن فقوبل من لدن الدولة القعيطية بكل مايستحقه من الإجلال والتقدير وأطلقت المدافع ترحيبا به و إكراما لقدومه وسافر عظمته وعظمة السلطان غالب بن عوض القعيطى اليافعى و بصحبتهم السيد حسين حامد المحضار و بعض كبار يافع فى باخرة إنجليزية إلى عدن . واجتمع الفريقان تحت إشراف والى عدن ، وكتبت معاهدة بعد موافقة الجميع على كل ماجاء فيها من شروط وتعهدات .

آل كثير يرفضون المعاهدة

لاشك أن الذى يلقى نظرة فى شروط المعاهدة يجدها ترمى إلى غرض هام هو تقوية الروابط بين الحكومتين اليافعية والكثيرية وتوثيق الصلات بينهما ، وليس من شك أن ذلك ضرورى لأمة تريد أن تعيش وتتخذ لها مكاناً تحت الشمس .

ولم يكن من المتوقع أن يرفض آل كثير المعاهدة بعد موافقة سلطانهم وأعيانهم، ولكن يظهر أنهم شعروا أن المعاهدة تجعل دولتهم تابعة للدولة القعيطية لذلك رفضوها فى شىء كثير من الصراحة حينما عاد إليهم وفدهم وأعلنوا عدم الانقياد لكل ماجاء فيها من شروط . ولما بلغ ذلك إلى الحكومة القعيطية أرسلت وزيرها و بصحبته خمسون يافعيا واجتمع الفريقان فى حوطة أحمد بن زين . ولما اشتد الخلاف رابط بضع مئات من آل كثير خارج حوطة أحمد بن زين للفتك بالوزير حسين حامد ومن بصحبته من يافع ، ولكن الوزير تظاهر بالرغبة فى المبيت فى تلك الليلة وأرسل إلى شبام يطلب أرزاً وسمنا وغنما وطباخين . ولما علم المتآمرون بذلك انسحبوا وعادوا إلى منازلهم على أن يعودوا فى اليوم التالى . ولكن الوزير حسين غادر بيافع ليلا وعاد إلى شبام تاركا الطعام واللحوم والطباخين لسكان حوطة بنى أحمد بن زين .
وهكذا استطاع الوزير الداهية أن ينجو بنفسه و برجاله من براثن الموت .

وأخيراً أرسل والى عدن واحداً من الإنجليز إلى آل كثير ومر على شبام واصطحب معه الوزير حسين حامد وأربعمائة مقاتل من يافع ، واجتمع بأعيان آل كثير فوافقوا على كل ماجاء فى المعاهدة .

وفى شوال من السنة المذكورة كتبت معاهدة صداقة وولاء بين الفريقين، فوقع عليها الأميران المنصور ومحسن ابنا السلطان غالب بن محسن الكثيرى عن قبائل آل كثير والسيد حسين المحضار عن يافع، والمعاهدة تنم عن صفاء ضمائر يافع وآل كثير ورغبتهم فى التعاون والتكاتف لإصلاح البلاد ونشر الأمن فى ربوع حضرموت ، وقد وقع عليها عشرات من رؤساء الفخائذ الكثيرية .

معاهدة بين القعيطى وآل تميم

أراد السلطان غالب بن عوض القعيطى أن يوطد العلاقات ويقوى الصلات بينه وبين آل تميم ويتعاون ويتكاتف معهم فى الإصلاح ونشر الأمن فى المنطقة السفلى من وادى حضرموت فاتفق معهم على ذلك وكتبت معاهدة فى ثلاثين من ذى القعدة سنة ١٣٣٦ وقع عليها السيد حسين بن حامد عن الدولة القعيطية والمقدم على بن أحمد بن يمانى وعشرات من رؤساء الفخائذ التميمية عن قبائل آل تميم .

وفاة السلطان غالب بن عوض القعيطى

فى سنة ١٣٣٧ توفى السلطان غالب بن عمر القعيطى بحيدر أباد فحزنت الأمة عليه حزنا عميقا ، والتف حول نعشه جميع الطوائف تقديرا لتلك النفس التى ذهبت إلى جوار ربها راضية مرضية . كان صافى السريرة محبا للخير ، كان حليما رحيما متواضعا كل التواضع ، وكان جل تفكيره منصبا حول تقوية مركز حكومته

وتوسيع نطاق نفوذها وتقوية الصلات والعلاقات بينه و بين القبائل . ومن أعماله احتلال ساه ووادى الأيسر ، وقمع شوكة الحموم الذين كانوا ينهبون و يسلبون و يقطعون الطريق .

تولية السلطان عمر بن عوض القعيطى

قام بالأمر بعده أخوه السلطان عمر بن عوض القعيطى فأبقى أوضاع الحكومة كما كانت فى عهد الراحل الكريم ، وظل السيد حسين حامد المحضار وزيرا له والحاكم بالنيابة حينما يذهب السلطان عمر إلى حيدر أباد .

هيـــن

كانت هين تابعة للحكومة القعيطية ، وفى سنة ١٢٨١ تخلى عنها حاكمها سالم بن على بن هرهرة اليافعى لفقرها وعجزها عن القيام بسد تكاليف حاكمها ، فاضطربت شئونها وتعدى الأقوياء على الضعفاء وانتشر الرعب فى الناس . وفى سنة ١٣٤١ سار وفد من أعيانها إلى الأمير على بن صلاح القعيطى حاكم شبام سابقا وطلبوا إليه بسط حمايته على هين فأرسل الأمير محمد صالح لحمدى اليافعى نائبا عنه يدير شئون الأهلين و يصلح أحوالهم .

وفاة السلطان عمر

توفى السلطان عمر بن عوض القعيطى فى حيدر أباد فى ذى الحجة سنة ١٣٥٤ على أثر اشتداد مرض السرطان والناصور وتورّم الرئتين ، واحتفل بدفنه فى مقبرة آل القعيطى بحيدر أباد بجوار والده وجده احتفالا كبيرا مشى فيه أمراء وكبراء ووجهاء حيدر أباد ، ولقد توفى عن ٦٧ عاما تاركا خمسة أولاد ذكورا، وكان قد انتظم فى سلك الجيش غير النظامى فى حيدر أباد ، وعين حكمدارا على فرق العرب الحضارم التى

تتولى حراسة خزائن الدولة وقصور سمو النظام وحرسه الخاص وقصور الكثير من الأمراء والنواب والحكام . ولما تولى سلطة حضرموت بعد وفاة أخيه السلطان غالب بقي في مركزه كما هو ، وكان لا يذهب إلى حضرموت لإدارة شئون مملكته إلا أياما أو شهورا معدودات ثم يقفل راجعا إلى حيدر أباد تاركا إدارة البلاد إلى وزيره و بطانته .

تولية السلطان صالح

قام بالأمر بعده ابنه السلطان صالح بن غالب القعيطي فاستبشر به الحضارم في الوطن والمهاجر استبشارا عظيما ، ولا غرو فهو أسمح الملوك سيرة وأطهرهم سريرة وأحسنهم مظهرا وأطيبهم مخبرا وأرقهم شمائل وألينهم حاشية وأزكاهم خلالا ، سلطان لا يشعر إلا شعورا كريما ولا يذوق إلا أدبا رفيعا ولا يسمو إلا إلى معرفة عالية ممتازة .

ولاية العهد

وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٥٦ أصدر عظمته مرسوما يجعل ولاية العهد لابنه الأمير المحبوب عوض ، وهذا نص المرسوم :

« . . . من حيث إنه سيصل الزمان الذي يقدره الله تعالى فيحتاج إلى استدعاء خلف لنا يحكم عوضا عنا على سلطنة المكلا ، ومن حيث إننا قد أفرغنا الفكر في هذه المادة في الأيام الأخيرة ، ومن حيث قد خوّل إلينا الحق في تعيين خلف لنا تبعا لاستحسان جناب حكومة صاحب الجلالة البريطانية .

بناء على ذلك نحن صالح بن غالب سلطان الشحر والمكلا تبعا للاستحسان النهائي والموافقة من جانب حكومة صاحب الجلالة البريطانية نعين في هذا الصك نجلنا العزيز المحبوب عوض بن صالح بن غالب بن عوض القعيطي خلفا لنا على عرش

المكلا ، وها نحن نأمر جميع رعايانا بأن يلتفتوا و يراعوا إشهارنا هذا بكل ضبط و يرقبوا أنفسهم على موجبه .

تحرر فى المكلا وأمضيناه بيدنا فى اليوم الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٥٦ الموافق ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٣٧ » .

الإمضاء

التطور السياسى فى حضرموت

لقد ظلت معظم حضرموت حتى قبيل الحرب العالمية الثانية فى ظلام القرون الوسطى تحت حكم الرؤساء الإقطاعيين ، والمساحات الواسعة القاحلة من الجبال وسطوحها وسفوحها ، وقد ولدت فى البدو الشعور العميق بالحرية المطلقة ، وفى بطون الوديان تحيط بالأفق جدران من الصخور ترتفع إلى أكثر من ألف قدم وهذا ولد فى الشعب حب العزلة .

كانت هناك مئات من الإقطاعيات المستقلة ، وكان معظمها بالغا من الصغر حدا بعيدا حتى لم يتجاوز عدد سكان بعضها عددا ضئيلا من الناس ؛ ولقد أدى تفرق القوم فى مقاطعات أو فى مدائن إلى تنافرهم وتناكرهم ، فتولد بينهم شعور المنافسة وتمكنت فى نفوسهم العصبية للمقاطعة .

ولقد عرف الحضارم فى مهاجرهم الحكم الأوربى وعاشوا فى ظله مئات السنين ولكنه لم يجتذبهم ولعل انهماكهم على العمل لطلب المال أخذ منهم معظم تفكيرهم ونشاطهم .

وفى سنة ١٩٣٩ سافر المستر إنجرامس مستشار الحكومة القعيطية الأسبق إلى أندونسيا مهجر الحضارم الأعظم ليقف على حالتهم هناك وعلى مدى استعدادهم للمساهمة فى إصلاح حضرموت .

وعند ما كان فى مدينة صولو بجاوا الوسطى تقدم إليه أحد أمراء آل كثير وطلب إليه أن يساعده على استقلال جاهز، وجاهز قرية فى وادى عمد لايزيد عدد منازلها على خمسة ، كما تقدم إليه بعض القبائل والمناصب ورجوه الاستقلال فى إقطاعياتهم .

وكان كل فخذ من فخائذ القبائل المسلحة يعتبر نفسه مستقلا فى مدينته أو قريته، وكان أرباب المال منهم يشترون العبيد والأسلحة ويوسعون حدودهم على حساب الضعفاء من جيرانهم .

حرب ابن عبدات

وأوضح صورة لهذا النوع من الحملات حملة ابن عبدات ؛ ففى عام ١٩٢٨ قام زعيمهم الثرى صالح عبيد بن عبدات الكثيرى واحتل مدينة الغرفة بالقوة[١] وكانت لآل باعباد وقام بالأمر فيها ،واصطدم بالسلطان الكثيرى و بقبائل آل كثير المجاورة للغرفة وثارت الحرب بينه و بين هؤلاء ، وساعدت الحكومة القعيطية الحكومة الكثيرية بقوات مسلحةو بذخائر ومؤن ، وانتهت الحرب على لا شىء .

وفى سنة ١٩٣٧ أنشأ ابن عبدات حصونا محكمة وحفر خنادق طويلة وابتاع ذخائر و بنادق بأثمان باهظة وأحضر كثيرا من قبائل الحموم وأمدهم بالسلاح والذخائر والمؤن ، وأخذ هؤلاء يقطعون الطرق و يلقون الرعب فى قلوب المسافرين، وأصبح ابن عبدات يهدد سلامة الحكومة الكثيرية .

ولم يكن فى مقدور السلطان الكثيرى ردع خطر ابن عبدات عنه وليس فى استطاعته قمع شوكته و إخضاعه .

وفى عهد المستشار الإنجليزى السابق للحكومة القعيطية المستر ونست فلندى جردت حملة مكونة من جيش عدن الذى يتألف من يافع وعواذل ومن

---

(١) راجع كتابنا « تاريخ حضرموت السياسى » الجزء الثانى صفحة ٤٩ للمؤلف .



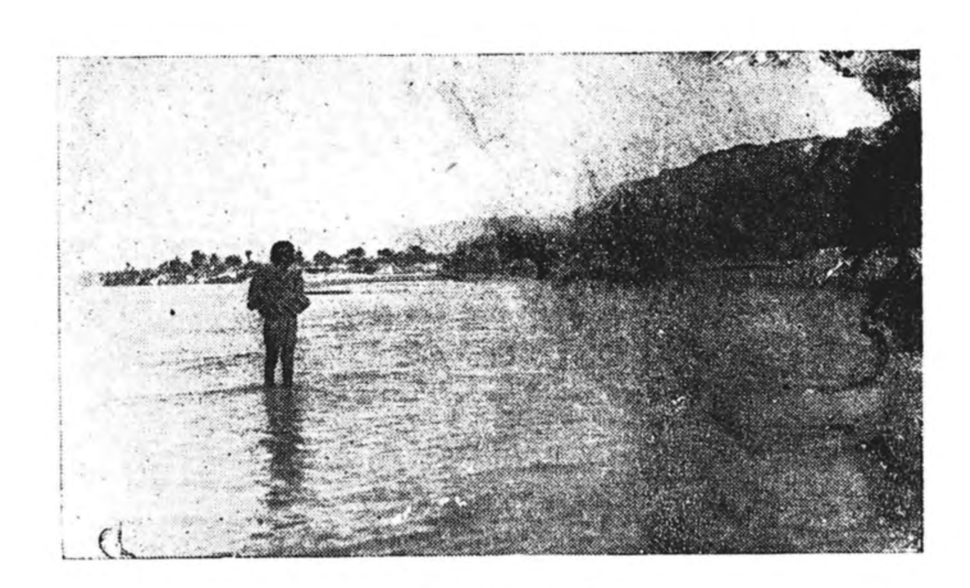
المرحوم السلطان عوض بن عمر القعيطي اليافعي منشيء الدولة القعيطية بحضرموت



المرحوم السلطان عمر بن عوض القعيطي اليافعي



المرحوم السلطان غالب بن عوض القعيطي اليافعي



نهر حجر عند مصبه

جيش الهند التابع لولاية حيدر أباد مجهزة بأحدث الآلات الميكانيكية من دبابات ومصفحات وسيارات نقل ومدافع من العيار الثقيل ومدافع رشاشة ؛ وصلت هذه الحملة إلى المكلا فى فبراير سنة ١٩٤٥ بقيادة أحد كبار الضباط الإنجليز، و بعد أن مكثت الحملة فى المكلا بضعة أيام انتقلت إلى مطار الريان . وفى مارس من السنة نفسها انتقلت إلى حضرموت « الداخل » ، وساهمت الحكومة القعيطية فى ذلك بأكبر قسط فأرسلت قوة من الجيش النظامى بمدفعيته ورشاشاته تحت قيادة اللفتنت كولونيل لاظ خان رئيس أركان حرب جيش الحكومة القعيطية وقوة من الجيش غير النظامى بقيادة محمد محسن السعدى اليافعى . قامت القوة غير النظامية فى فبراير سنة ١٩٤٥ إلى شِبام من الطريق الغربى ولحق بها بعض القوات النظامية والبعض الآخر سار من الطريق الشرقى إلى سَيْوُن .

أعمال القوات القعيطية

قامت القوة غير النظامية التى يقودها محمد محسن السعدى بمهمة الدورية بين شِبَام وقارة آل عبد العزيز لمنع بعض البادية كالصيعر وآل كدة وغيرهم من التسرب إلى مدينة الغرفة ، وقامت بعض القوات النظامية بمهمة الدورية بين وادى ابن على وحوطة أحمد بن زين لمنع تسرب الحموم وغيرهم إلى الغرفة .

وكان لدى كل من القوات النظامية وغير النظامية إرشادات من مساعد المستشار الحربى الميجر أحمد بن عبد القادر العيدروس .

حصار الغرفة

ولما وصلت القوة الميكانيكية دقت إسفينها شرقى الغرفة ، وكانت القوة غير النظامية تحاصر الغرفة من الجهة الغربية الشمالية ، وتحاصرها القوة النظامية من الجهة الجنوبية الغربية ومن الشرق أيضا . وهنا بدأت الحرب حيث أخذت المدفعية

التابعة للحكومة القعيطية تطلق قنابلها على الحصون ، وعلى أثر ذلك صدر الأمر بالهجوم ؛ فكان أول حصن سقط فى أيدى القوة غير النظامية بفضل بسالة و بطولة قائدها المقدم محمد محسن السعدى اليافعى ، و بعد الاستيلاء على معظم الحصون سلمت مدينة الغرفة يوم ٧ مارس سنة ١٩٤٥ ودخلت القوات المشتركة المدينة وسلم صالح عبيد بن عبدات نفسه إلى المستشار بسيون حيث أقلته طائرة إلى عدن .

لاشك أن حركة ابن عبدات الأولى من نوعها فى تاريخ حضرموت فقد جلب الإنجليز ـ بطلب حكومتى حضرموت ـ للقضاء عليها طائرات ودبابات ومصفحات وقوات نظامية وغير نظامية ، ولا شك أن النصر معقود للقوة ولو كانت هذه القوة بأيدى ظالمين ، وليس فى مقدور ابن عبدات أن يقاوم قوات ميكانيكية حديثة من السماء ومن الأرض ، وكيف يستطيع المقاومة وكل ماعنده من السلاح بندقيات يحملها جماعات من المماليك والحموم وغيرهم من القبائل ؟ ولم يكن ابن عبدات يتوقع أن تقوم هذه القيامة عليه ، لم يكن يتصور أن ترمى عليه القنابل من السماء وتطلق عليه القذائف من مدافع حديثة ذات عيار كبير .

ولو كان يعلم ذلك من قبل لما أقدم على بذل الأموال الطائلة لبناء القلاع والحصون وحفر الخنادق وتسليح عدد كبير من القبائل ولكن كان يظن أن الإنجليز سوف لايتدخلون فى أمر لا يعنيهم ولا يمسهم منه ضرر ولا يلحق بهم أذى .

قد قضى ابن عبدات على الظلم الذى كان سائدا فى مدينة الغُرفة ، وأزال طغيان الأقوياء على الضعفاء ، وأقام العدل ونشر الأمن وجعل الناس على اختلاف طبقاتهم سواسية فى الحقوق والواجبات .

والغرفيون وغيرهم يعرفون ذلك كل المعرفة ، ولكن الحكومة الكثيرية كانت تخشى من أن تمتد مطامح ابن عبدات إلى سيون وتريم وغيرها من بلدان آل كثير فيكوّن حكومة جديده ذات أهداف جديدة وأوضاع خاصة من النظم .

غيل بن يمين

وتجمع كثير من قبائل الحموم فى غيل بن يمين واعتصموا بها وتمردوا ضد كل سلطة تتصدى لإخراجهم أو إخضاعهم ، وكانت دار زعيمهم المقدم على حبريش مركز تكتلهم فحصنوها بكل ما لديهم من سلاح حتى أصبحت أشبه بقلعة قوية ، فسار إليهم المستر انجرامس بقوة من جيش الحكومة القعيطية يوم ١٥ / ١١ / ١٩٣٩ وقضوا على المتمردين واستولوا على غيل بن يمين بعد معركة عنيفة أبلى فيها كثير من رجال القوة القعيطية بلاء حسنا ومنهم محمد محسن السعدى[١] .

هذه صور من التنافس على الرياسة وحب الاستقلال ، فكل فخذ من فخائذ القبيلة المسلحة يعتبر نفسه مستقلا ولا يريد الخضوع للسلطة العليا والمناصب ، ويشبهون مشايخ الطرق الصوفية فى البلدان الإسلامية يريدون بسط نفوذهم الروحى على مناطق معينة من الأرض وعلى مجموعة خاصة من السكان .

ولكن التطور الذى حل بحضرموت بعد القضاء على سلطة أولئك الرؤساء نقل تلك البلاد من مستوى العصور الوسطى وظلامها إلى مرتبة الحكومات ؛ فلقد ضمت معظم الإقطاعيات إلى الحكومة القعيطية وضم البعض الآخر إلى الحكومة الكثيرية .

ومما تجدر الإشارة إليه قيام المستر أنجرامس بالصلح بين القبائل وفروعها ، فقد استطاع بقوة شخصيته الوصول إلى عقد صلح عام بين القبائل وفروعها لمدة ثلاث

---

(١) لقد أظهر هذا الشاب الباسل المقدام محمد محسن السعدى بطولة منقطعة النظير فى جميع المعارك التى خاض غمارها ، ومن أخطر تلك المعارك موقعة « حرو » فقد كان عائداً من غيل بن يمين وبصحبته بعض الجنود . فتعرض لهم الحموم فى حرو وأصلوهم نارا حامية . واستطاع السعدى البافعى بشجاعته وبراعته الحربية أن ينظم جنوده القليلى العدد فى لمح البصر واتخذ من سيارات مراصد للمقاومة ، وبالرغم من أن رصاصة اخترقت صدره وخرجت من ظهره فقد ثبت يقاوم بكل نشاط وبسالة بضع ساعات حتى وصلت النجدة وأسفرت المعركة عن ١٤ قتيلا و ٢٢ جريحا من الحموم وقتيلين وأربعة جرحى من القعيطيين .

سنين وقع عليها مايقرب من ١٤٠٠٠ موقع وهذا مما يعطينا فكرة عن الحكومة المجزأة فى ذلك القطر الذى لا يزيد عدد سكانه على مليون نسمة ، وفى نفس السنة بدأ أنجرامس فى إعادة تنظيم القوات المنظمة ، وفى سنة ١٩٤٠ انتهت الهدنة فأعلن استمرارها لعشر سنوات ، وتمسك القسم الأعظم بها بإخلاص غير أنه حدثت اضطرابات وقت أن كانت القوات المحلية لم تكن كافية فى العَدد والعُدد وفى المهارة لحفظ الأمن .

وبالتدريج قلّت الاضطرابات حتى أصبحت قليلة جدا سنة ١٩٤٤ وفى هذه السنة بلغ ما صرفته الحكومة القعيطية للقوات البوليسية المسلحة والتى حفظت الأمن أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ ربية .

والآن أصبح البدوى يثق كل الثقة بالحكومة القعيطية وأصبح الأمن يسود الجبال والوديان والخلجان والصحارى والقفار .

الحكومة الكثيرية

وتشمل سَيْون وهى العاصمة وتريم وحوطة أحمد بن زين والغرفة وغيل بن يمين وتَارْبِه والغُرَف وحوطة السلطانة وبور ومدودة وتريس وغيل عمر ووادى بن على وبحيرة وقارة آل عبد العزيز ، وكل هذه المناطق أو كل هذه المدن والقرى تقع فى داخل حضرموت .

وتنقسم الحكومة الكثيرية إداريا إلى :

١ — لِوَاء سَيْوُن ؛ ويشمل مريمة وحوطة السلطانة وبور ومدودة وتريس والغرفة وغيل بن يمين .

٢ — لواء تريم ويشمل غيل عمر وتَارْبه والغرف .

٣ — لواء حوطة أحمد بن زين ويشمل وادى بن على وبحيرة وقارة آل عبد العزيز .

والسلطان جعفر بن منصور الكثيرى السلطان الحالى من أكثر السلاطين صلاحا وتقوى ؛ ولقد تشرفت بمقابلة عظمته حين كان فى المكلا فى سبتمبر سنة ١٩٤٧ فألفيت عظمته يلتهب غيرة وحماسا على إصلاح بلاده وترقيتها إلى المستوى اللائق بها ، وجدته كبير النفس والقلب متواضع الخلق لاينطق إلا بأعذب الحديث وأرقه وأصفاه ، أبغض شىء إليه غلظ الطبع يكرهه من نفسه فينأى عنه و يكرهه من الناس فينأى عنهم ، وأحب شىء إليه لين الجانب يحبه لنفسه فيمعن فيه و يحبه للناس فيعينهم عليه و يغريهم به .

و يتكون مجلس الدولة من ثلاثة أعضاء غير رسميين ومن ثلاثة أعضاء رسميين ، وهم السلطان وولى عهده والمستشار الإنجليزى ، و ينوب عنه سكرتيره المقيم فى سَيْوُن ، وإيرادات الحكومة الكثيرية ضئيلة جداً فهى لا تتجاوز ١٥٠٠٠٠ ربية فى السنة .

الحكومة القعيطية

وتشمل جميع الثغور والشواطىء وحجر ووادى عمد ووادى العين ونهد وحورة و بلدان القَطن وشبام وعينات ودمون .

وتنقسم المملكة القعيطية إداريا كما ورد فى دستورها المطبوع يوم ٢٩ صفر سنة ١٣٥٩ الموافق ٨ إبريل ١٩٤٠ إلى خمسة ألوية :

١ — لواء المكلا

وهى العاصمة وأكبرميناء لحضرموت ، و يمتد لواء المكلا على الساحل من المعينة و يشمل ميناء شحير إلى حدود حجر ، وتنضم المقاطعات الآتية تحت لواء المكلا :

(ا) بُرُوم . (ب) فوَّة . (ح) غيل باوزير .

(د) الحَرْشِيات . (ه) روكب . (و) شِحِير .

ومن القبائل التى تسكن فى منطقة لواء المكلا : بنو حسن والعكابرة والمحمديين والبهيش والحَيق والعوابثة وجميع الفخائذ المتفرعة من تلك القبائل .

٢ — لواء الشحر

وهوميناء حضرموت وأقدم ميناء فىجنوب الجزيرة العربية ، و يمتد لواء الشحر على طول الساحل من نهاية حدود جبل دمخ حساى شرقا إلى وادى المعينة غربا و يضم المقاطعات الآتية :

(ا) المعيان . (ب) الديس . (ح) الحامى .

(د) قصيعر . (هـ) ريدة آل عبد الودود (و) تبالة .

و يحتضن لواء الشحر قبائل الثِعْيَن والحُموم والقرزى والشعاملة ، والمسيليين والعصارنة (باحباب) والصدف والمعارة والجوهيين وجميع الفخائذ المتفرعة من تلك القبائل .

٣ — لواء حجر

أغنى منطقة جيولوجية فى حضرموت وأغزرها ماء ، و يشمل وادى حَجْر بمدنه وقراه من ميفع إلى رأس الكلب : وأهم مقاطعاته الصدارة وكَنِيْنَة ومحمدة وميفع ، وتسكن لواء حَجْرمن القبائل: نُوَّحْ حَجْروابن دغّار و بلبحيث و باقطمى والسَّمْحِى.

٤ — لواء دوعن

و يشمل وادى الأيمن (ليمن) ووادى الأيسر (ليسر) إلى المشهد ووادى عَمْد ووادى العين وجميع مدن وقرى تلك الوديان .

ومن أهم مقاطعات هذا اللواء ، ليسر والهجْرَيْن وعَمْد . وأهم القبائل التى تسكن فيه : — الزى والسيبانى والعمودى ونُوَّح والخنابشة والحالكة وآل محفوظ

وآل لسود الدين والمشاجرة والأبارقة والقِثِمْ والحامدى ويافع والجعدة وآل ماضى وآل باتيس وآل باصليب والعوابثة .

٥ — لواء شبام

ويشمل المدن والقرى الواقعة من المشهد إلى شِبَام شرقا وإلى حصن العُرْغربا : ويضم المقاطعات الآتية : هينَن وحورة والرَّيْضة وعِينْات شرق تريم . وأهم القبائل التى تسكن فى هذا اللواء : — الصيعر ونهد وكَرَب وقبائل دَهْر ورَخْيه وعِزْمه وآل حرير ويافع (التُّلُد) وآل مخاشن وآل تميم والمناهيل والسباح وآل عمران .

ويعين لكل لواء موظف برتبة « نائب » ولكل مقاطعة موظف برتبة « قائم » .

والسلطان الحالى للدولة القعيطية هو السلطان صالح بن غالب بن عوض القعيطى اليافعى ، تبوأ سلطاننا المحبوب عرش أجداده سنة ١٩٣٦ فكان من أجلّ رغائبه ومن أعظم ماتتجه إليه عزيمته الحرص على النهوض بشعبه الوفى إلى المنزلة العليا التى يؤهله لها ذكاؤه واستعداده وتتفق مع عظمته التاريخية القديمة وتسمح له بتبوىء المكان اللائق به بين شعوب العالم المتمدين ، إن عظمته شديد الحرص على أن يهيىء بسداد حكمته وأصالة رأيه الأسباب التى تكفل تحقيق عظمة بلاده .

مجلس الدولة

ويتكون مجلس الدولة القعيطية من ١٧ عضوا برياسة عظمة السلطان وسكرتير الدولة والمستشار الإنجليزى المقيم .

والجمارك أهم مصادر إيرادات الدولة القعيطية . فهى لاتقل سنويا عن مليون ونصف مليون ربيه .

وأهم الواردات : الحبوب والأرز والمنسوجات والسكر والشاى والبن والبترول والخشب والزيوت النباتية والحيوانية والأغنام .

وأهم الصادرات : الطباق والسمك المجفف وزيت السمك والعسل والجير وبعض المنسوجات . وفى سنة ١٩٣٤ كان دخل الحكومة السنوى حوالى ٣٦٠٠٠٠ ستمائة ألف وثلاثين ألف ربية وفى سنة ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ إلى نحو ١٥٠٠٠٠٠ مليون ونصف مليون ربية ، وكان المنصرف على موظفى الحكومة ومصالحها سنة ١٩٤٤ ، ١٩٤٥ : ١٦٠٠٠٠٠ مليون وستمائة ألف ربية ، وعند مراجعة حساب الدولة فى إبريل سنة ١٩٣٩ كان العجز لا يزال حوالى ٤٠٠٠٠ أربعين ألف ربية .

وفى سنة ١٩٣٤ كان الموظفون فى المكلا مكونين من وزير وأمين المالية وقائد للقوات وطبيب وعدد ضئيل جداً من المعلمين .

ومن سنة ١٩٤٤ تضاعف عدد الموظفين ، منهم تسعة عشر موظفا غير حضارم ووجد مجلس الدولة ، وتعمل الحكومة فى نحو عشرين دائرة منظمة تحت الإشراف العام لسكرتير الدولة الشيخ سيف بن على البوعلى ، وهو عربى عمانى استعير من حكومة تنجانيقا .

مركز بريطانيا العظمى فى حضرموت

ترجع علاقة بريطانيا بحضرموت إلى نهاية القرن التاسع عشر ، فقد عقدت معاهدة سنة ١٨٨٨ بين بريطانيا والحكومة القعيطية . وأهم مافى هذه المعاهدة ألا يرتبط سلاطين حضرموت مع أية دولة أجنبية إلا بعد أخـــذ رأى بريطانيا وموافقتها ، واستمر الوضع السياسى لحضرموت على ذلك إلى أن جاءت سنة ١٩٣٧ فقد قام المستر أنجرامس مستشار الحكومة القعيطية الأسبق بمجهودات كبيرة لعقد معاهدة بين بريطانيا والحكومة القعيطية .

وعقدت المعاهدة ووقع عليها السلطان صالح بن غالب القعيطى بالنيابة عن حكومته السير برنارد ريلى حاكم عدن والمستر أنجرامس بالنيابة عن الحكومة الإنجليزية وذلك فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٣٧ ، وسلمت بعد ذلك مذكرة لعظمة

السلطان صالح توضح لعظمته أنه ليس فى نية الإنجليز أن يقللوا من أهمية سلطة عظمته وأن أهم اختصاص المستشار الإنجليزى تقديم الإرشادات والنصائح النافعة للبلاد ، وجاء فى المذكرة أن المعاهدة ستطبق على النحو الذى طبقه به معاهدات ولايات الملايو فى الشرق الأقصى ؛ وجاء فيها أيضا أن من سياسة الإنجليز أن تبقى سلطة الحاكم المحلى فى كل الشئون كاملة ماعدا الشئون الخارجية فإن الأمر يختلف نوعا ما .

وانتهت المذكرة بأنه فى حالة استحكام الخلاف بين المستشار والسلطان ، فللسلطان أن يلتجئ إلى حاكم عدن .

ولما كانت حضرموت لاتستطيع دفع مرتبات المستشار وموظفيه فقد تكفلت الحكومة البريطانية بالقيام بذلك ، وهذا نص المعاهدة :

معاهدة سنة ١٩٣٧

« بما أن حكومة جلالة الملك فى المملكة المتحدة وسمو السلطان صالح بن غالب القعيطى سلطان الشحر والمكلا يرغبان أن يقويا العلائق الودية الكائنة بين حكومة جلالة الملك والسلاطين القعيطيين من زمن طويل ؛ وبما أن سمو السلطان صالح ابن غالب يرغب فى تقدم وترقية مملكته ، وبما أن حكومة جلالة الملك ترغب فى تأييد وتقوية سلطة ومقام السلطان فحكومة جلالة الملك عينت السير برنارد رايلى . ك . س . م . ج . س . ا . إ . و . ب . إ الوالى والقائد الأكبر فى محمية عدن أن يعقد معاهدة لهذا الغرض .

البند الأول : تقبل حكومة جلالة الملك فى المملكة المتحدة أن تعين مستشارا مقيما للسلطان ، والسلطان يرتضى أن يجهز بيتا لائقا للمستشار المقيم المذكور ولأجل سعادة مملكته يقبل نصيحته فى جميع الأمور ماعدا المسائل المتعلقة بالديانة المحمدية والعادة .

البند الثانى : تعترف حكومة جلالة الملك فى المملكة المتحدة بحق سلاطين الشحر والمكلا فى تعيين خلفائهم ، وعرضه لموافقة حكومة جلالة الملك فى كل مسألة ؛ يعنى تعيين خلف .

عدن فى الثالث عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٣٧

بالنيابة عَن ومِن طرف حكومة جلالة الملك فى المملكه المتحدة وعرضه لمصادقتها وموافقتها .

ختم القائد الأكبر

برنارد رايلى الوالى والقائد الأكبر فى محمية عدن

دبليوامتس أنجرامس

بالنيابة عن نفسه وعن ورثائه وخلفائه

صالح بن غالب سلطان الشحر والمكلا

الشيخ على عكظة

نظام المستشار المقيم والأساليب المتبعة

كان أمل المستر أنجرامس وهو أول مستشار إنجليزى ألا يكون هناك أكثر من ثلاثة مساعدين أور بيين اثنان سياسيان وواحد حربى ، ولكن عند ما أصبح عبء العمل ثقيلا فى بداية الحرب العالمية الثانية أصبح هناك حوالى ثمانية ضباط أور بيين .

وشعر المستر أنجرامس بعدم ارتياح الأهالى من وجود الأجانب ، فجمع موظفى المستشارية الأجانب وأشعرهم أنه يجب أن يكونوا كمساعدين للمستشار على ألا تكون لهم سلطة تنفيذية وأوصاهم أن يعتبروا أنفسهم كالمزيتين الذين ينظرون إلى الماكينة وهى تشتغل أكثر من اعتبار أنفسهم كجزء من الماكينة نفسها .

و بعد دراسة دقيقة لميول الشعب واستعدادهم شعر المستر أنجراس أن المسئولية

الفعلية يجب أن تبقى بيد الحكومة القعيطية ورأى أنه إذا أعطى الشعب المسئولية ومرنهم على تحملها فهم قادرون على الاضطلاع بها على أحسن مايرام ، ولقد وجه اهتمامه لتحقيق ذلك .

وفى سنة ١٩٤٢ رأى أن استخدام الأور بيين الزائدين عن الحاجة لم يعد ناجحا ، لذلك خفضهم إلى اثنين واستخدم شرقيين مدربين لإرشاد وتوجيه موظفى الحكومة فى القيام بادارة المالية والصحة والتعليم والزراعة والحربية وأعمال البوليس ومراقبة شئون البدو وتركت بعض هذه المراكز شاغرة لعدم وجود مرشحين أكفاء ، ويشغل الآن مراكز مساعد البوليس ومساعد شئون البدو أردنيان وكمساعد فى الحربية هندى وحضرمى برتبة ماجور وسودانى للتعليم .

وأنشئت مدرسة للموظفين والضباط غير الحربيين من كل القوات لإمدادهم بالإرشادات والتوجيهات لصالح البلاد ، وتلقى المدرسة دروسا المرشحين الإداريين للخدمة كما تلقى فيها دروس فى أعمال البوليس .

وكان موظفو المستشارية يديرون فى البدء معظم مصالح الحكومة ، وعند ما استطاعت الوقوف على أقدامها انسحبت المستشارية وتركتهم لرؤسائهم ولسكرتير الدولة .

وتقوم الحكومة الإنجليزية بالصرف على فرقة البدو الحضرمية ، ولقد تشكلت على نمط حامية الصحراء لجلوب باشا ، وبما أن البدو لم يألفوا فى حياتهم أى نوع من الخدمة الحربية المنظمة ، فقد اضطربت المدرسة فى بادئ الأمر ولكن بعد ثلاث سنين انتظمت الدراسة فيها وأصبحت الخدمة فيها مرغوبة ، ومركز المدرسة المكلا ويمثل أعضاؤها معظم القبائل وهم لايدربون كجنود فقط بل كمحكمين فى المنازعات ، والمدرسة لاتألو جهدا فى تثقيف عقولهم بالعلوم العامة كالتاريخ والجغرافيا ، ولقد زرت المدرسة وأطلعنى مديرها على برنامجها ونظام التعليم فيها فسررت لذلك سرورا عظيما .

وهناك مستشفى حربى وهو الأول من نوعه فى حضرموت أنشأته الحكومة القعيطية لجميع القوات .

وحاول المستر أنجرامس تطبيق السياسة التى وضعها لورنس لبلاد العرب .

بذل كل المحاولات فى أن ينظر إلى الأمور من وجهة الحكومة المحلية فقط وفقا للطريقة التى تحددها معاهدة سنة ١٩٣٧ واشتغل كواحد منهم وتزيى بزيهم .

وفى بعض المناطق بحضرموت لقى معارضة شديدة للمعاهدة ، فقد فهم بعضهم أن إمداد حضرموت بالمستشارين الإنجليز ماهو إلا مقدمة للتبشير وبناء الكنائس ، ولذلك وجد المستر أنجرامس صعوبة شديدة فى كسب رضا الشعب ولكن سرعان ماتلاشت هذه الصعوبة عند مابرهنت المستشارية عمليا على عكس ذلك ، فقد استخدم الدين الإسلامى فى تثقيف الجنود والطلاب والطالبات فى المدارس وأصبح مركز الدين يزيد قوة ونشاطا .

لقد قضى المستر أنجرامس ١٥ سنة فى جنوب شبه الجزيرة العربية وفى زنجبار وموريس ودرس ميول سكان تلك المناطق وأخلاقهم وعاداتهم ، فلا غرو إذا هو رسم طريقة واضحة ناجحة يتمشى معظمها مع نمو وتطور تلك الشعوب .

لقد نشر مقالا قيما فى مجلة «l'International Afairs» april 1945 ذكر فيه الطريق الذى يجب أن يسلكه الموظفون الأجانب وفى مقدمتهم المستشارون ، ونحن هنا نلخص للقراء تلك السياسة الحكيمة التى رسمها المستر أنجرامس .

قال : إذا نجحنا فى تعليم الشعب ليحكم نفسه بنفسه فإنه يحتمل ألا يكون بالأساليب التقليدية فى الإدارة الاستعمارية ، فمعظم القطـــر صحراوى وتقاليدنا الاستعمارية إنما نشأت فى أراض قادرة على النمو الاقتصادى ، وليس السكان بسطاء ولا سهل الانقياد ، بل هم على عكس سكان المناطق الاستوائية يرتابون فى التدخل الأجنبى .

وقال : .. والعرب فرديون يعاملونك معاملة الندّ لهم . فالرجل الذى يشمرون

باستحقاقه للزعامة عليهم يستطيع أن يسوسهم أحسن من أى شخص آخر ، وبناء على هذا فقوة الشخصية هامة جدا ولكن يجب أن يكون رائدها الحصافة وصواب الحكم والثقة بالنفس والحلم والمرونة .

ويجب على الموظف الأجنبى ألا يظهر بمظهر التفوق عليهم وألا يتكبر على من يشتغل بينهم .

والعرب يعتقدون بأنهم أرفع الأجناس ، ويجب ألا ننسى أن لهم مدنية وأدبا وعلى هذا فليس لنا أن نفرض عليهم مدنية .

يجب على الذى يعيش بين العرب أن يساهم فى حياة الشعب وفى نفس الوقت يحافظ على ميزته الخاصة ، ويجب ألا يتوقع حياة الراحة والسهولة ، فإذا لم يستطع أن يساهم المجتمع فى أفراحه فالأولى به أن يرحل .

يجب على الموظف الأجنبى أن يلم بعادات المجتمع الدينية ويتودد إليه كما يجب أن يعرف كثيرا عن تاريخه وأن يكون ذا معرفة فنية وخبرة إدارية وذا عقل مبدع .

وأخيرا استنتج المستر أنجرامس من اختباراته الطويلة بجنوب الجزيرة العربية ما يأتى : —

١ — إن هناك نوعا من المناطق المتأخرة فى الشرق الأوسط والتى لأسباب فى المناخ والتربية وطبيعة السكان لا يمكن تطبيق الإدارة الاستعمارية فيها .

٢ — ليس من الأنظمة الإدارية الاستعمارية المعروفة بالحكم المباشر وغير المباشر مايتناسب مع مثل هذه الأقطار ، وفى الأقطار العربية يجب أن تستقر المسئولية النهائية فى الحكم عند الحاكم المحلى وحكومته المحلية ويستمد المستشار سلطته منهم .

٣ — إن أحسن طريقة لإدارة هذه المقاطعات هى السياسة المرنة والنصيحة التى ليست بالحكم المباشر ولا غير المباشر ولا انعدامها على الإطلاق .

٤ — يجب على الأجانب المستشارين وغيرهم من الموظفين السياسيين أن

يعيشوا ويعملوا كجزء من الشعب وينظرون إلى الأمور نظر الشعب لها وهم بخدمتهم لمصالح الذين يعملون بينهم يخدمون أيضا مصالح حكومتهم ، والموظف السياسى يجب أن يكون قادراً أيضا على تفسير حكومته إلى الشعب .

٥ — إن المبالغ التى تصرف فى المناطق المتأخرة يجب أن تكون هبة من غير مقابل ، وإذا كانت قروضا يجب ألا تطلب بشىء من العنف .

ويرى المستر انجرامس فيما يختص بمرتبات المستشارين ومساعديه أن الأصلح إقراض الحكومة لتدفع المرتبات فى مستوى يتناسب مع ما تدفعه لغيرهم من الموظفين .

ومن رأى المستر أنجرامس وحدة المحميات وإدخالها ضمن الوحدة العربية ، ولكنه لم يذكر الطريقة لتوحيد تلك المحميات أو الإمارات .

اهتمام الإنجليز بجنوب الجزيرة العربية

يلاحظ أن اهتمام الإنجليز بجنوب شبه الجزيرة العربية قد تزايد واتسع نطاقه وتشعبت فروعه أكثر جدا مما كان قبل الحرب العالمية الأخيرة بصورة تبعث على الدهشة والاستغراب : فى حضرموت مثلا يصرفون مبالغ كثيرة من المال شهريا لمرتبات المستشار ومساعده وموظفيه ولجيش البادية الذى له القدح المعلى فى حفظ الأمن فى الحواضر والبوادى ، وقاموا بمشروعات عمرانية واقتصادية كان لها أثر كبير فى الحياة الاقتصادية بحضرموت .

فقد قامت الحكومة الإنجليزية ببناء وترميم السدود فى حريضة وعندل والخماس ورخيه ودوعن وصوران وموزع شبام والعقوم بوادى سَرْ وعدد كبير من السدود والضمر فى وادى ابن على وجعيمة ، ووادى مدر ووادى حراد بالقرب من تاربه وخمسة سدود يملكها آل شملان على مقربة من مسيلة آل شيخ ، وفى وادى الذهب وثبى ووادى لعوص فى مسيال عِدِم ، وفى عينات ووادى واسطة بالقرب من قَسَم .

وبلغت القروض التى دفعتها الحكومة الإنجليزية للمزارعين ولأعمال الضمُر وطلمبات الماء وحفر الآبار وغير ذلك منذ بداية سنة ١٩٤٤ إلى سنة ١٩٤٧ حوالى تسعين ألف جنيه . وهذه القروض وما يقدم من الحبوب والعلف المزارعين تدفع إما نقدا من غير ربح على أقساط أو عينا رطلا برطل ، وبلغ مجموع ماصرفته الحكومة الإنجليزية على أعمال الإغاثة فى المجاعة التى نكبت بها حضرموت سنة ١٩٤٤ حوالى خمسين ألف جنيه ، ومما تجب الإشارة إليه أن الحكومة القعيطية والتجار بذلوا أقصى مجهودهم لتخفيف المجاعة ، كما أن الضرائب على الورادات والمساعدات من موظفى الحكومة القعيطية بنسبة ١٠٪ من مرتباتهم وتبرعات أخرى والعشرة آلاف جنيه التى تبرعت بها الحكومة المصرية والتى كان لها أثر عميق فى قلوب الحضارم كل أولئك خفف وطأة المجاعة إلى حد كبير وأنقذت آلافا من المنكوبين من براثن الموت ؛ فقد أنشئت الملاجئ ومطابخ الحساء للاجئين فى الساحل ، وأقيمت مطاعم فى المناطق المنكوبة بالمجاعة كحريضة وهينن والعنين وقارة آل عبد العزيز وسحيل شبام وشبام وحوطة آل أحمد بن زين والغرفة وحصن العوانصة وتريس وسيون ومريمة وتاربة والغرف وثبى وتريم والقوز وعينات .

وقد استغلت معظم الأموال التى جمعت فى فتح أبواب العمل للرجال والنساء والأطفال وذلك فى القيام بتنفيذ المشروعات الآتية :

١ — بناء سد النقرة بين قَسَم وعينات .

٢ — حفر مائتى بئر لتحسين أعمال الرى فى قَسَم وعينات وتريم والغرف ومسيلة آل شيخ وسيون وشبام والجوادة .

٣ — إنشاء وتعبيد الطرق وإصلاحها وأهمها .

(ا) الطريق الغربية .

(ب) الطريق الشرقية .

(ح) الطرق الساحلية .

وبلغ ماتبرعت به الحكومة الإنجليزية لهذه المشروعات حوالى ثمانين ألف جنيه .

ولا شك أن بعض الناس يندهشون لهذا الاهتمام وهذه التضحيات من الإنجليز ويسألون أنفسهم : هل قام الإنجليز بهذه الأعمال حبا فى الحضارم وعطفا عليهم ؟ هل ضحوا بتلك الأموال توددا للحضارم وتقربا إليهم ؟ ومن هم الحضارم حتى تخطب ودّهم بريطانيا العظمى ؟

لا شك أن هذه الدهشة تزول حين يعلم أولئك الناس بأن السياسة الإنجليزية تقوم على أمرين رئيسيين :

أولا : إن الشعب الإنجليزى نفعى يتلمسون جانب النفع فى كل الأمور ، ومن النادر جدا أن نجد إنسانا فى الدنيا يعمل الخير لذات الخير .

ثانيا : كثيرا ما ترمى السياسة الإنجليزية إلى غرض بعيد قد يجنون ثماره بعد زمن مديد وعمر طويل .

وهذا الجانب من السياسة الإنجليزية من أعظم الوسائل التى ساعدتهم على بسط نفوذهم على العالم .

مساعدة حضرموت فى الحرب

واستطاعت حضرموت أن تقدم للانجليز مساعدة ، فقد جهزتهم بجماعات لوحدات الحراسة بعدن عند ما كان الإيطاليون فى الحرب وأنشأت فرقة للاستكشاف للعمل فى قيادة الشرق الأوسط وقامت بحراسة مطارات القوة الجوية الملكية وجهزتهم بحامية السواحل ، واستطاعت إدارة الأشغال العمومية أن تبنى محطة جوية بثلث التكاليف المنتظرة .

وعند اندلاع الحرب ساعدتهم حضرموت بمائة ألف ربية واكتتب الحضارم فى مهاجرهم بمبالغ وعملت النساء الأشرطة للهلال الأحمر بمصر .

بوادر نهضة

الحركة العلمية

و إذا عدنا بالسنين القهقرى عشراً نجد الجهالة الضاربة أطنابها فى طول البلاد وعرضها تنخر جسم الشعب وتهدّ كيانه وتدفعه إلى حياة أشد سوادا من ظلام الليل .

كان الحضرمى إذ ذاك يرنو إلى من حوله ببصر مشدوه وفم فاغر ولا يكاد يميز بين خرافة وحقيقة .

كانت المدارس عبارة عن كتاتيب لتعليم القراءة والكتابة وقليل من علوم الدين ، وكان عددها ضئيلا جدا ، وكان إقبال الشعب عليها يكاد يكون معدوما . أما اليوم فقد تبدلت الحال غير الحال ، بدأت دياجير الجهالة تتبدد و بدأ الناس يحطمون ما كان يثقلهم من قيود وأغلال ؛ لم يشأ ربك لتلك الغاشية أن تدوم ولتلك الجذوة الخابية ألا تعود إلى الوهج والبريق ، فلم تكد الحرب العالمية الثانية تضرب فى نصفها الثانى حتى هب الناس من مراقدهم يطلبون المعرفة ، رفعوا أبصارهم المكدودة من طول مانظروا إلى القبور وكثرة ما فكروا فى يوم البعث والنشور ، رفعوا أبصارهم ليستمتعوا بالمعرفة الحقة وليذوقوا طعم الحياة فوق هذه الأرض الفاتنة .

ما أبعد الفرق بين الأمس واليوم ، بالأمس أو منذ سنوات عشر لم يكن أحد يستطيع أن يتحدث عن النهضة العلمية والاجتماعية بحضرموت كاتبا أو محاضرا فقد كان مثل هذا البحث لونا من الخيال أو ضربا من المحال .

لقد اهتمت الحكومة القعيطية بالتعليم فأنشأت حوالى ثلاثين مدرسة ابتدائية ومدرسة واحدة وسطى ، وجعلت التعليم فيها مجانا[1] وأرسلت البعوث العلمية من

(١) يبلغ عدد المعلمين اليوم حوالى مائة مدرس لحوالى ٣٠٠٠ طالب ، و ٧ مدرّسات لحوالى ٢٠٠ طالبة ، ولا يقل ماتصرفه الحكومة للتعليم عن ٢٥٠٠٠٠ ربية سنويا .

خريجى المدرسة الوسطى إلى السودان ومصر وسوريا والعراق ، وغداً سيكون هؤلاء المبعوثون رسل النهضة وحماتها وقادتها .

لقد أخذ الناس يرسلون أبناءهم و بناتهم إلى المدارس الحكومية برغبة قوية وشوق ملتهب حتى ضاقت تلك المدارس بروادها وازدحمت بطلابها و بلغت أزمة المعلمين نهايتها العظمى .

وتقدم بعض المتعلمين وفتحوا المدارس الليلية لتعليم الأميين القراءة والكتابة مساعدة منهم للقضاء على الأمية .

لقد زرت المدارس كلها ووقفت على سير التعليم ونظام العمل فيها واختبرت كثيرا من الطلبة والطالبات واطلعت على منهج التعليم وجالست إخواننا المعلمين السودانيين والحضرميين وناقشتهم فى مختلف الشئون الخاصة منها والعامة ، فسرنى كثيرا جدا ماشاهدته فى الطلبة والطالبات من الذكاء والنباهة والاستعداد لتحصيل العلم ، وسرنى كثيرا جداً ما رأيته فى المعلمين جميعهم من النشاط والإخلاص والوفاء والأمل الباسم والرغبة الملحة فى العمل ، إنهم بلا شك بمثابة البذور الطيبة انتثرت فى أرض صالحة فأينعت ثمارها ودنت قطوفها وآتت أكلها بعد حين ، وما كان هؤلاء المعلمون ليفلحوا كل هذا الفلاح فى استنبات بذورهم لولا أن صادفوا هناك حكومة رشيدة على رأسها صاحب العظمة السلطان صالح بن غالب القعيطى اليافعى اعتزمت أن تمد النهضة بكل مرتخص وثمين وأن توليها من عنايتها ورعايتها قسطا كبيرا .

لقد سرنى ذلك كله سروراً أعجز عن وصفه وترك فى نفسى أثراً خالداً لايزول مدى الحياة .

غير أن هذا لم يمنعنى عن إبداء ملاحظاتى ولم يحل دون تقديم منهج للتعليم على أحدث الطرق التربوية يتمشى وميول الشعب الحضرمى ، وليس فى الدنيا منهج للتعليم بلغ الدرجة القصوى فى الكمال .

وإذا كنا نريد أن نلحق الشعوب التى سبقتنا بمراحل كثيرة فعلينا ألا نقنع بما نحن فيه، يجب علينا أن نطمح ونمعن فى الطموح لطلب المزيد ونلح فى طلب العمل للسير بخطوات واسعة نحو الأمام.

والمناهج تتأثر إلى حد بعيد بظروف الزمان والمكان؛ والتعليم الصحيح أساس كل شيء من مقوّمات الوجود الإنسانى، وإذا لم يصلح التعليم فلابد أن ينهار كل شيء فى العالم من جديد؛ وتثقيف العقول وتقويم الأخلاق أهم من التعمير المادى، آمنت بذلك الدول قديما وحديثا. ولقد انتهى رأى الباحثين الفنيين فى البلدان الراقية كأوربا وأمريكا إلى أن الحريات الأربع التى كفلتها تصريحات روزفلت وتشرشل لا يمكن أن تستند إلى سند أقوى من التعليم الصحيح، وإن الإنسان لن يؤدى واجبه فى سبيل تحقيق الخير الشامل إلا بالتعليم الصحيح.

ومن المقرر أن التعليم الصحيح أقوى سلاح لمكافحة الفقر والمرض وأمنع درع تقى الأمة عوادى الزمن.

وقد فطنت إلى هذه الحقيقة لجنة التعليم فى حزب المحافظين بانجلترا فقالت فى تقريرها «إن التعليم هو النشاط الأساسى للدولة، ولا يجوز أن يحول دون انتشاره وإتقان وسائله أىّ اعتبار، ولا أن يقف دون تقدمه أزمة من أزمات المال أو من أزمات السياسة، وحتى فى وقت الحرب ينبغى أن يكون له المقام الأول، ولذلك صرح اللورد سولبرى (Soulbury) فى مجلس اللوردات بأن الكتاب الأبيض عن التعليم[١] أهم لمستقبل الأمة من تقرير بيفردج».

ولا شك أن إصلاح التعليم يجب أن يلحظ فيه غرضان:

الأول منفعة المتعلم نفسه، والثانى منفعة الأمة.

---

(١) وضعته الحكومة الإنجليزية سنة ١٩٤٢ عن تجديد التعليم وقدمته للبرلمان، ودامت مناقشة الكتاب الأبيض فى كل من مجلس اللوردات ومجلس النواب جلستين كاملتين. وقبل ذلك كان لمجلس اللوردات مناقشات فى سياسة التعليم فى انجلترا استغرقت ثلاث جلسات كاملة.

ولن يتحقق ما يراد من إصلاح التعليم إلا إذا تحققت الموازنة بين حاجة الفرد ومنفعته وحاجة الأمة ومنفعتها .

فإذا اختلت هذه الموازنة ضاع الغرض الأساسى من الإصلاح وضحى بالفرد فى سبيل الجماعة أو بالجماعة فى سبيل الفرد ، وكلا الأمرين يهدم الديمقراطية هدما .

لقد تقدمت إلى عظمة السلطان و إلى سعادة المستشار المقيم و إلى إدارة التعليم بملاحظاتى و بمنهج جديد للتعليم يتناسب مع نموّ الشعب الحضرمى واستعداده وذلك قبيل عودتى إلى مصر ببضعة أيام ؛ وقد وعدنى مدير التعليم بالنيابة السيد عبد الله الناخبي أنه سيبذل أقصى مجهوده لتنفيذ مافى الملاحظات والمنهج من إصلاحات ، كما تسلمت خطابا من سعادة المستشار المستر شبرد أبدى فيه إعجابه بالاقتراحات ، ووعدنى أنه سيقوم بتنفيذها ما استطاع إلى ذلك سبيلا[١] .

وما أردنا أن نشهر بادارة المعارف أو نقلل من قدرها كلا وألف مرة كلا ولكننا أردنا أن نواجهها بالحقيقة فى صراحة ووضوح ؛ فالنقد البرىء سلم الإصلاح ، ولا شك أن من بيدهم الأمر يعلمون أن عجلة الزمان تأخذ سبيلها إلى الإمام ، والتقدم الفكرى والاجتماعى والثقافى والسياسى يطالبنا بأن نلبس لكل زمن لبوسه ، وأن نساير النهضة مسايرة من يؤمن بها و يعترف بوجودها حتى لا نتخلف عن متابعتها ونقف فى مكاننا والزمان يطالبنا بسرعة السير ومواصلة النهوض والتجديد، فلا يجمل بنا أن نطبق قوانين المدرسة القديمة ونظمها على المدرسة الحديثة وقد تغير الزمان واختلفت الأوضاع ، وليس من صالح المعلمين والمتعلمين أن تسلك القافلة سبلا متعرجة يتعذر فيها السير لما يكتنفها من عقبات تعوق سالكها وتحول بيننا و بين الهدف الأسمى الذى ننشده والغاية التى نسعى إليها ، وليس من الحزم فى شىء أن نغضى العيون عما يعترض القافلة من صعاب .

---

(١) الملاحظات والمنهج موجودان بآخر الكتاب .

الوعى القومى

فى حضرموت نهضة فكرية تنزع إلى التحرر من أغلال الماضى والوثبة بالوطن إلى مايرسم فى أفق المستقبل من رقىّ ومجد .

ولقد جالست كثيراً من ذوى العقول النيرة والآراء الحرة فقال لى بعضهم إن الحركة العلمية الآن لاتزال فى بدء مرحلتها الأولى وأنه لكى ينهض الشعب الحضرمى يجب أن يكون نصف ميزانية الحكومة على الأقل للتعليم ولإتاحة كل الفرص للشباب ليتعلموا و يتقدموا و بذل الجهود التى تفتح لهم أبواب العمل تأمينا لمستقبل الفرد ورفاهية الجماعة وتشجيع البعثات العلمية والتوسع فى معاونتها لتمكين أكبر عدد من الشباب من مواصلة دراستهم فى المعاهد العلمية فى الخارج ، ليعودوا إلى وطنهم ويديروا أعمالهم بأنفسهم ويبنوا مستقبلهم بأيديهم وينهضوا بالوطن إلى المستوى اللائق به .

وحضرت اجتماعات لبعض الأحزاب وفى مقدمتها « الحزب الوطنى » بالمكلا حيث سمعت نقاشا حاداً بين فريق يطالب الحكومة بانشاء مجلس تشريعى وفريق آخر يرى أن ذلك سابق لأوانه .

وليس من شك أن هذا الوعى القومى السياسى والأدبى والاجتماعى يرجع إلى الأسباب الآتية :

١ — ديموقراطية حكومتى القعيطى وابن عبد الله ومنحهما كل فرد مهما كان مركزه العلمى والاجتماعى والاقتصادى الحرية أن يقول ما يشاء وينتقد ما يشاء ويبدى آراءه واضحة صريحة فيما يريد ، وهذا عكس مانجده فى بعض البلدان كاليمن حيث الحرية مكبوتة مخنوقة والآراء مضغوطة مدفونة والويل كل الويل لمن يقول الحقيقة أو بعض الحقيقة إذ يساق إلى السجن .

٢ — نشاط الحضارم الفكرى واستعدادهم الفطرى للنهوض .

٣ — شجاعتهم الأدبية فهم لايهابون الأخطار والمجازفة ولا يخشون الاضطلاع بالمسئوليات .

هذه الظواهر الحيوية جعلت الشباب يطمح فى المزيد ويلحّ إلحاحا شديدا فى مضاعفة الجهود للسير إلى الأمام بأقصى سرعة وأوسع الخطوات .

والشباب عماد الحياة وأساس كل الحركات والنهضات ؛ وقد استغل هتلر وموسولينى الشباب فأوحى كل منهما إليهم المثل التى أرادها فصاغهم على غرارها ، ولما اشتعلت نار الحرب اندفعوا إليها على غير وعى أو بوعى مجنون ، متأثرين بما استقر فى أذهانهم وجرى مع عواطف شبابهم الحارة مجرى العقيدة والإيمان .

فالحرب التى ذاق العالم ويلاتها ست سنوات إنما جمع وقودها هؤلاء الذين استأثروا بعقول الشباب قبل ذلك بعشر سنوات .

وقوة الإرادة أظهر فى الشبان منها فى الشيوخ ولذلك نجد أن معظم الزعماء السياسيين الذين تصدروا النهضات الشعبية أو تصدروا لقيادة الحركات الوطنية أو نصبوا أنفسهم لتوجيه الثورات القومية كانوا من الشبان ، لكن ليس معنى هذا أن الشيوخ لايصلحون للزعامة السياسية فمنهم من هو أقوى من الشبان إرادة وأصلب عودا وأكثر إقداما وتجارب ولذلك يتولون قيادة أممهم فى أدق المواقف وأحرج الساعات .

فى طبع الشباب الانقياد للعاطفة والتأثر بالقدوة والانجذاب إلى المثل العليا ، وشباب فى مثل هذه الحالة النفسية فى أشد الحاجة إلى مزيد من العناية فى التوجيه حتى لا ينحرف ولايتهور .

وما من وسيلة تعينه على ذلك إلا أن تتاح له الفرص أن يسأل ويجاب عما يسأل وأن يجد أشخاصا أوسع منه إحاطة وأشمل تفكيرا يبصرونه بما يغمض عليه ويعلمونه كيف يؤثر مصلحة المجموع على المصلحة الفردية ، ينمون فيه ملكة الإبداع ونزعة

الحرية المتزنة التى تؤمن بالحق كما تؤمن بالواجب ونزعة التجديد التى لايستهويها التقليد ولكن يوحى بها التفكير وروح الوطنية الصادقة .

حضرموت الكبرى

وهذا حلم أو صدى لفكرة « اليمن الكبرى » التى اختمرت فى عقول كثير من اليمنيين ومن على شاكلتهم من الحضارم . وقام بالدعوة إليها بعض الشبان اليمنيين فى عدن وفى غير عدن ومن ورائهم أيدٍ قوية خفية كانت تمدهم بالمال ، دعا أولئك الشبان إلى توحيد إمارات جنوب شبه الجزيرة العربية وضمها إلى حكومة اليمن ، فلما قتل الإمام يحيى لقلب الحكم و إنشاء حكومة جديدة تمهيداً للوصول إلى ذلك الحلم ، ولما نفذ حكم الإعدام على بعض القائمين بتلك الثورة خمدت فكرة « اليمن الكبرى » وهمدت الحركة همودا عميقا .

وفى حضرموت فريق أو جماعة يدعون إلى « حضرموت الكبرى » أو بعبارة أوضح إلى توحيد الحكومتين القعيطية والكثيرية ، وحجتهم فى ذلك أن حضرموت قطر صغير فقير بموارده وغلاته ولا يزيد عدد سكانه على مليون نسمة . والحكومة القعيطية تسيطر على الثغور ومعظم حضرموت . والحكومة الكثيرية تسيطر على مدينتى سيون وتريم ومناطق محدودة فى الداخل ، الأولى إيرادها لا يقل عن مليونى روبية سنويا بينما لا يزيد إيراد الثانية عن مائة وخمسين ألف ربية فى العام .

وهم إنما يدعون إلى هـــذه الفكرة و يسعون إلى تحقيقها لاحبا فى إحدى الحكومتين وكراهية للأخرى ولكنهم يرمون إلى أبعد من ذلك ، فإذا لم يخنهم الحظ وساعدتهم الظروف لتوحيد الحكومتين ، فقد خطوا الخطوة الأولى لتغيير أوضاع الحكم رأسا على عقب .

ولا ندرى ما هى الطريقة لإدماج إحدى الحكومتين فى الأخرى وتوحيد

السلطتين فى سلطة واحدة ؟ وقد سألنى بعضهم حين كنت فى حضرموت عن رأيى فى توحيد الحكومتين فلما سألتهم عن الطريقة إلى ذلك لم يستطيعوا الإجابة أو أنهم يستطيعون ولكن تنقصهم الشجاعة الأدبية .

فهل يريدون إدماج الحكومة الكثيرية فى الحكومة القعيطية ؟ أظن أن آل عبد الله لايرضون ، هل يريدون ضم الحكومة القعيطية فى الحكومة الكثيرية بالطبع لا يقبل القعيطى و بيده الثغور ومعظم مناطق حضرموت ، هل يريدون إنشاء هيئة عليا تسيطر على الحكومتين وتراقب أعمالهما وتفرض إرادتها عليهما ؟

ومن عسى أن يكون أعضاء هذه الهيئة ؟ وهل يثق بهم الشعب كل الثقة ؟ وهل تعترف بها الحكومتان ؟ و إذا اعترفتا بها كهيئة رسمية ذات سلطة عليا ، فمعنى هذا وجود سلطة عليا ثالثة و بدلا من أن يوحد دعاة الوحدة الحكومتين جزءوها إلى ثلاث سلطات .

ومن الغريب أن معظم دعاة « حضرموت الكبرى » يتمنون من أعماق قلوبهم أن تكون حضرموت خاضعة لحكومة اليمن ؛ والأغرب من هذا أن بعض هؤلاء يعلمون كل العلم أن اليمن لاتزال تعيش فى ظلام العصور الوسطى وأن الفقر والجهل والمرض كل ذلك يحصد الشعب اليمنى حصدا فى غير رحمة ولا شفقة ، هم يعلمون أن العدل فى اليمن مفقود ، والأمن مسلوب ، والحرية مكبلة بأغلال من حديد .

هم يعلمون أن اليمن متأخرة فى كل شىء بالنسبة لحضرموت ، وأن اليمنيين أموات والحضارم أحياء ، ومع هذا يريدون أن تخضع حضرموت لليمن وأن يحكم الأموات الأحياء ، فهل يريدون أن يرجعوا الحضارم إلى الوراء مئات السنين ؟

ألا قاتل الله الأغراض إنها تطغو على العقول فتطمس نورها وعلى الضمائر الحية فتسلب روحها وعلى المبادئ السامية فتصيرها معاول هدامة .

ماذا فعلت حكومتا القعيطى والكثيرى ؟ هل ظلمتا الأهالى ؟ هل خنقتا حريات الأفراد ؟ هل عارضتا فى الإصلاح وقاومتا المصلحين ؟ .

كلا ، ولو كانتا ظالمتين لكنت والله فى مقدمة من يدعون ضدهما ، ولكنى لم أر منهما ما يدفعنى للعمل على القضاء عليهما أو على إحداهما .

لاشك أن الحركة سابقة لأوانها ، وكان يجب على دعاة « حضرموت الكبرى » أن يحرصوا على أوقاتهم و يستغلوها فيما يعود على بلادهم بالخير ، كان يجب أن يوحدوا الجهود و يضموا الصفوف للقيام بالإصلاح العام ، ونشر التعليم بين جميع طبقات الشعب ، كان يجب أن يدعوا الحضارم وعلى الأخص الموسرين منهم فى الوطن والمهاجر ليساهموا مع الحكومتين فى ترقية البلاد وتنمية مواردها ، فلو كانوا وجهوا تفكيرهم إلى ذلك وركزوا نشاطهم فيه ، لكانوا أدوا خدمة جليلة لوطنهم و بنى جنسهم ولكانت أعمالهم أثمرت وأينعت وحان قطافها لاسيما وفيهم من لهم كلمة مسموعة وجاه مرموق .

ما أحوجنا اليوم أكثر من أى يوم مضى إلى التعاون الاجتماعى لكى نبطل به غيره من الثورات الهدامة التى ترجعنا القهقرى ، وهذه الثورة الاجتماعية لاتتأتى إلا إذا شبت نار الغيرة الوطنية فى صدر كل مواطن صالح قادر على المساهمة فى إسعاد المجتمع الذى يعيش فى وطنه .

إن السياسة الحكيمة ترمى إلى جعل الأفراد فى رخاء والشعوب فى سعادة ومن أجل ذلك يكون دينا فى عنق من ينصب نفسه لإدارة وتنظيم الشئون العامة و يتصدى للدعوة للاصلاح أن ينسى ذاته و يذكر وطنه وأن يضحى بأعز ما يملك : الصحة والمال ، فى سبيل إسعاد المجموع الذى كرّس نفسه لخدمة مصالحه .

واليمن تحلم أيضا !!

ومن المدهش أن حكومة اليمن ترى أو تعتقد أن إمارات الجنوب مقاطعات تابعة لهـا وداخلة فى حدود مملـكتها الواسعة النطاق والنفوذ وأن الإنجليز هم السبب فى فصلها عن اليمن .

وعلى هذا فليس لحضرموت أو لحج مثلا أن تعتبر نفسها سلطة قائمة بذاتها وأن تثبت وجودها فى الخارج كهيئة أو حكومة ذات سيادة مستقلة .

وعند ماتقدمت سلطنة لحج إلى جامعة الدول العربية فى العام الماضى طالبة قبولهـا عضوا فى الجامعة أو تمثيلها فى اللجنة الثقافية أسوة ببلاد المغرب قامت قيامة ممثلى اليمن فى الجامعة ضد طلب سلطنة لحج وعارضوا بكل تحمس ونشاط ، وحجتهم فى ذلك أن لحج ليست سوى محمية إنجليزية وجزء مقتطع من بلاد اليمن ولا يمكن بأى حال أن يكون لهـا ممثلون فى الجامعة العربية .

ومن الغريب أن بعض أصحاب الفـكر والقلم انحازوا إلى ممثلى اليمن وكتبوا فى بعض الصحف المصرية عن الحالة السياسية فى اليمن وفى إمارات الجنوب ، ولقد دلت كتاباتهم على أنهم يجهلون أوضاع الحياة فى جنوب الجزيرة العربية كل الجهل.

ولسوء الحظ أن معظمنا نحن الشرقيين لاتزال تخدعنا الظواهر وتتحكم على عقولنا العواطف ، ولا ندرى متى نرى اليوم الذى يتحكم فيه العقل على العاطفة لـكى نقول الحقيقة بحذافيرها حتى ولو كانت علينا ؟ .

لقد شاهدت بنفسى الزوبعة التى قامت بين اليمن ولحج أو التى أثارها ممثلو اليمن ضد سلطنة لحج فى العام الماضى واطلعت على الرسالة التى تقدم بها السيد الجفرى مستشار عظمة سلطان لحج لصاحب الدولة رئيس الوزارة المصرية ، بتاريخ ٨ ربيع الثانى سنة ١٣٦٧ ، ١٨ فبراير سنة ١٩٤٨ وفند فيها مزاعم المعارضين لتمثيل لحج فى الجامعة بحجج قاطعة لاتدع مجالا لأولئك الذين يحلمون بضم إمارات الجنوب إلى اليمن .

وفى شهر جمادى الأولى من السنة نفسها أصدر مستشار عظمة السلطان نشرة وزعت على الهيئات والجمعيات والشخصيات، وبما أنها تعطى القارئ فكرة واضحة عن الزوبعة التى أقامها ممثلو اليمن ضد لحج ، وبما أنها تشمل المذكرة التى أرسلها مستشار عظمة السلطان إلى جامعة الدول العربية فقد رأينا أن نوردها هنا بحذافيرها.

مذكرة سلطنة لحج

« تقع مملكة اليمن فى الركن الجنوبى من جزيرة العرب ، وإلى الجنوب منها تقع محمية عدن ، وسلطنة لحج ، وسلطنة حضرموت . إلى إمارات أخرى اشتهرت على ألسنة بعض الكتاب منذ عهد غير بعيد باسم « المحميات » وهى تسمية لاتطابق الوضع السياسى الصحيح لتلك البلاد التى يتمتع كثير منها بنوع من الاستقلال والحرية .

وقد كان لهذه التسمية الخاطئة أسباب ودوافع ، بل أغراض ومطامع ؛ فلا شك أنه مما يسر بريطانيا أن تمنح ما ليس لها بحق حين يقال إن هذه « المحميات » تابعة لها ، خاضعة لسلطانها ؛ فذلك كسب استعمارى كبير تطمع أن تناله . كما أن بعض الذين يحاولون توجيه السياسة اليمنية يرجون من وراء هذه التسمية أن يقع فى وهم العرب أن تلك السلطنات أو الإمارات المستقلة فى جنوب شبه الجزيرة هى أجزاء من مملكة اليمن اقتطعها الاستعمار عن وطنها الأم ليفرض عليها سيادته وسلطانه ، ومن الحق والواجب أن تعود إلى أحضان اليمن ، كما كانت .

وقد وقر هذا المعنى الخاطئ فى نفوس كثيرين من الناس ، وساعد على استقراره انعزال هذه السلطنات أو الإمارات فى ركنها الجنوبى منطوية على نفسها لا تحاول دعاية فى بلاد العرب ولا فى غير بلاد العرب .

على أن بعض الدعايات المعادية قد نشطت منذ قريب لتشويه الوضع السياسى لسلطنات الجنوب تحقيقاً لبعض ما أشرنا إليه من الأغراض والمطامع ، بدأ ذلك جلياً

حين تقدمت سلطنة لحج إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية طالبة قبولها عضواً فى الجامعة ، أو تمثيلها فى بعض لجانها الثقافية ؛ فقد بدر يومئذ صوت معارض يزعم أن سلطنة لحج « محمية » لايسوغ لها الانضمام إلى الجامعة ، وأنها إلى ذلك ليست إلا جزءاً مقتطعاً من بلاد اليمن لايسوغ أن يكون له ممثلون فى لجان الجامعة .

رد سلطنة لحج

وقد ردت سلطنة لحج على هذا الزعم رداً قاطعاً ، وأثبتت بالوثائق والبراهين المختلفة بعده عن الواقع ، وأن المعاهدة المعقودة بين لحج و بريطانيا إنما هى معاهدة مودة وصداقة لا تنقص من استقلالها شيئا ؛ كما أثبتت أنها تتمتع بهذا الاستقلال منذ مائتين وثلاثين عاما ، وقبل أن تستقل اليمن نفسها عن الحكم العثمانى بمائتى عام؛ فليس من المعقول والحالة هذه أن تعتبر هذه السلطنة — فى القديم أو فى الحديث — جزءاً من اليمن المتوكلى وهى تتمتع بما لم يكن يتمتع به من الاستقلال والحرية .

ولا تزال قضية انضمام سلطنة لحج إلى الجامعة أو تمثيلها فى لجانها موضع نظر المختصين لم يفصل فيها بعد ؛ فلسنا نحاول سبق الحوادث بالحديث هنا عن أمر لم ينته بعد إلى غايته .

الكاتب هو

ولكن الدعايات المعادية لم تكتف مع ذلك عن غمز سلطنة لحج و إمارات الجنوب ؛ فأخذ كاتب فى جريدة البلاغ منذ أسابيع ينشر طائفة من المقالات تحت عنوان « مذكرات الكاتب هو » و بتوقيع « أحمد فريد رفاعى بك الوزير المفوض سابقاً » يتحدث فيها عن نفسه حديثاً لانعرف مبلغه من الصدق أو الادعاء ، إلى أحاديث أخرى عن سياسة اليمن يعرّض فيه بالسلطنات والإمارات الجنوبية تعريضاً

لعلنا قد فهمنا ــ كما فهم كثير من المطلعين ــ دوافعه إليه والأغراض التى يرمى إليها من ورائه والمنافع العاجلة التى ينشدها من ترديده واللجاج فيه . . .

أما حديث الكاتب « هو » أو الوزير المفوض السابق ــ عن نفسه فى هذه المقالات فليس يعنينا أن نناقشه فى كثير ولا فى قليل منه ، إذ كان شيئاً يعنيه فى خاصة نفسه ، وفيما يأمل أن يصيب من وراء الإشادة فيه بشخصه والتنويه بذاته وكشف الأسرار عن عبقريته وكفايته وصلاحه للاضطلاع بالمهامّ السياسية الكبرى . . .

وأما حديثه عن سياسة اليمن ــ فى هذه المقالات ــ فقد هممنا أن نرد عليه ونصحح بعض مغالطاته فيه ، ثم آثرنا الصمت ؛ إذ كانت حالة اليمن الداخلية فى هذه الأيام تقتضى من كل غيور على مصالح ذلك القطر العربى الشقيق أن يقتصد فى الحديث عنه حتى لا يزيد نار الفتنة اشتعالا فى بلد تتجاذبه أهواء ومطامع شتى .

ولكن الكاتب « هو » لم يقف عند ذلك الحد فيما يكتب ، فانزلق إلى الحديث عن بعض ما لا يعلم من شئون السلطنات والإمارات الجنوبية ، أو ما يعلم وينكر خضوعا لبعض الرغبات الشخصية أو السياسية ؛ فرأينا حينئذ من واجبنا أن نرد الحق إلى نصابه ، وأن نكشف عن بعض ما تضمنت مقالات ذلك الكاتب من غلط وضلال وتشويه للتاريخ ومسخ للحقائق الثابتة ومحاولة استنتاجات ليست من المنطق فى شىء .

جريدة البلاغ تخالف العرف الصحفى

وقد رغبنا إلى جريدة البلاغ أن تفسح لنا مجالا للرد على بعض تلك المغالطات ووسطنا إليها بعض فضلاء المصريين فى هذا الشأن ، ولكن جريدة البلاغ ــ لاعتبارات غير كريمة ــ أبت علينا هذا الحق ولم تنشر ما بعثنا إليها ندافع به عن أنفسنا تهجمات هذا الكاتب ، فرأينا أن نذيع هذه الرسالة رداً على تلك التهجمات

وتعريفاً للقراء بحالة الركن الجنوبى من شبه الجزيرة الذى يطلق عليه — غلطا — اسم المحميات ، مكررين أشد الأسف من مسلك جريدة البلاغ الذى ينافى الأصول المرعية بين الناس ، فى نشرها مايخالف الحقيقة ، ورفضها نشر الحقائق .

لقد تهجم كاتب البـــلاغ على سلاطين وأمراء تلك البلاد ووصفهم بالخيانة لأوطانهم والسير فى ركاب الأجنبى الغاصب وزعم أنهم من دعاة الانفصال عن العروبة ، ونحن نكتفى بالاشارة إلى ذلك الزعم دون أن نتعرض للرد عليه بمـا يستحق حتى لا نـكون قد انحرفنا عن النقد المركز إلى المهاترات .

ما هى المحميات ؟

لم يخلق الانجليز كما زعم « سعادة » الوزير المفوض سابقاً هذه الإمارات ، وليسوا هم الذين أطلقوا على سلاطينها لقب سلطان ، ولم يفصلوا هذا الجزء من اليمن كما حاول أن يوهم فى مقالاته . إن التاريخ ليتضمن الخبر اليقين وإنه ليذكر فيما يذكر أن حكومة صنعاء لم تحكم اليمن جميعه فى تاريخها ولم تحكم منطقة من مناطق الجنوب قط ، اللهم إلا فى الفترة الواقعة بين سنة ١٠٥٤ هـ وسنة ١١٤٥ هـ حين احتلت جيوشها بعض المناطق الجنوبية ومنها لحج وعدن ؛ أى مدة تسعين سنة فقط . أما حضرموت فقد دخلتها جيوشها خلال هذه الفترة بطلب من سلطانها الـكثيرى لمساعدته فى القضاء على مناوئيه من قبائل يافع ، ولم تمـكث هذه الجيوش فيها إلا سنوات ثار بعدها سائر الجنوب وأخرج جيوش صنعاء من سائر الإمارات وعاد إلى استقلاله السابق ، والتاريخ وهو يقرر هذه الحقيقة الدامغة يقرر بإزائها أن الدول اليمنية فى العصر الإسلامى التى اشتهرت وكان لهـا شأن إنمـا نشأت فى هذا الجنوب ، فى عدن ولحج وزبيد وتعز والمخا وحضرموت ، وهى دول بنى زياد (من سنة ٢٠٠هـ إلى ٤١٠هـ) ثم بنى أبى العلاء فبنى معن — فالصليحيين (إلى سنة ٤٤٠) ثم الدولة الزريعية (إلى سنة ٥٦٩) و بعدئذ دخلت البلاد تحت حكم سلاطين مصر

وذلك حتى سنة ٦٢٠ عند ما استقل بها بنو رسول ، واستمرت سلطنة عدن ولحج المستقلة تحت حكم بنى رسول أكثر من ٢٣٠ سنة ، ثم ظهرت الدولة الطاهرية التى أخضعت اليمن كله لسلطانها نحو ٩٥ سنة ، وقد ذكر التاريخ فى صفحاته نشأة الدولة الكثيرية بحضرموت منذ ثمانية قرون ولا تزال قائمة حتى اليوم .

ويذكر التاريخ أيضاً أن السلطان فضل بن على العبدلى قد استقل بحكم عدن ولحج وبلاد الصبيحة منذ سنة ١١٤٥ هـ واستمر العبادلة يحكمونها حتى اليوم ، ماعدا عدن التى اغتصبها الانجليز سنة ١٨٣٩ م ؛ أى بعد تأسيس السلطنة العبدلية الحالية بنحو مائة وعشر سنوات ، وهذا هو الشأن بالنسبة لسائر إمارات الجنوب : يحكمها سلاطينها منذ مئات السنين ، قبل أن يكون للانجليز أىّ شأن فى مجال السياسة فى هذه النواحى من البلاد العربية ، فليس الانجليز إذن هم الذين فصلوا هذه الإمارات وعينوا عليها سلاطين من أبنائها كما يزعم كاتب البلاغ ، وإنما جاء الانجليز والجنوب اليمنى محكوم بسلاطينه ، وكانت اليمن يومئذ تحت حكم الأتراك اللهم إلا بقعة فى أقصى الشمال الشرقى يحكمها الأئمة الزيديون لاتزيد مساحتها وعدد سكانها عن مساحة وعدد سكان سلطنة من السلطنات الجنوبية ، هذا هو لسان التاريخ يقرر هذه الحقائق ليمحق بها كل ادّعاء يقصد منه التمويه على الرأى العام العربى للوصول إلى نتائج سياسية لا يمكن الوصول إليها دون الرجوع إلى أبناء الجنوب أنفسهم للتعرف على ميولهم ورغباتهم واتجاهاتهم .

أما البيان الذى فصله ذلك الكاتب فى جريدة البلاغ وذكر فيه أسماء السلاطين والإمارات وعدد سكانها فإن أمره لأعجب ، فقد زعم أن عدد السلطنات يبلغ الأربعين وهو قول يدعو إلى السخرية ، إذ يبلغ بالعدد أربعة أضعافه، هذا إلى ما فى البيان من أغلاط فى أسماء الإمارات والسلاطين وعدد السكان .

هل يمكن الانضمام إلى اليمن ؟

ونحن لانرمى من وراء ردنا هذا إلى محاربة الاتحاد اليمنى أو إلى الفرقة والتناحر فيما بين أبناء الوطن الواحد ، فكلنا يؤمن إيماناً وثيقاً باليمن الكبير ، اليمن الذى لايوجد فيه مايميز بين أبنائه فى الحقوق والواجبات ليسيروا صفاً واحداً متراصاً فى طريق التقدم والحضارة فيحتل وطنهم مرة أخرى مكانه تحت الشمس ضمن الأوطان الحرة الكريمة .

نعم لايوجد يمنى يحارب الاتحاد ويدعو إلى الشقاق ولكنه لايوجد فرد من أبناء الجنوب يرضى باتحاد لايعتمد على أساس من العلم والعدالة والمساواة والحرية والديمقراطية والشورى ، فإذا ماتألفت حكومة فى أية بقعة من البقاع اليمنية على هذه الأسس المتقدمة فلن يتخلف عن التعاون والتعاضد معها إلا خائر النفس أنانى الضمير . وسلاطين الجنوب أول من يمدون أيديهم إلى الاتحاد ويعلمون مايسبغه على اليمن جميعه من خير وتقدم ، ولكن الدعاة لضم الإمارات الجنوبية إلى حكومة صنعاء لاينظرون إلى هذه النيات السليمة الصافية لدى أبناء الجنوب سلاطينهم وعامتهم ، بل يركبون حكم رؤوسهم ويأتون من طريق آخر ، طريق مطالبة الانجليز بارجاع هذه الإمارات إلى صنعاء بدعوى أنها كانت تابعة لها والانجليز هم الذين فصلوها عنها حسبما يزعمون ، وما كان للانجليز ولا غير الانجليز أن يتحكموا فى رغبات شعب الجنوب ويبتوا فى مصيره ، فأبناء الجنوب هم الذين يقررون ما يرونه صالحا وذا نفع لهم ولسائر اليمن ، وحق تقرير المصير حق معترف به لدى سائر دول العالم ، والإمارات الجنوبية على استعداد إذا رأت الاتجاهات السياسية تجانب العدالة وتهمل حقوقها الطبيعية أن تدافع عن كيانها بكافة الوسائل ، وأن ترفع قضيتها إلى مجلس الأمن بما لديها من مستندات ووثائق ، وأهمها رغبة أبناء الجنوب فى تقرير مصيرهم بأنفسهم ، وكل محاولة تبذل للافتيات على هذه الإمارات وإنكار حقها فى الاستقلال

وتقرير المصير سيكون مصيرها الفشل والبوار ، لأن الجنوب ليس ملكا للإنجليز يبيعون فيه ويشترون ، وليس الإنجليز من السذاجة والبلاهة بالدرجة التى تحملهم على تجاهل الواقع وإنكار الشعور العام فى سائر المناطق الجنوبية .

إلى دعاة الوحدة

فإلى الداعين إلى ضم المناطق الجنوبية إلى حكومة صنعاء نصيحة مخلصة لوجه الله والدين والعروبة ، نصيحة لانقصد بها – يعلم الله – إلا خدمة هذا اليمن العزيز ، ننصحهم بأن ينادوا أولا بالإصلاح ونشر العلم فى كافة الربوع اليمنية والمساواة بين سائر الطوائف والمذاهب فى كافة الحقوق والواجبات والحرية ، حرية القول والكتابة والتعليم والنهضة بكافة مرافق الحياة ، فإذا ما رأينا نحن أبناء الجنوب هذا التطور المحمود مددنا أيدينا وتوجهنا بقلوبنا وأفئدتنا للنهوض باليمن الكبير إلى أعلا درجات المجد والعزة .

أما محاولة الغض من قيمة هذه الإمارات أو سلاطينها بما ينشره أمثال كاتب البلاغ « المفوض » أما المغالطات التى تنافى الحقائق التاريخية القاطعة ، فكل ذلك لايجدى فتيلا بل يزيد النار اشتعالا .

وقد عمد الكاتب فى مقالاته بمناسبة وبدون مناسبة إلى غمز سلاطين الجنوب ومحاولة الانتقاص منهم ، فقد ذكر أن السلاطين إنما يمانعون فى الانضمام إلى حكومة صنعاء خوفا من انقطاع مرتباتهم أو حرمانهم من مظاهر التبجيل التى تتمثل فى إطلاق المدافع للترحيب بهم عند زيارتهم لعدن ، ولا أسمى هذا إلا إسفافا فى التعبير كما ينبغى أن يترفع عنه وزير مفوض سابق .

إن القضية أخطر من هذا الصغار بل إنها أخطر من أن تكون متعلقة بسلاطين الجنوب أو إمام صنعاء ؛ فالقضية هى قضية الشعب اليمنى بأجمعه لاقضية سلاطين أو قضية إمام مهما كانت قيمة هؤلاء السلاطين أو عظمة ذلك الإمام ، وهذا الشعب

لا يمكنه أن يلقى بمقاليد أموره طائعاً مختاراً إلا لمن اطمأن إليه ووثق به وبانتهاجه الأسس التى تعود على الشعب بالهناءة والسعادة والعزة ، فما لم توجد القيادة الحكيمة فإن كل كلام فى الاتحاد لا معنى له ولا جدوى .

الجامعة العربية واليمن

أما محاولة ذلك الكاتب إثارة الجامعة العربية واستنصارها على إمارات الجنوب ، فما نظن الجامعة أسست لتكون سوط عذاب على الشعوب العربية لا همّ لها إلا تنفيذ رغبات الحاكمين من أعضائها ، وهى إذا سارت فى هذا السبيل ضلت الطريق الذى رسم لها وخانت الأمانة التى نيطت بها ، ونعيذها أن تفجع الشعوب العربية بها، وليس أمينها العام أو ملوك العرب بالذين يجهلون حقيقة الحال فى الجنوب أو بالغافلين عن سير الأمور .

مذكرة سلطنة لحج

وقبل أن أختم هذا الإيضاح التاريخى ، أحب أن أسجل فيما يلى نص المذكرة السياسية التى أرسلتها سلطنة لحج إلى جامعة الدول العربية والوفود التى حضرت جلسات الجامعة بشهر فبراير الماضى رداً على اعتراض مندوب حكومة اليمن ، وهذا نص تلك المذكرة .

حضرة صاحب الدولة :

بعد الإجلال والاحترام ـ اطلعنا اليوم على اعتراضات أبداها حضرة مندوب حكومة اليمن على انضمام سلطنة لحج إلى بعض لجان جامعة الدول العربية عاماً كما اطلعنا على نشريات أخرى غير صحيحة نشرتها جريدة المصرى حول هذا الطلب، وإنى بصفتى مستشار عظمة السلطان وقد انتدبنى لتمثيله فى الجامعة أتشرف بأن أقدم لدولتكم المذكرة الآتية :

أولا : أن سلطنة لحج مستقلة منذ مائتين وثلاثين عاماً وقبل أن يكون للإنجليز أى تدخل فى السياسة العربية وقبل أن تستقل اليمن بمائتى سنة .

ثانياً : أن سلطنة لحج ليست محمية بريطانية ومعاهدتها مع الإنجليز معاهدة صداقة وود، وقد سلمنا الصورة الرسمية عنها إلى معالى الأمين العام .

ثالثاً : أن عظمة السلطان لايتقاضى مرتباً من الإنجليز ولكن بريطانيا فى مقابل استثمار ملاحات بلدة الشيخ عثمان ومقابل المياه الحلوة المستغلة منها تدفع نحو أربعين ألف روبية .

رابعاً : أن سلطنة لحج مستقلة استقلالا داخليا كاملا ولا يوجد فيها مستشارون إنجليز ولا أى موظف إنجليزى ولا أى مندوب من قبل بريطانيا فى أى دائرة وبالأولى المحاكم الشرعية .

خامساً: أن سلطنة لحج مستعدة لتنفيذ الرغبات العربية القومية،ولكنها لاتقبل الانضمام إلى حكومة لاتقوم على أساس نظامى من دستور أو قانون وتطلب من جامعة الدول العربية انتداب لجنة تكون ضيفة عليها لتحقيق الأوضاع الحاضرة فى لحج واليمن وترى الفرق الشاسع بينهما فى النظام وحكم الشورى والحرية الشخصية وحالة التعليم والصحة وغير ذلك من المرافق العامة .

فمن هذا يتضح ما فى تلك الأقوال من مغالطات غير صحيحة ؛ كما أننا نطلب سماع ردنا عليها والوقوف على وجهة نظرنا فى مواجهة حضرة مندوب حكومة اليمن الذى لم يراع الأصول السياسية المتعارف عليها بين الحكومات و بعضها .

وفى الختام أرجو أن تتفضلوا بقبول فائق الاحترام ؟

القاهرة فى	٨ ربيع الثانى ١٣٦٧ / ١٨ فبراير ١٩٤٨	مستشار عظمة السلطان الإمضاء

هذا وإنى أختم كلمتى بأنه ليس هناك طريق للوحدة اليمنية وتنفيذ الرغبات القومية العربية إلا الطريق الذى ألمعت إليه آنفاً ، وهو أن تقوم فى اليمن حكومة نظامية مدنية تعترف بوجود العلم والفن ، ولا تعتبر الجامعات والكهرباء والراديو والطيارات من عمل الشيطان ؟

محمد على الجفرى

القاهرة فى { جمادى الأولى ١٣٦٧
إبريل ١٩٤٨ }

النهضة الاقتصادية وكيف تكون ؟

فى خلال بضع سنوات نكبت حضرموت بمجاعتين الأولى كانت شديدة الوطأة أهلكت الحرث والنسل واضطر بسببها كثيرون من الأغنياء لبيع ملابسهم وفرشهم ليبتاعوا بثمنها طعاما .

ولقد كانت المساعدات التى جاءتهم من الحكومات الإنجليزية والقعيطية والمصرية ومن المحسنين من أفراد الشعب أعظم منقذ لأولئك المنكوبين .

أما الثانية فكانت فى هذا العام وكانت فى بعض المناطق العليا كوادى عمد شديدة الوطأة ، ولا تزال آثارها السيئة باقية إلى اليوم بالرغم من الجهود التى بذلتها الطائرات الانجليزية لإرسال الطعام إلى المنكوبين بطريق الجو .

وليس الجدب وانقطاع الأمطار زمنا أطول مما كانوا يألفونه سبب المجاعة الوحيد كما هو الحال فى المجاعة التى نكب بها شرق السودان اليوم ، ولكنّ هناك أسبابا أخرى أهمها انقطاع المواصلات بين حضرموت والشرق الأقصى فإن كثيرا من سكان حضرموت يعتمدون فى حياتهم على إيرادات أملاكهم بأندونسيا وملايا فقد كانت تدرّ عليهم حوالى ٦٠٠٠٠٠ ستمائة ألف ريال سنويا فى فترات متقطعة ، فلما احتلت اليابان الشرق الأقصى انقطعت المواصلات فانقطع ما كانوا يتسلمونه من النقود .

وهناك سبب هام لحدوث المجاعة وهو أن الأثرياء من الحضارم فى المهاجر حبسوا أموالهم الطائلة هناك ولم يأخذوا بعضها ليستغلوه فى وطنهم فى إنشاء الآبار الارتوازية وشراء وسائل الفلاحـــة الحديثة واستزراع السهول والصحراوات ، وفى تكوين شركات تجارية ومصانع لترقية المصنوعات المحلية وغير ذلك ، ولو استغل كل من أولئك الأثرياء جزءا من ماله لهذه المشروعات الاقتصادية لـكانت حضرموت جنة كما كانت فى عهدها الماضى السحيق ولـكان انقطاع الأمطار زمنا طويلا لاتأثير له كثيرا ، واليهود فى فلسطين حولوا صحارى واسعة قاحلة وأراضى جدباء إلى مناطق زراعية خصبة تدر عليهم الخيرات وذلك لأنهم استخدموا جزءا من أموالهم فى شراء الآلات الحديثة وسحب المياه من طبقات الأرض السفلى إلى سطحها واستزراع تلك الصحارى الماحلة .

ولـكن أغنياء الحضارم كانوا ـ وأظنهم لايزالون ـ غير واثقين من استقلال أموالهم فى وطنهم ، فقد كان الأمن مفقوداً فى البوادى والحواضر ، وكان الأقوياء يعتدون على حقوق الضعفاء ولا رادع يردعهم عن الباطل ويخضعهم للحق وينصف المظلومين ، فأثرياء الحضارم فى مهاجرهم كانوا معذورين والشاعر يقول :

إذا الديار تغشاكم الهوان بها   فخلها لضعيف العزم واغترب

قلنا كانوا معذورين لأن الأمن كان مفقوداً ، أما اليوم فلا عذر لهم البتة لأن الأمن يسود الصحارى والقفار والجبال والوديان ، فلو أن شخصا حمل معه مالا وسار شرقا أو غربا أو إلى الجنوب أو إلى الشمال لمـا استطاع أحد أن يعتدى عليه ويسلب ما معه من المـال .

لقد ران على الأذهان شعور بالغ بعجز البلاد وقصور الحضارم عن ممارسة الاستثمارات الزراعية والنهوض بمـا تقتضيه من مطالب وتبعات ، وحرض الـكثير على تأكيد هذا الشعور وتثبيته فى الأذهان حتى أضحى وهما عاما لم يستطع معه الحضارم أفرادا أو جماعات أن يتعاونوا على مجهود زراعى كبير .

إن الأرض عنصر هام فى الإنتاج الزراعى ، وطرق استثمارها واستغلالها ونظام توزيع ملكيتها فى مقدمة العوامل المؤثرة فى الكيان الاقتصادى والنظام الاجتماعى .

إن فى حضرموت مناطق من الأرض واسعة صالحة للاستنبات والزرع ، وبعضها خصبة كاقليم ميفع الذى يرويه نهر حَجْر ومنطقة غيل باوزير ورخيه وجميع الأراضى الواقعة بين الباطنة ودمون حيث الماء قريب من سطح الأرض والأرض هنا تتكون من الطمى والغرين ، ومن السهل استخدام الآلات النازحة للماء ، وقد جرب البعض ذلك وعلى رأسهم المرحوم الأمير على بن صلاح القعيطى والسادة آل مرتع فنجحو إلى حد بعيد .

أما الأراضى العالية فى دوعن وعَمْد فيعتمد فى زراعتها على مياه الأمطار ، وهى شحيحة جداً .

والزراعة التى تعتمد على مياه الأمطار وتسمى الزراعة الجافة لها قواعد هامة يجب اتباعها لتتلقى الأرض ماء المطر وتحتفظ به فى باطنها ، ويقل ما يتبخر منه بواسطة الحرارة . وأهم هذه القواعد حرث الأرض حرثا عميقاً لتغوص مياه المطر مسافة بعيدة عن السطح ، وأن يكون الحرث متمشياً مع ارتفاعات الأرض وانخفاضاتها لامتقاطعا معها حتى يحتفظ بالماء فى أخاديد الحرث ، ومن الضرورى استئصال الحشائش وتوسيع مسافات غرس المزروعات ليقل ما يفقد من الماء عن طريق نتح أوراق النبات .

وعلى البحر أراض صالحة للزراعة ، ومن السهل استزراعها لابمياه الأمطار ولكن بمياه العيون والآبار الارتوازية ، وهى قريبة من سطح الأرض كما شاهدتها بنفسى فى أثناء رحلتى إلى ريدة ابن عبد الودود . ورمال الصحراء فى المناطق الساحلية رمال بيضاء تحتوى على مادة الجير وهى لذلك أقدر احتباسا لمياه الأمطار وتتسرب مياه الأمطار فى هذه الرمال ثم تتجمع فوق أول طبقة صماء . ولما كانت الأمطار عذبة وأخف من ماء البحر المالح ، فإن هذه المياه تعلو المياه التى تتسرب من البحر فى العادة ،

غير أنه إذا اشتد السحب منها زادت ملوحتها بسبب تغلب مياه البحر المالح على مياه الأمطار المخزونة .

وفى استطاعة المزارعين إذا استخدموا الأنواع الصالحة من الآلات الزراعية الحديثة أن يزرعوا مساحات واسعة جداً من الأرض ، وأن يطمئنوا إلى بذر الحبوب فى الوقت المناسب الذى يساعدهم على إنتاج أكبر محصول ممكن .

وتوجد الآن آلات صالحة لحرث الأرض وبذر الحبوب وحصد المحاصيل ودرسها. وتقوم بالعمليتين الأخيرتين آلة واحدة تحصد المحاصيل وتدرسها فتنقى الحبوب بعد أن تضع الحبوب الناضجة السليمة بعيداً من الحبوب المكسورة ، ولكن هذه الآلة لايمكن استعمالها فى حصد السمسم وهو من الحبوب التى تجود زراعته فى حضرموت ـ لأن حبوبه لا تنضج كلها فى وقت واحد ولذلك لامناص من أن يظل يجنى باليد إلى أن يمكن إنتاج نوع منه تنضج حبوبه كلها معا .

ومنذ ثلاث سنوات أجريت فى السودان تجربة هامة لانتاج الذرة بالآلات ، فقد زرعت منطقة ذات تربة صلصالية مساحتها عشرون ألف فدان فنجحت إلى حد كبير ، والطريقة التى اتبعت فى الزراعة هى كما يأتى :

عزقت الأرض بمجرد ظهور الأعشاب بعد سقوط الأمطار ثم وجد أن عملية العزق الأولى لاتكفى فكررت العملية مرة أخرى واستخدمت فى ذلك جرارات ديزل ثقيلة قوتها ثمانون حصانا ، وبعد عملية العزق الثانية مباشرة استخدمت جرارات صغيرة للبذر ، وذلك بأن توضع البذور فى حوض خاص مثبت على عجلتين تجره الجرارات . وفى قاع الحوض ثقوب يتساقط منها الحب أثناء سيرها .

وخلاصة الكلام يمكننا أن نؤكد أن الآلات الحديثة أصبحت تمكننا من زراعة مناطق لم يكن زرعها ممكنا فيما مضى .

والزارع متى توافرت له وسائل الفلاحة الحديثة وتعلم كيف يستخدمها فى أرضه يضاعف الإنتاج الزراعى بما يعود عليه بسعة الرزق فيزداد طموحه الشخصى و يسعى

إلى الارتقاء بحكم طبيعة البشرية ، وحينئذ نقدم له صحراء مترامية الأطراف لـكى يجعلها جنة .

لاشك أن معظم أصحاب الأراضي فى حضرموت ليس فى استطاعتهم استخدام الآلات الحديثة لعجزهم المـادى . ولذا يجب التعاون . والتعاون فى معناه الاقتصادى هو أن تتضافر جهود جماعة من الناس الذين لايستطيعون مكافحة الحياة بمفردهم للقيام بمشروع يرمون من ورائه إلى تحسين حالتهم الاقتصادية والاجتماعية .

وتنقسم هذه الجماعات التعاونية إلى أقسام أو أنواع . أهمها وأصلحها لنا وأكثرها موافقة لأنظمتنا الدينية والقومية هى « المزارع ذات العمل المشترك » ويسمى عند الإنجليز Societies for joint Tillag وهى فرع من « جمعيات التعاون فى الانتاج الزراعى والصناعى . وفيها تدمج أراضى جميع الأعضاء مع بقاء الملـكية الخاصة القائمة لـكل منهم ، أى تكون المشاركة هنا فى العمل فقط. أما الأرض فتبقى ملـكيتها فردية .

ويوزع الدخل على النحو الآتى :

١ — يقدر لأرض كل عضو قيمة إيجارية فى السنة تدفع له فى نهاية العام .

٢ — تدفع مرتبات الموظفين والخبراء الفنيين والمشرفين على أعمال المزرعة .

٣ — مايتبقى بعد ذلك يوزع على الأعضاء بنسبة ما أداه كل منهم من العمل.

ولمعرفة ما أداه كل عضو من العمل على وجه الدقة يتبع لذلك مقياس للعمل يسمى وحدة العمل اليومى . ويمكننا أن نعرف وحدة العمل اليومى لعمل ما بأنها مقدار العمل الذى يؤديه الرجل المتوسط القوة فى يوم عمل كامل (٨ ساعات عادة) .

ومن المسلم به أن المهارة الفنية وصعوبة العمل لهما شيء كبير من الاعتبار والتقدير، ولذلك فمن البديهى أن يختلف الأجر الذى يعطى لوحدة العمل باختلاف العمل نفسه .

وعليه فإن الأجور التى تقدر لوحدات الأعمال المختلفة تكون مرتبة ترتيبا تصاعديا كلما زادت صعوبة العمل واشتدت حاجته إلى المهارة الفنية .

ويقوم رئيس كل فرقة من الفرق بتدوين وحدات العمل اليومى التى يؤديها كل فرد من أفراد فرقته ، ويراقب هذه العملية مفتش المزرعة .

وللمزارع التعاونية مزايا قيمة :

أولا : زيادة المساحة المستغلة من الأرض حيث إن إدماج الأراضى يؤدى إلى إزالة الفواصل بينها ويوفر المساقى والمراوى المستعملة .

ثانياً : إمكان استعمال الآلات الزراعية الحديثة ، إذ ليس فى مقدور الفلاح ذى الملكية الصغيرة أن يستفيد من استعمال الآلات الزراعية الحديثة لعدم قدرته على شرائها .

ثالثاً : الاستفادة من أحدث الطرق الفنية فى الزراعة يقوم على إدارة المزرعة أخصائيون فنيون فى الزراعة ، وهم بقيادتهم للمزرعة يلقون الإرشادات اللازمة على الأعضاء ويراقبون تنفيذ هذه الإرشادات .

رابعاً : إقامة مشروعات تربية الحيوان والدواجن والصناعات الزراعية وعمل الألبان .

خامساً : العمل على رفع أجور العمال الزراعيين لأن نظام توزيع الربح فى المزرعة التعاونية حسب مايؤديه كل عضو من عمل يعتبر من العوامل المهمة التى تؤدى إلى زيادة دخل الفلاح .

سادسا: تعميم الملكية للعمال الزراعيين .

سابعاً : تأدية خدمات اجتماعية وثقافية .

ويستطيع كل عضو أن يستقل وينفرد بزراعة أرضه مستقلا عن الجمعية عند ما يريد ، على شرط أن يكون ذلك فى فرصة ممكنة أى بعد الانتهاء من السنة الزراعية .

هذا وإنى أرى لزاما علىّ أن أرفع الصوت عاليا وأنادى بأن مشروع إصلاح

الأراضى أمر حيوى للبلاد لايصح القضاء عليه بل يتطلب حتما أن تتضافر الجهود والقوى فى سبيل المضىّ فى تنفيذه وتخصيص المبالغ اللازمة له .

إن الحكومة ليست فى استطاعتها القيام بجميع المشروعات الإصلاحية، وهى ليست مسئولة عن ذلك ، فأهم اختصاصها حفظ الأمن والقضاء بين الناس بالعدل وإنما المسئولون هم القادرون من الرعايا لاسيما الأغنياء منهم .

ملاحظات على المدارس

١ — ليس للتاريخ القومى والجغرافيا المحلية عناية تذكر ، وهذا يرجع إلى عدم وجود كتب فى هاتين المادتين ، ولذا يجب أن تؤلف كتب صغيرة ملخصة تلخيصا وافيا تطبع وتوزع على التلاميذ بالمجان أو بثمن يوازى ماستصرفه إدارة المعارف فى طبع هذه الكتب .

٢ — ليس لدى التلاميذ كتب فى معظم المواد التى يدرسونها، وهذا مما يجعل فهم التلميذ للدرس محدودا مهما كانت الملخصات طويلة ، ولهذا يجب أن يصرف للتلاميذ ابتداء من الفرقة الثانية من المدارس الابتدائية كتب تساعدهم على فهم الدروس بعد شرحها ـ أما فى الحساب فلا مانع من بقاء النظام الحالى وهو توزيع الكتب فى أثناء الدروس فقط لأن حاجة التلاميذ إليها لاتتعدى قراءة المسائل التى يكلفون حلها منها ؛ ويراعى ألا يبدأ استعمال كتب للحساب إلا فى السنة الثانية الابتدائية لأن أطفال السنة الأولى لا يحسنون القراءة .

يجب أن تكون الملخصات لاسيما فى التاريخ والجغرافيا والصحة والأشياء قصيرة ليضطر التلاميذ لمراجعة ما عندهم من الكتب ، وبهذا يتعلمون كيف يعتمدون على أنفسهم ويتقون فى المطالعة ـ الكتب فى جميع المواد موجودة بكثرة فى مصر وأثمانها رخيصة وهى واضحة وضوحا تاما تتناسب مع جميع تلاميذ المدارس الحضرمية ، ولا بأس أن تؤخذ أثمانها من التلاميذ عند توزيعها عليهم .

٣ — جميع مدرسى اللغة العربية والمواد الاجتماعية كالتاريخ والجغرافيا ومدرسى الصحة ومبادئ العلوم والحساب فى أشد الحاجة إلى إرشادات وتوجيهات فى طرق التدريس وعلم النفس، كما أنهم فى أشد الحاجة إلى توسيع معلوماتهم فى المواد التى يدرسونها .

٤ — المدارس فى أشد الحاجة إلى مفتش فنىّ يمر على كل مدرسة مرة فى الشهر على الأقل ليراقب سير التعليم فيها ويمد المدرسين بمـا يحتاجون إليه من توجيهات فى طرق التربية الحديثة وغير ذلك ـ ويحسن بالمفتش أن يستعين فى توجيهاته المدرسين بمجموعة التوجيهات التى تصدرها وزارة المعارف الإنجليزية للمدارس الأولية بعنوان « Handbook of Suggections for Teachers » .

صحة التلاميذ

إنى آسف إذ أجدنى مضطرا لأن أقول : إنى لم أر للنظافة أثراً محسوسا لا فى التلاميذ ولا فى الفصول ولا فى دور المياه ـ فقد شاهدت فى كثير من المدارس تلاميذ مصابين بأمراض جلدية معدية يجلسون بين زملائهم السليمين وشاهدت تلاميذ يمسحون ألواحهم بأطراف أكمامهم ، وقد هالنى قذارة وجوههم وأيديهم وأظافرهم وملابسهم وما تراكم على وجوههم وأيديهم من الذباب ، وشاهدت مراحيض المدارس قذرة تنبعث منها الروائح الـكريهة إلى مسافات بعيدة .

إن دروس الصحة التى يتعلمها التلاميذ لاتفيد إلا إذا طبقت تطبيقا منتظما فى بيئة المدرسة وحياة التلاميذ اليومية ؛ ولذلك أقترح ما يأتى :

أولا : أن يلفت نظر نظار المدارس إلى أن من أهم واجباتهم مراعاة الشروط الصحية فى مكان المدرسة وفى حياة التلاميذ به وأن يحاسبوا على تنفيذ ذلك .

ثانيا : أن تزوّد المدارس بمـا يلزم من استعداد وأدوات لنظافة التلاميذ

الشخصية ، وألا يسمح لهم بدخول الفصول كل يوم إذا لم يكونوا قد قاموا بغسل وجوههم وأيديهم وكانت ملابسهم نظيفة ، و ياحبذا لو كان بكل مدرسة استعداد للوضوء والصلاة وتشجيع التلاميذ الكبار على الاغتسال وتأدية صلاة الظهر بإمامة أحد المعلمين ، ففى هذا فوائد صحية ودينية فى آن واحد .

ثالثا : أن يكون تعليم قواعد الصحة تعليما عمليا مطبقا فيتجه إلى تدريب الأطفال على مكافحة الذباب واتقاء ضرره وعلى كيفية غسل الفجل وما شابهه من الخضروات قبل أكلها لتنقيتها من الميكروبات الضارة وعلى عمل الإسعافات البسيطة فى حالة الجروح والحروق الخ ـ فبكثرة التمرين على ذلك يعتاد الأطفال هذه الأمور وتصبح حياتهم المدرسية مثالا يحتذونه هم وأهلوهم فى حياتهم المنزلية ، و بهذا يكون للمدرسة أثر فى النهوض بالحالة الصحية .

الامتحانات

١ — يعقد امتحان الدور الأول فى أوائل يونيه وامتحان الدور الثانى للراسبين والمستجدين فى أواخر سبتمبر .

٢ — يجب أن تكون اختبارات النقل من فرقة إلى أخرى على نظام الفترات الثلاث .

٣ — يجب أن تكون أسئلة الاختبارات للفرق النهائية من عمل إدارة المعارف وأن تراقب الامتحانات مراقبة دقيقة وأن تكتب أرقام سرية لأوراق إجابات التلاميذ .

٤ — يجب أن يراعى فى وضع الأسئلة الطريقة الفنية لكيلا يظلم التلاميذ

٥ — يجب أن تكون لدرجات كل مادة نهاية صغرى ونهاية كبرى وأن تكافئ إدارة التعليم المتفوقين من التلاميذ تشجيعا لهم .

٦ — يجب أن تمنح لكل ناجح فى نهاية كل مرحلة من مراحل التعليم الثلاث شهادة من إدارة التعليم وتمنح كل مدرسة الناجحين من فرقة إلى أخرى شهادات تثبت نجاحهم .

٧ — تبدأ الإجازة الدراسية السنوية فى شهر يونيه بعد الانتهاء من امتحان الدور الأول حيث تشتد الحرارة ، ويبدأ العام الدراسى فى أوائل أكتوبر من كل سنة .

منهج التعليم

منهج التعليم المعمول به فى مدارس الدولة القعيطية هو منهج السودان ، وهو فى مجموعه لايتمشى مع حاجات البيئة الحضرمية ، وعلماء التربية فى كل الدنيا قالوا إنه عند وضع أى منهج للتعليم يجب أن يراعى فيه الاحتفاظ بالطابع القومى ، وأخطر شىء أن نكون مقلدين نأخذ منهج التعليم بدقة من غيرنا ونطبقه على مدارسنا فلكل أمة خصائصها وما يصلح لفرنسا لايصلح لانجلترا ، وما يصلح لمصر لايصلح للشام ، ومايصلح للسودان لايصلح لحضرموت ـ لذا يجب أن يتمشى المنهج مع الظروف الاجتماعية والخصائص القومية والاستعدادات العقلية لأبناء الوطن ، وخير مثال لذلك الإنجليز فهم يعترفون بالاستقلال فى تفكيرهم لقد جددوا فى أساليب تعليمهم ولكن بعقل وحذر فحرصوا على أمرين :

أولا : أن يحوّروا كل طريقة يتبعونها تحويرا يجعلها مناسبة لأمتهم ولعقلية أبنائهم ، وقد يصلون بالتحوير إلى التغيير والتبديل وابتكار أساليب جديدة .

ثانيا : أن يحتفظوا بالمزايا القيمة التى تمتعت بها مدارسهم كاملة غير منقوصة وهذه المزايا هى العناية بالتربية البدنيـــة وحرية الفكر وبالاهتمام بالجو الخلقى والاجتماعى كل ذلك من أكبر ماساعد على تطبيق المبادئ

الحديثة ، ثم يجب أن يبين المنهج على أساس سيكولوجى، فإن علم النفس قد أثبت أن لكل مرحلة من مراحل النمو الإنسانى الجسمية والعقلية خصائص يجب أن تتمشى معها أساليب التربية والتعليم إذا أريد لها النجاح ؛ يجب أن يكون أساسه استغلال النشاط الطبيعى الذى خلقه الله فى الإنسان .

والنجاح فى الحياة يتوقف على حد كبير على الأخلاق قبل المعرفة ، فالأمانة والصبر والاعتماد على النفس وحب العمل وتقدير الشغل اليدوى واحترام النفس والعطف على الضعيف ، والرغبة فى النجدة.

كل ذلك من أهم الأسس التى يجب أن يبنى التعليم عليها ، وكل هذه الصفات لاتكتسب بالوعظ والإرشاد والاستماع إلى المحاضرات وإنما يتم الإعداد للحياة بالحياة ، فلنجعل المدرسة صورة من صور المجتمع الحقيقى ولنجعل أساس التعليم شعور التلميذ بالحرية أولا ثم بالحاجة إلى المعلومات التى يريد أن يكتسبها ، وأن يكون موقفه فى ذلك موقفا إيجابيا لا سلبيا ، والمدرس يوجهه توجيها ويقدم الإرشاد له .

جاء فى تقرير اللجنة الاستشارية لوزارة المعارف بانجلترا المعروف باسم تقرير « هادو » والذى صدر فى سنة ١٩٢٦ ما يأتى :

إن التنظيم التعليمى يكون ناجحا ومثمرا بقدر مايبنى على الحقائق الفعلية لنمو الأطفال والفتيان . . . . وعند الانتقال من الطفولة إلى المراهقة يشعر الفتى فى كثير من الأحيان بقوى وميول جديدة ، فإذا أردنا أن يكون التعليم وسيلة لإيقاظ العقل وأن يشعر التلاميذ أنه شىء له معنى وقوة على الإيجاد للنفس لا أنه مجرد استمرار العمل ، فيجب أن يخاطب تلك الميول ويعمل على تنمية تلك القوة العقلية . وبالإجمال يجب أن ينمو ويتسع بنمو الأطفال الذين يهيأ لهم ، وسيكون

التعليم أنجح فى تحقيق ذلك إذا جعلت العلاقة بين مراحله المختلفة بحيث تتفق بداية كل مرحلة منها مع بداية طور جديد فى حياة الأطفال أنفسهم .

أرى أن يقسم التعليم فى حضرموت إلى ثلاث مراحل مدة كل منها أربع سنوات وتخصص لكل منها مدرسة مستقلة ، وهذه المراحل هى :

١ — المدرسة الابتدائية .

٢ — المدرسة الوسطى .

٣ — المدرسة الثانوية .

١ — المدرسة الابتدائية

تكون حدود السن فيها من ٦ سنين إلى ١٠ فى المتوسط ، فيجب أن يستلهم التعليم فى المدرسة الابتدائية روح التعليم فى رياض الأطفال فتهيئ المدرسة للأطفال وسطا ملائما للنموّ عن طريق النشاط العملى والتعبير الحر باللغة والرسم والتمثيل الحركى وعمل النماذج وما إلى ذلك وتتخذ من هذا النشاط لتعليم القراءة والكتابة والعمليات الحسابية الأساسية وتشجيع الطفل على دراسة بيئته المباشرة من نبات وحيوان وظواهر طبيعية و بشرية بسيطة دراسة مبنية على المشاهدة الحسية .

وينبغى أن يتبع فى هذه المدارس نظام معلم الفصل « لا نظام معلم المادة » فإن ذلك أكثر ملاءمة لروح الطفولة ، ولن يكون فى مناهج المدرسة الابتدائية مايحتاج إلى معلم أخصائى فى أى مادة .

خطة الدراسة بالمدارس الابتدائية

عدد	المادة	عدد الدروس فى الأسبوع السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة
١	الديانة	٢	٢	٣	٢
٢	اللغة العربية ، المحادثة والقراءة ، والكتابة، وتحسين الخط، والمحفوظات والأناشيد .	٨	٨	١٢	١٣
٣	الحساب	٦	٦	٦	٦
٤	الأشغال	٤	٤	٣	٣
٥	الرسم	٢	٢	٢	٢
٦	مشاهد الطبيعة والصحة	٢	٢	٢	٢
٧	القصص	٢	٢	٢	٢
٨	الألعاب والموسيقى	٤	٤	٤	٣
٩	الجغرافية	—	—	—	١
١٠	التاريخ	—	—	—	١
	الجملة	٣٠	٣٠	٣٤	٣٤

ملحوظة : عند توزيع الحصص على الأيام ينبغى ألا يزيد عدد حصص كل من يومى الاثنين والخميس على أربع حصص على أن يستبدل بقية يوم الاثنين فى النشاط المدرسى .

(١) تبدأ الحصة الأولى الساعة السابعة والنصف صباحا .

(ب) حصص اللغات والرياضة تكون فى الصباح .
(ح) يجب أن ينتهى المقرر فى أواخر إبريل ليكون شهر مايو المراجعة .

٢ — المدرسة الوسطى

عند ما يبلغ الطفل سن العاشرة يمكنه أن يبدأ فى الانتفاع بالكتب فى تحصيل المعلومات ، وهو لا يهتم بعد بالأفكار المجردة والنظرات بل لايزال اهتمامه منصبا على الحقائق الواقعية التى يصل إليها من طريق الخبرة الحسية أو الصور الذهنية ، و يتجه خياله الإنشائى وميله الغريزى إلى الحل والتركيب اتجاها واقعيا نفعيا — وفى تلك السنة يظهر فيه الميل والاندماج إلى جماعة منظمة لها قوانينها وتقاليدها ، و يأخذ فى توقيف سلوكه على حياة تلك الجماعة ونظمها و يقوى شعوره بالولاء لها ، ومع أنه لم يصل بعد إلى مستوى إخضاع سلوكه للمثل العليا الموجودة فإنه يكون شديد القابلية للتأثر بالشخصيات القوية البارزة فى المجتمع الذى يعيش فيه ، ومما يقرؤه من سير أبطال التاريخ والقصص. لهذا ترى أن مهمة المدرسة فى هذه المرحلة هى تهيئة الوسط الاجتماعى الملائم لنمو شخصية الفتى وتوجيه ميوله الاجتماعية توجيها صالحا والعناية بتوسيع دائرة خبرته ومدى فهمه لطبيعة الأشياء عن طريق النشاط العملى ، والعمل على تربية تذكيره وقدراته العملية الابتكارية وتنمية ملكته اللغوية .

وتكون خطط التعليم ومناهجه فى هذه المرحلة واحدة فى أساسياتها لجميع التلاميذ، على أن تراعى المرونة فى تطبيقها بحيث يمكن مواجهة ما يوجد بين التلاميذ من فروق فيودية فى هذه المرحلة ، وعلى أن يراعى فى تدريس الموضوعات بسطها بسطا قويا بالبيئة التى يعيش فيها الطفل وحاجات الحياة العملية ، فتختلف الصبغة العملية فى مدارس الريف عنها فى مدارس المدن الداخلية أو مدارس المدن الساحلية أو مدارس البيئة الصحراوية ، كما تختلف فى مدارس البنين عنها فى مدارس البنات ، إذ أنها فى هذه الأخيرة يجب أن تتصل بشئون المنزل والأسرة أوثق الاتصال .

خطة الدراسة بالمدارس الوسطى

عدد	المادة	عدد الدروس فى الأسبوع			
		السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة
١	الدين	٣	٣	٣	٣
	اللغات				
٢	اللغة العربية	٧	٧	٧	٧
٣	اللغة الإنجليزية	٧	٧	٨	٨
	مواد اجتماعية				
٤	التاريخ	١	١	٢	٢
٥	الجغرافيا	٢	٢	٢	٢
	الرياضة				
٦	الحساب	٦	٥	٤	٢
٧	الهندسة	—	١	—	٢
	العلوم				
٨	أشياء وصحة	٢	٢	—	—
٩	طبيعة	—	—	٢	٢
١٠	الكيمياء	—	—	—	—
١١	الرسم	١	١	١	١
١٢	موسيقى وأناشيد	١	١	١	١
١٣	التربية البدنية	٢	٢	٢	٢
١٤	الأشغال	٢	٢	٢	٢
	الجملة	٣٤	٣٤	٣٤	٣٤

ملحوظة :

(ا) عند توزيع الحصص على الأيام ينبغى ألا يزيد عدد حصص كل من يومى الاثنين والخميس على أربع حصص ، على أن يستغل بقية يوم الاثنين للنشاط المدرسى .

(ب) حصص اللغات والرياضة تكون فى الصباح .

(ح) يجب أن ينتهى المقرر فى أواخر إبريل ليكون شهر مايو للمراجعة .

(ء) تبدأ الحصة الأولى فى الساعة السابعة والنصف صباحا لقرب منازل التلاميذ من مدارسهم .

المدرسة الثانوية

أهم الصفات التى تتميز بها مرحلة البلوغ شعور الفتى بشخصيته شعورا قويا ونزوعه إلى الاستقلال فى تفكيره وتصرفاته ، وتطلعه إلى حياة المستقبل واهتمامه بتفهم المثل العليا الخلقية ، واشتداد ميوله العقلية والفنية والاجتماعية وتنوعها ، وظهور الفروق الفردية بين التلاميذ فى الميول والاستعدادات ظهورا واضحا يتعين معه أن ينوّع التعليم لهم فتكون هناك مدارس ثانوية نظرية تتبع الميول الفكرية للتلاميذ ، ويراعى فيها الإعداد للدراسة العلمية العالية ومدارس ثانوية فنية تعدُّ الفتيان للحياة العملية من زراعية وتجارية وصناعية .

خطة الدراسة بالمدارس الثانوية

المادة	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة
الدين	٣	٢	٢	٢
اللغات				
اللغة العربية	٨	٨	٧	٧
اللغة الإنجليزية	٧	٧	٧	٧
مواد اجتماعية				
التاريخ	٢	٣	٣	٣
التربية الوطنية والأخلاق	—	٢	٢	—
الجغرافيا	٢	٢	٢	٣
الرياضة				
الحساب	٣	٢	—	—
الجبر	—	—	٢	٢
الهندسة	١	١	١	٢
العلوم				
الطبيعة	٢	٢	٢	٢
الكيمياء	—	١	٢	٢
علم الأشياء	—	—	٢	٢
الموسيقى والأناشيد	١	١	١	١
الرسم والأشغال	٣	٢	٢	٢
التربية البدنية	٢	١	١	١
الجملة	٣٤	٣٤	٣٦	٣٦

إعداد المعلمين

أجمعت تقارير اللجان المكونة لإصلاح التعليم فى كل العالم ، على أن المعلمين يجب أن يكونوا من خيرة الناس عقلا واستعداداً ، وأن المعوّل كله فى إصلاح التعليم على المعلمين ، ومن غير معاونة المعلمين وتمكينهم من هذه المعاونة تكون الإصلاحات المقترحة مجرد إصلاحات إدارية فقط .

ومن المسلَّم أن مهمة التعليم شاقة جداً ، ومن الخطأ البيِّن الاعتقاد بأن التعليم يمكن أن يوكل إلى أناس من الدرجة الثالثة أو الثانية .

ومما تجدر الإشارة إليه أن رغبة الشعب الحضرمى فى التعليم شديدة ، وأن حاجة المدارس إلى المعلمين الأكفاء أشد ، وقد شاهدت بعض مدارس بها أربعة فصول واثنان من المعلمين ؛ وفى مدينة حورة أكثر من مائتى وخمسين ولدا يهيمون فى الشوارع ويقضون أوقاتهم سدى : لأنهم لايجدون مدرسة يتعلمون فيها ، وإذا كانت أزمة المعلمين وصلت اليوم إلى هذا الحد فكيف تكون الحالة بعد بضع سنين ، وكيف نتصور النتائج السيئة فى سير التعليم التى ستتركها أزمة المدرسين .

لهذا أقترح ما يأتى :

أولا : إيقاف فتح مدارس جديدة ثلاث سنين على الأقل .

ثانيا : إنشاء مدرسة للمعلمين يلتحق بها خريجو المدرسة الوسطى ليقضوا بها ثلاث سنوات يدرسون خلالها علم النفس ، وطرق التربية الحديثة ، والتربية العملية ، والجغرافيا ، والتاريخ ، وغير ذلك .

فبعد ثلاث سنين من إنشاء المدرسة سيتخرج أول فوج من المعلمين الأكفاء الفنيين ، وسيسدون أكبر فراغ من المدارس ، وسيقومون بأعمالهم على أحسن ما يرام .

خطة الدراسة بمدرسة المعلمين

عدد	المادة	عدد الدروس فى الأسبوع		
		السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة
	علم النفس	٢	٢	٣
	تاريخ التربية	١	١	١
	طرق خاصة	٢	٢	٢
	التربية التجريبية	—	—	١
	التاريخ	٢	٢	٢
	الجغرافيا	٢	٢	٢
	التربية العملية	—	٣	٥
	الرياضة البدنية	١	١	١
	الهوايات	٢	٢	٢
	الأدب العربى	٢	٢	٢
	الجملة	١٤	١٧	٢١

قصيدتا ابن النقيب ، والدمونى

نورد هنا قصيدة قالها بالشعر الحمينى عبد الله بن صالح بن النقيب اليافعى بعد استيلاء يافع على شبام و بعد مقتل السلطان منصور ، ورد عليه عبد الحق الدمونى .

قصيدة ابن النقيب التى مطلعها

يارب سالك بلسما كلها تشرح — من الخطايا عسى بالعفو يوم النور

اغفــــــــر ذنوبى إلهى رب لا تفضح

راجيك تكرم بجودك عندى التقصور

إلى أن قال :

ذا فصــل والبارح النوم اشــتعف روّح

طول الدجا ما هنيتــــــــه والسهر منكور

الناس ناموا ونا بطلت فى المسدح — لا هم دنيا ولا باطل على مقهور

الحمــــــــد لله نود القبولة يذلح — لانا بلا قوت فى الصغر أو لا محصور

العز يكفى أذانا وسطها أتبجح — من ساحة الحصن لما دارنا المشهور

يسلم عمر بن عوض فوق العدو دَيَّحْ — بالحال والمال والمدفع عليه يثور

وصلوه ربعه كما لظبا سوا ترزح — وخلوا العبد يدحا فى الجبل مكسور

يدعون من فوق طيب ياولد افتح — وأهل النمش فى تلاهم هلبوا زمهور

وحمــلة الشرق لى خافتــه يوم أكلح

والركز شاف القياميه نفخها فى الصور

من بعدها ديف المكسور مارنح — ولا حسب لى بقلبه عندنا محذور

عينه بقطعات بايذبح وبا يقدح — عايب يروم الجماعة : هاك يالمصنفور

نفخوك بالعيب كل فيك يتمدح　　ذا خلع بيدك خلعته فيش من محذور

دثرك وقع لك تفطن من قتل لـكسح

و بن حمود ايش لقى فيـــــك يالقنتور

ما حد يشارك بحرمه صو بها ينضح　　ما يصلح العقد بين اثنين يالمدمور

فى لوله قد قمرت الناس يالا جلح　　والتاليه غاب سحرك فر يالمسحور

وقعوا له آساد غاصوا له وهو يسبح　　لقفوه فى منزله حوش بهم قنبور

ولو هو إلاّ سبق كم نذل بايفرح　　و با يقولون دامت بيده المنبور

قم يا رســـولى من ادّمنه شبام اسرح

حلواوسطها بنى مالك رجال صـــــدور

لى ذلاـــــــوا صعبها خشفوه وتسمح

من بعـد ما كان يطمر فى السما مذعور

إلى أن قال :

واقصد إلى الشعب ذى هو بالرصاص افلح

نعمته لا خيم البارود فــــــوق القور

فيه آل سلمه دريك الحرب لاصيح　　وارم المعلم سعيد اشرح له المسطور

قله يقول السعيـدى عيثنا طرح　　فوق المدينـــة تهنا نخلها وذبور

ما هو كما غيثكم كل لغب يلفح　　يرعد و يبرق وتاليه ارتكزن عكور

يشير فى هذا البيت إلى كفاح آل تميم ضد الدولة الـكثيرية الحديثة :

شف من لغب مالغبنا كان يوم أفسح

واليافعى دوب وقتـــــــه يذلح المنزور

حدراً وعلواً شفوا من ذل يتفلقح　　من لاتنكف لنفسه ريت له معقور

ذا وقت كل بعقـــله من ظمى ينزح

من شاوف الناس يحرم لاضوا مجبور

وأجابه المعلم عبد الحق فقال :

لاحت بروق الظفر فى الليل ذى جوّح

وحنّ رعد الجيـــــــله فوق روس القور

رغاى من فوق يهـــــــدر والمزن تطرح

فتكت ســـــــيوله وروّا ذبره المعمور

وجا مكتب وقال إنَّ لأُنت خصم افرح

يافع طووا لآل عِيْسَىٰ أُمْبدر بالأمور

ذى سيلهم كان فى ظلمه بليل أكشح

واليوم من بعد تلك الظلمه أُمست نور

والوعل لى كان فى لصبار يتبجح ما يعرف الدقم خايف دثره المدثور

فى الجوّ راسه إذا شاف القنص زوح

غير الأجل فى الصحائف يوم له محذور

يوم انقضى العمر من شاهق جبل لوح

ولعاد عرقه شبا منها ولا عـــــــترور

من غيرنا هل ورد للدقم وتسمح عسفوا قرونه وشربوا دمه المنثور

تقنو فعائله لى تاذى ولى تجرح وَلاً فوالله ماحد يقتل المأسور

الجيد يللى قتل فى سوقها نفرح ليته قتل يوم لاقا تحت فتش الدور

غير المنيه رمت به ابن عصم لبيح ماعاد يعزم بنفسه لو يكن معذور

ما تصمد الحذفه إلا كل راس أقرح

ومن ذرا بر حصـــــل ذريه المبرور

ومن درى شوك مثله قط مايربح هو من ذَرَا ذرى للحيله كما منصور

اشغله بيع المنيحه شافها تنضح ولاأ شغلته البقش لى تكسر العبرور

الفقر يازى وذكر الفقر لأصبح

وصاحب الفقر يقطع زنده المسور

يا عازم اعزم من الشعب الورب واسرح

واقصد شبام التى محصورها مجبـــور

تلقى محمـــــد إذا جا الضيف يتفرح

وإن لاضوا بات فى جنح الدجا مذعور

قلّه مهنى لـكم بالفلك ذى طرح ذى كسروا يافع إذ قاله وهو مصمور

إلى أن قال :

يا عانى اقصـد لمن فى ديرته رنح

من بعد شدة ليالى قد مضت وعصور

خصه سلامى وقل له يا السعيدى صح

صوب المعلم وهو من شأنكم معكور

وصل كتابك وبطنه كل سطر أسمح

كأنه من النحو فيــه الجار والمجرور

الحرمة العاقر التى صـــوبها ينضح

صارت لـكم بكر بعد الماسى المـكسور

والصقر ذى فى الهـــوا يصقر إذا ميح

برك وصارت عيونه من فعاله عور

ذلاّ من السعـــد ولاّ كان بايبرح

غزلوا يفوعه شبك من غزله المنزور

ومنهـــــا :

هذا جوابك : وتذكر غيثكم يذلح وغيثنا بعد رعده ارتكزن عكور

كله من الريح لى منـــــه المزن تلقح
يوم اشتعف صار غيث القبوله منخور

إلى أن قال مشيراً إلى حرب الدولة مع آل تميم و بمعيتهم عبد القوى ابن غرامه :

نحن وأنتم فسحنا والعدو ما أُفْسح
إلاَّ أُنْ ظهر سيل منكم ذى يزوع القور
والخصم يابو على بالصلح يتفـــــــــرح
قايس من أرض التميمى بايقع مقصور
أمسى كما الغار وسط الغـــــار ذى يلفح
وفوق ذلك طرحنا تحته النــــــــور
ومن لغب خلها فى الديم لا تفذح قد خير يبقى المخبا بيننا مستور

معاهدة عدن

بسم الله الرحمن الرحيم ـ أما بعد : قال الله تعالى فى كتابه العزيز « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » وقال تعالى « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » وهانحن ولله الحمد مؤمنون بالله ومتبعون لهدى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعتقدون فى اجتماع الكلمة لما يعود نفعه للمسلمين وصلاح العباد والبلاد ، وراغبون فيما يوجب الأمن والراحة للأهالى ورفاهيتهم فى داخل البلاد وخارجها ؛ فلهذه الدول الكرام القعيطية وآل عبد الله عقدوا بينهما معاهدة مؤبدة إلى أن يشيب الغراب و يفنى التراب ، وهما السلطان السر غالب بن عوض ابن عمر ، وعمر بن عوض بن عمر القعيطى عن أنفسهما وورثائهما وخلفائهما ومن

يكفلهما من جهة ، والسلاطين منصور بن غالب ومحسن بن غالب آل عبد الله عن أنفسهما وورثائهما وخلفائهما ومن يكفلهما من جهة وجعلوا الشروط الآتية :

الشرط الأول :

يرتضى السلطان القعيطى مولى الشحر والمكلا وسلاطين آل عبد الله أهل كثير أن يكون إقليم حضرموت إقليما واحدا ، وأن الإقليم المذكور هو من متعلقات الدولة البريطانية تابعا لسلطان الشحر والمكلا .

الشرط الثانى :

يقر السلطان القعيطى مولى الشحر والمكلا أن سلاطين آل عبد الله هم سلاطين الشنافر ، ولكن أهل عبد الله يحكمون فى داخل حضرموت على مدن وقرى سيون وتريم وتريس والغرف ومريمة والفيل، وصار الاعتراف أن فخذ الشنافر الآتى ذكرهم تابعون لسلاطين آل عبد الله وهم آل عمر وآل عامر والفخائذ الكثير والعوامر وآل باجرى وآل جابر وماشملته حدودهم ، وهى معروفة مشهورة .

الشرط الثالث :

يتعهد السلطان القعيطى مولى الشحر والمكلا عن نفسه وورثائه وخلفائه من الجهة الأولى بأنه يقر ويعترف بالحقوق والسيطرة لسلاطين آل عبد الله وورثائهم وخلفائهم فى المدن والقرى المذكورة ، وعلى فخذ الشنافر المذكورة فى الشرط الثانى المذكور أعلاه ، وأنه لن يتعرض لهما فى أى أمر كان مطلقا ، وأنهم سلاطين مستقلون فى بلادهم المعينة فى الشرط الثانى .

الشرط الرابع :

يقبل سلاطين آل عبد الله عن أنفسهم وورثائهم وخلفائهم من الجهة الأخرى بأنهم لن يعترضوا بأى طريقة كانت للحكم على حضرموت ماعدا المدن والقرى المذكورة فى الشرط الثانى ، وكذلك الفخذ المذكوة فى الشرط المذكور ويقروا ويقبلوا بأنه ليس لهم حق فى التعرض فى محلات أخرى .

الشرط الخامس :

يرتضى سلاطين آل عبد الله أن يقبلوا أن المعاهدة المنعقدة بين الدولة البريطانية ودولة القعيطى فى سنة ١٨٨٨ رابطة لسهم وكأنهم جعلوها ويرتضوا بأن يمتثلوا بشروطها بأمانة ويرتضوا أيضا أن تكون جميع معاملاتهم ومراسلاتهم مع الدولة البريطانية بواسطة السلطان القعيطى مولى الشحر والمكلا .

الشرط السادس :

كلا الفريقين يقبلان أن يوقفا الفتن فى الحال والاستقبال حالا ، ويقبلا أن ينسيا ويعفوا عن كل ما سلف ، وأن لايصير من أحدهما انتقام أو مطالبة فى عوض ويرتضيا أن يحافظا فى المستقبل على الأمان فى السبل الكائنة فى حدودهما المعروفة وإجراء العدالة طبقا للشريعة واحترام السادة العلوية وإسعاف المظلوم وإقامة العدالة العامة فى حدودهما المعروفة .

الشرط السابع :

يقبل المذكورون أن يساعد بعضهم بعضا إذا حصل خلاف من أحد الحزبين على رعاياهم وأصحابهم ، ومن تعلق بهم أوعلى شريف أو عابر سبيل أو قاصر يد ويقبلوا أن يحافظوا على أرواح وأموال بعضهم بعضا وأتباعهم ورعاياهم ومن يلوذ بهم

ماداموا فى حـدودهم المعروفة ، وأن يعاملوهم بالعدل والإنصاف كمعاملتهم لغيرهم من أصحابهم .

الشرط الثامن :

يرتضى المذكورون بأن تكون الحرية المطلقة للتجارة ، وأن تؤخذ العشورات بالمقدار المرتب على جميع الناس سواء كانوا رعايا أىّ أحد كان من السلطانين المذكورين.

الشرط التاسع :

إذا رغب أحد السلاطين المذكورين أعلاه أن يزور الآخر ينبغى أن يخبر بمراده حتى يكون الاستعداد لمقابلته بالاحترام الواجب ، ويحتاج أن لايزيد مقدار العسكر عن خمسين نفرا اتقاء لحدوث الفتنة بين العسكر .

الشرط العاشر :

سلاطين القعيطى وسلاطين آل كثير يقبلون بالسوية أن يعاون بعضهم بعضا بحسب مقدرتهم واستطاعتهم فى أى تدبير فيه صلاح حال حضرموت ورقيها .

الشرط الحادى عشر :

مقابلة لقبول الشروط المذكورة أعلاه من لدن سلطان الشحر والمكلا وسلاطين آل عبد الله كثير سوف تجتهد الدولة البريطانية أن تصلح جميع المخاصمات الناشئة فى المستقبل بين المذكورين بعد تاريخ هذه المعاهدة بالتحكيم بواسطة والى عدن .

حرر فى ١٧ شعبان سنة ١٣٣٦
شهد على الإقرار المذكور

سالم بن جعفر بن طالب

شهد على الإقرار المذكور

ناصر بن عمر بن يمانى بن مرعى بن طالب

صحيح غالب بن عوض القعيطى
شهد بذلك

حسين بن حامد المحضار

وفيه شهادة والى عدن بالإنجليزى

معاهدة بين القعيطى و آل تميم

الحمد لله وحده ، بتاريخ ثلاثين شهر القعدة سنة ١٣٣٦هـ فقد حصل الاتفاق بين السيد حسين بن حامد المحضار نائب الدولة القعيطية والقائم مقامها ، و بين المقدم على ابن أحمـــد بن يمانى وقبيلته آل تميم الآتى أسماؤهم ومباديهم أسفل المسطور وأقروا وارتضوا واحتملوا بوجيههم المقدم على بن أحمد بن يمـانى ، وقبيلته آل تميم للسلطان غالب بن عوض القعيطى أن كل ما شله وتحمله بوجهه لأهل عينات ومشطه والقرية والمسيلة ، وماشله وتحمله السلطان غالب بن عوض للدولة آل عبدالله ورعاياهم فى حاذهم و باذهم وما لهم وما يشوممهم و يلوممهم ، وفى القرى المذكورة أعلاه من جهة المـالية حيثما كانت فى أرض التميمى ، وفى إقامة العدل والإنصاف ورد المخالفات وأمان السبل الجميع معنق بوجوههم، وليس لهم فى مال الشائم إلا العادة المعتادة من له الخمس ومن له العشر ، ومن له نصف العشر ، ومن له ربع العشر ، ومن قد باع أو رهن فليس له شىء والعمدة على ما شملته خطوط البيع والرهن ، ومولى المـال مختار فى ماله وعلى آل تميم الشرحان والحفظ والصيانة ورفع يدهم من كل باطل وفرقة ومضرة على أهل المـال ، وليس يحصل على أهل المـال منهم لاترويع ولا تقريع ولا تمنيع وقت تخبير أووقت قطيع وغيره ، وأن يقوموا لأهل المـال بكل شرع وافى ، وعلى أهل المـال غدا لك رح فى المـائة أربع خبر ، وما دون المـائة كل شىء بحسابه وهو قاطع لجميع العوائد من دون ما ذكر أعلاه فليس لهم غير ذلك ، وكل من لم يرتض ولم يطرح إقراره على هـذا الوثر من آل تميم ، ولا ارتدع من المخالفة ، وأخذ زيادة على ماذكر أعلاه أو طرح إقراره ووجهه على هذا الوثر ونكث فهو عائب ومقطوع ومجلوز من جميع المنافع ومقطوعة خوّته وسيارته من كل بدى من آل تميم ، ومن دولتهم

المكرم السلطان غالب بن عوض القعيطى ، ومن المقدم على بن أحمد بن يمانى ومن قرب للمخالف نفاعه أو سيره أو سائره فهو مخالف ، وشرطه شرط المخالف ، وليس يصيب ولا يعلق وجه للدولة آل عمر بن عوض والمقدم على بن أحمد وجميع البدية من آل تميم ويد الدولة القعيطية ودولة آل عبد الله ، والمقدم على بن أحمد وجميع البدية من آل تميم واحدة على المخالف وجهات ابن يمانى من البضيع إلى هود وسنا داخلة فى الوثر حسب أعلاه بوجه الدولة والبدية .

بدا بوفا ما ذكر على بن أحمد بن يمانى .

بدا بوفا ماذكر عبود بن سعيد عن كافة الجبارسة وكتب بأمره سالم بن حسن باعطوه .

بدا بوفا ماذكر طناف بن محمد بن عوض على رجاله وآل عوض بن على وكتب بأمره سعيد حيمد رزيق .

بدا بوفا ماذكر محمد بن عبد القادر بالهندى وكتب بأمره كرامة سليمان مرداس .

بدا بوفا ماذكر نصيب بن عبد الكريم بن علاو بن قرموص على رجال آل علاو ورجال آل عوض بن على القرامصة .

بدا بوفا ماذكر عبيد بن عوض العبد على كافة آل عبود بن سعيد آل مرساف وكتب بيده .

بدا بوفا ماذكر أحمد بن عوض بن أحمد على رجال آل على بن أحمد من دون مكتب آل طالب بن محمد وكتب بيده .

بدا بوفا ماذكر عمر بن محمد بن عبد الشيخ على آل عبد الشيخ وكتب بأمره صلاح بن عبد الله بن شعيبان .

بدا بوفا ماذكر ناصر بن عبد الله بن سليمان بن محمد وعن كافة آل محمد .

بدا بوفا ما ذكر كرامه بن عبود بن سعيد بن عمر على رجال آل سعيد بن عمر . وكتب بأمره سعيد حيمد رزيق

بدا بوفا ما ذكر هادى بن ناصر على رجال يمانى بن سعيد وكتب بأمره سعيد حيمد رزيق .

بدا بوفا ماذكر على بن سعيد وسالم بن سعيد آل كلاب على رجال آل كلاب . وكتب بأمرهما سعيد حيمد رزيق .

بدا بوفا ماذكر عبد الله بن بخيت بن عمهر عن كافة آل عمهر.

بدا بوفا ماذكر صالح عمر عن كافة آل سعيد بن سالم بن شيبان وكتب بأمرهم سالم حسن باعطوه .

بدا بوفا ماذكر على بن عوض بن زيدان على رجال آل عوض بن عمر زيدان ومن ظفوه وكتب سالم حسن باعطوه .

بدا بوفا ما ذكر عوض بن محمد دحدح على رجال آل دحدح وكتب بيده .

بدا بوفا ماذكر عبد الشيخ بن عبد الله بن شملان .

بدا بوفا ماذكر أحمد بن سالم بن خلوفه على رجال آل أحمد .

بدا بوفا ماذكر كرامة بن عبد القادر بن عمر بن مبارك بن شيبان .

بدا بوفا ماذكر محمد بن صالح بن مبارك بن شيبان .

بدا بوفا ماذكر أحمد بن يمانى بن أحمد بن خلوفه على رجال آل عبد الله وكتب بأمره عوض بن صالح .

بدا بوفا ماذكر عوض بن عبد الله على رجال آل عوض آل خلوفه .

بدا بوفا ما ذكر عمر بن أحمد بن شملان .

بدا بوفا ماذكر يمانى بن سالم وكتب بأمره صلاح بن عبد الله بن شيبان.

بدا بوفا ماذكر محمد بن يمانى بن عوض بن شملان .

بدا بوفا ماذكر يمانى بن العبد بن عمر بن عبد الشيخ على رجال آل على بن أحمد وآل مبارك . وكتب بأمره صلاح بن عبد الله بن شيبان .

بدا بوفا ماذكر كرامه بن صالح بن سالم بن عوض بن زيدان على رجال سالم ابن عوض بن زيدان .

بدا بوفا ماذكر صلاح بن عبد الله بن شيبان .

بدا بوفا ما ذكر محمد بن عبد الله بن يمانى على رجال آل يمانى . وكتب بأمره سعيد حيمد رزيق .

بدا بوفا ماذكر كرامة بن عبود على آل كرامة بن خلوفه .

بدا بوفا ما ذكر محمد بن فرج وعلى بن عوض آل حتيش وعلى كافة آل حتيش وكتب بيده .

بدا بوفا ما ذكر صالح بن علىّ على رجال آل عوض بن عمر ورجال آل يكسو وكتب بأمره سعيد حيمد رزيق .

معاهدة عسكرية بين القعيطى والكثيرى

الحمد لله ولما كان ١٠ من شهر شوال سنة ١٣٣٦ ألف وثلثمائة وست وثلاثين بناء على المعاهدة المنعقدة بين الدولة القعيطية والكثيرية عند الدولة البريطانية بواسطة والى عدن المؤرخة .

حصل الاتفاق بين الدول المذكورين ؛ وهما السلاطين الكرام : غالب بن عوض وعمر بن عوض القعيطى عن أنفسهما وأولادهما أبدا ماتناسلوا ؛ وعن من يكفلهم ويصالحون ويبارون عنهم وعن جميع يافع من جانب والسلاطين ، الكرام وهما المنصور ومحسن أبناء غالب بن محسن الكثيرى عن أنفسهما وأولادهما أبدا ماتناسلوا وعن من يكفلهم ويصالحون ويبارون عنهم ، وعن من دخل مدخلهم من الشنافر كثيرى وعامرى وجابرى وباجرى ، وطرح إقراره ووجهه أسفل المسطور من جانب على يد السيد الشريف الحسين بن حامد بن أحمد المحضار وتقارّوا وتراضوا ، وانعقد بينهم حلف بعهد الله الوثيق وميثاقه الشديد حلفا مؤبدا إلى أن يشيب الغراب ويفنى التراب ، حلف الصدق والوفا والطيب والنقا على دم وفرث وشائم ولائم وجار ونسيب على عوائد الأحلاف الجارية بين العرب بالجهة الحضرمية ، حلف متوارث يرثه الحى بعد الميت أبدا ماتناسلوا من يرث المال يرث الوجه ، حلف من تبرأ منه مابرى ومن تخلى منه ماخلى رادّه عائب وقابلة عائب ، وعلى أن كل ما كان بين الدولة القعيطية ومن خلفوهم من يافع وبين الدولة آل عبد الله ومن دخل مدخلهم من الشنافر وطرح إقراره أسفل المسطور من ضغائن من قبل هذا التاريخ وأحقاد ودماء وأموال وغيرها وكائن ما كان فهو مهدوم مردوم ولاعاد فيه ثار ولا مثار ولا دعوى ولا طلب ، وعلى أن كل من حصل منه خلاف على الدول المذكورين ورعاياهم وما يشومهم ويلومهم فيد الدولتين القعيطية والكثيرية واحدة فى ردع المخالف ، والدولة

البريطانية مترددة عليهم فى كل خلاف يصير من أحدهم على بعضهم البعض وهى القائمة عليه والرادعة له من الخلاف حسب المعاهدة المذكورة أعلاه ، وأن كل من طرح إقراره على هـذا الحلف فهو مقر ومرتضى وملتزم بما فى تلك المعاهدة من الشروط ، وهذا الحلف تابع لتلك المعاهدة ومرتبط بها وليس يخل بشىء من شروطها وهى العمدة ، وكل من لم يدخل مدخل الدولة آل عبد الله من الشنافر وهو حليف للدولة القعيطية أو مبار لها وحصـل منه خلاف على إحدى الدولتين آل عمر بن عوض القعيطى أو آل عبـد الله الـكثيرى فيما يشومهم أو يلومهم فيد الدولتين عليه واحدة فى ردع الخلاف ، وكل من طرح إقراره ووجهه على هذا الحلف فهو المخاطب عن نفسه ليس ينتسب بنسبة غيره ، ولا يعاقب بذنب غير ذنبه ، ولا عليه مطالبة من الدولتين بخلاف غيره ، وليس للدولة القعيطية والـكثيرية تداخل ولا اعتراض فيما بين الشنافر فى بعضهم البعض فى أى أمر كان ، وليس لهم أن يعاونوا أحدا على أحد ، وكل من حصل منه خلاف ليس لهم نفاعه من كل برى فهو مقطوع من أبيه وقريبه ، وعاره وناره على رأسه ، وللدولتين ما يؤمنهم نهار تحصل الخلافة من قبيلته ، وليس للدولة القعيطية أن يحالفوا أحدا من الشنافر من بعد هـذا التاريخ إلا من دولة آل عبد الله و برضاهم ، جرى ذلك وحرر برضاء المذكورين والله على ذلك رقيب .

صحيح حسين بن حامد المحضار نائب الدولة القعيطية .

صحيح المنصور ومحسن أبناء غالب بن محسن آل عبها الـكثيرى

بدا عيضة بن عامر الصعيرى على آل بدر بن عامر الصعيرى .

بدا صالح بن عامر على آل عوض بن عبد الله الصعيرى .

بدا مبارك بن زيمة على آل عبود بن عوض بن زيمة .

بدا محمد بن عامر بن مهدى على آل مهدى آل عمر .

بدا حمود بن عوض بلوعل على رجال الوعل آل ظهوم .

بدا عايض بن سالمين بلظراف على آل ظراف آل ماس .

بدا صالح بن سالم بلصقع على رجال لصقعان الحالة .

بدا محمد بن على بن هضيل على آل هضيل آل رواس .

بدا عامر بن امبدر على آل جعفر بن سعيد آل سعيد .

بدا جعفر خالد وعبيد عوض وعوض بن سالم على الغيمان الرواسى .

بدا أحمد بن عوض بن عمر حيـــدر على آل سعيد بن عبد الله آل عمر ابن حيدر .

بدا عزال بن حبدر على آل سعيد مرعى آل سعيد .

بدا مبارك بن سعيد بن بدر عبد الله على آل خالد بن عبود البدر عبد الله .

بدا عبد الله بن عامر بن حصن على آل بدر وحصن الرواسى .

بدا بدر بن جعفر على آل جعفر وآلعامر محمد البدر بن عبد الله .

بدا سعيد البرام على نفسه وعلى عمر البرام العبد العون .

بدا عمر بن عبد الله بن سند على الرواسى أسيد بن سند .

بدا خميس بن ريس على آل خالد بن عبد الله وآل عامر بن سعيد السعيـد بن مرعى آل مرعى بن طالب .

بدا صالح بن مبارك بن عون بن سند على آل عون بن سند الرواسى .

بدا سالم بن محمد بن سعيد على آل على محمد آل سعيد .

بدا يسلم بن صالح على آل دعيس العمر امبدر .

بدا عمر بن عوض وصالح بن عمر على القحوم آل سعيد .

بدا ربيع بن سعيد على آل على بن عبد الله بن عمر بن بدر .

بدا عبد الـكريم محمد امبدر على آل محمد امبدر العون .

بدا سالم بن جعفر بن سالم بن مرعى بن طالب على رجال آل عبيد مرعى ابن محمد بن مرعى بن طالب .

بدا عوض بن عزال بن زيمة على القتمة آل زيمة العون .

بدا أحمد بن صالح بن زيمة على آل سعيد .

ابن عبود آل حمود بن سالم بن زيمة .

شل وتحمل بوجهه سالم بن محمد بن امبدر بن عمر بن طالب على رجال آل سعيد ابن عامر وآل مرعى بن طالب .

بدا عبد الله بن صالح بن زيمة على آل سالم بن عبود بن زيمة العون .

شل وتحمل بوجهه جعفر بن محمد بن سلامة على رجال الفلهوم بن على الجيانى .

بدوا على بن عبود وسعيد بن عبد الله آل شملان على آل شملان العون .

بدا جعفر بن أحمد بن عبد الودود على آل عبد الودود الجميع .

بدا مبخوت بن صالح على آل على بن سعيد آل عبد الله العون .

بدا سالم بن صالح بن على بن عمر بن جعفر على العيلانية وحاجز .

بدا سعيد بن عامر على آل سعيد بن عبد الله الصمير .

بدا على بن جعفر على رجال اليالين بيت براهم العوامر .

بدا صالح بن عبد الله بن زامل على آل على بن عبد الله الصمير .

بدا عمر بن عبيد على نفسه وعلى جماعته آل إبراهيم الكريم العوامر .

بدا عامر بن عبد الله عزان على آل سعيد بن عبد الله الصمير .

بدا عبد الله بن جعفر بن سالم على آل سالم مرعى بن محمد آل مرعى بن طالب .

بدا صالح بن حمود على آل عبد الله مرعى بن طالب .

بدا سعيد بن سالم على آل طالب بن عبد الله محمد آل مرعى بن طالب .

بدا محمد بن سعيد مرعى على آل سعيد مرعى وآل مبارك مرعى بن محمد آل مرعى ابن طالب .

بدا سالم بن عبيد ريس على العامر محمد آل مرعى بن طالب .

بدا عبد الله بن محمد بن سالم على آل مرعى بن يمانى وآل عمر بن يمانى وآل سعيد ابن يمانى آل مرعى بن طالب .

بدا عمر بن محمد بن سند على آل عبد العزيز بن رواس آل سند .

بدا بدر بن عبد الله على طالب مرعى آل مرعى بن طالب .

بدا عبد الله بن سالم على العامر بن عبد الله محمد آل مرعى بن طالب .

بدا محمد عامر وربيع بن صالح آل سند على آل جعفربالرواس آل سندآل رواس.

بدا يسلم بن جعفر على آل جعفر بن عبد الله محمد آل مرعى بن طالب .

بدا محمد بن صالح على آل صالح بن عبد الله محمد آل مرعى بن طالب .

بدا بدر بن عزان بن سيف على آل سيف .

بدا عوض بن سالم على آل على مرعى آل مرعى بن طالب .

بدا محسن بن جعفر بن سويد على آل جعفر بن حمود آل سويد وآل دعيس ابن حمود آل سويد .

بدا عبود محمد على آل صالح بن يمانى آل مرعى بن طالب .

بدا سعيد بن خالد على آل خالد بن مرعى آل مرعى بن طالب .

بدا محمد بن صالح بن سويد على آل سعيد بن حمود آل سويد .

بدا عمر بن جعفر وطاهر وسالمين آل سلامة على آل سلامة وآل مرعى بن طالب .

بدا صالح بن جعفر بن سالم على آل على محمد آل عمر بن طالب .

بدا عبود بن سالم على آل عبود بن سلامة وآل مرعى بن سلامة آل سلامة ابن جعفر .

بدا سالم بن حمود بن سعيد على آل حمود بن سعيد آل سعيد مرعى .

بدا محمد بن سالم بن عوض على آل سعيد محمد وآل جعفر محمد وآل محسن محمد آل مرعى بن طالب .

بدوا جعفر بن سعيد على آل سعيد بن سلامة وآل عبود بن عامر وآل محمد بن عمر آل عمر بن سعيد بن طالب .

بدا عوض بن سالم بن سعيد مرعى على آل سالم بن سعيد مرعى آل مرعى بن طالب وآل محمد بن سعيد آل سعيد مرعى بن طالب .

بدوا مبارك وعائض على آل امبارك بن عمر آل عمر بن سعيد .

بدا سعيد امبدر بن محرق على آل عبد العزيز بن جعفر آل جعفر بن طالب .

بدا محمد امبدر بن مرعى على آل عون امرعى وآل محمد المرعى آل مرعى ابن طالب .

بدا عبد الله بن سالم بن حيدرة على آل سالم بن حيدرة اليمانى .

بدا سالم بن عوض بن طنفيرة على الطنافرة آل ملهوم .

بدا صالح بن سالمين البرام على آل سالمين البرام وآل عبد الله العون .

بدا سالمين بن على بلقاس على آل جعفر بن عبد الله بلقاس .

بدا عبد الله بن أحمد على العوانزة العوامر .

بدا عيضة بن فرج بن مكناف على آل عبد الله بن مكناف بن براهم .

بدا فرج بن دريس على جماعته آل براهم .

بدا ناصر بن سعيد بن عبود على جماعته آل براهم .

بدا عيضة بن عوض بن ناصر بن مطرف على آل باحرب بن مطرف العوامر .

بدا محمد بن صالح على آل سالم بن مطرف وآل بدر بن مطرف العوامر .

بدوا عيضة بن عوض ومحسن بن سعيد وبدر بن محمد على آل حاضر حضر العوامر .

بدوا سعيد بن عوض وعوض بن بيع وهادى بن جعفر على آل سيف الحضر العوامر .

بدوا برك بن عوض وعبود بن سالم على رجال آل كرتم وآل قناص العوامر .

بدا عبود بن سالم بلعذر على رجال العذر الجميع الحطاطبة الحضر العوامر .

بدا عمر بن سعيد بن جعفر على رجال آل قثيم وعلى بن سالم بن ختلا على رجال الختلا العوامر .

بدا منصور بن بخيت على آل عوض بن عبد الله ، وآل ناصر بن عبد الله الكرتم وعلى براهيم وريضان آل عبد الباقى العوامر .

بدوا عبدالله بن صالح وسالم بن سعيد بن قاسم علىآل منوّر آل عبدالباقى العوامر .

بدوا على بن سالم وعوض بن بدر على رجال آل عيسى آل عبد الباقى العوامر .

بدوا على بن سالم بدا عامر بن حسن ن مقبل على رجال آل عامر بن سالم آل عبد الباقى العوامر .

بدوا عمر وعائض أبناء عبد الله بن على عيار على رجال آل محمد بن على آل عيار آل عبد الباقى العوامر .

أقر سالم بن جعفر بن سالم بأن جميع المبادى طرحها هو فى الأصل .

وشهد على البدى إملاء فى ٢٣ ذى الحجة سنة ١٣٣٦ هـ .

شهد بذلك مردوف بن امبارك بن سعيد حم لطف الله به .

شهد بذلك عبيد بن على بن محمد نصير سامحه الله .

اعتراف آل جابر بالرعوية للكثيرى

الحمد لله بتاريخ غرة ربيع الأول سنة ١٣٣٨ هـ ألف وثلثمائة وثمانية وثلاثين .
فقد حصل الاعتراف والإقرار من قبيلة آل جابر الواضعين إمضاءاتهم ووجيهم أسفل هذا بما أنهم مقرون ومعترفون بأنهم شنافر تابعون لدولة آل عبد الله ، وأن جهتهم وأرضهم بوادى بن على وادى عدم بساه حسب حدودها وهى تابعة لدولة آل عبد الله منذ زمن ، وبتاريخ الآن قد جعلوا لدولة آل عبد الله حق الحماية على أرضهم وأنهم طرحوا الجهة فى ردع الخلاف ، وأنهم عيال لدولة آل عبد الله يأتمرون بأمرهم وينتهون بنهيهم ، وأن يدهم مرفوعة من كل باطل على شريف وضعيف وقاصر يد ، بل يدهم مع يد الدولة فى إقامة العدل والإنصاف ، ونصر الشريعة وردع المخالف . بذلك عاهدوا الله على الوفاء بحضور من سيضع مشهده ، والله على الجميع جميل وشهيد .

أقر بذلك وارتضاه وتحمل المقدم : سعيد بن محمد بن امبدر الجابرى على رجال آل بدر وعبد ومن ظفوه .

كتب ذلك وشهد به : منصور بن يسلم حنشى .

شهد بذلك محمد منصور وأكد وكتب بأمره منصور المذكور .

شلوا وتحملوا بوجيهم مرعى بن يسلم وعيضة بن صالح آل مرعى بن عامر على رجال آل مرعى بن عامر ومن ظفوه آل جابر .

شل وتحمل بوجهه أحمد بن عبد الله بن سالم بن عبودان على رجال آل عبودان آل جابر ومن ظفوه : شهد بذلك منصور بن سلم حنشى .

أقر بذلك وارتضاه و بدوا وتحملوا بوجيههم : حسين بن سعيد وعبد الشيخ بن مطلق آل سعيد بن عامر على رجال آل سعيد بن عامر وآل محمد بن عامر وآل حسن ابن عامر وآل جعفر بن عامر ومن ظفوهم آل جابر .

شهد بذلك عبيد بن عوض وأكد وكتبه ، وشهد به عبيد بن كرامة باسيف .

أقر بذلك وارتضاه وتحمل بوجهه : سالم العيد بن حسين بن محمد الحاج على رجال آل سعيد مبارك ومن ظفوه .

أقر بذلك وارتضاه وتحمل بوجهه : سالمين على قماش بن محمد الحاج على رجال آل محمد بن قماش وآل أحمد بن قماش ومن ظفوه .

شهد على ذلك وكتب إقراراتهم بأمرهم : منصور بن يسلم حنشي .

شهد على إقراراتهم : عبيد عوض وأكد .

أقر بذلك وارتضاه و بدا وتحمل بوجهه سالم بن محمد بن حسين بن بدر على رجال آل بدر حر وعبد ومن ظفوه ، كتب ذلك وشهد به منصور بن يسلم حنشي .

شهد بذلك محمد منصور وأكد .

معاهدة بين الحكومتين على إصلاح حضرموت

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد : فبناء على ما تضمنته معاهدة عدن المبرمة بين الدولتين ، الدولة القعيطية ودولة آل عبد الله الكثيرى فى ٢٧ شعبان سنة ١٣٣٦ ﻫ .

وبناء على مابنى على المعاهدة المذكورة من المعاهدات المعقودة بين الدولتين المذكورتين ، و بناء على أنه لم يقيد للدولتين تمام القيام بما شملته المعاهدات السابقة بينهما بسبب القلاقل التى حصلت فى حضرموت ، وبناء على اتجاه أنظار أهل حضرموت للإصلاح و إقامة العدل والأمن والعمران فى بلادهم اجتمع السلاطين : السلطان صالح بن غالب بن عوض القعيطى قائما عن نفسه وعن كافة آل عمر بن عوض القعيطى من جهته ، والسلطان على بن منصور قائما عن نفسه وعن والده وعن كافة آل منصور بن غالب بن محسن آل عبد الله ، والسلطان عبد الله بن محسن قائما عن نفسه وعن إخوته آل محسن بن غالب بن محسن آل عبد الله من الجهة الأخرى للمفاوضة والبحث فيما يجب عليهم من الإصلاح ، و إقامة الأمن والعدل والإنصاف وحفظ الحقوق فى الأقطار الحضرمية الساحلية والداخلية ، و بعد البحث والفحص وتبادل الآراء مع الوفد الحضرمى فيما ذكر تقرر ما هو آت .

أولا : تتعاون الدولتان على الإصلاح و إقامة الأمن والعدل وتسكيت القلاقل والفتن بالوسائل السلمية ، و إن لم تنفع الوسائل المذكورة وتستعمل القوة المستطاعة .

ثانياً : تلتزم كل من الدولتين أن تقاطع أى قبيلة تطغى على الدولة الأخرى وقت الخصومة والبراء .

ثالثاً : تلتزم كل من الدولتين باجراء التضييق على من يخالف من الدولة الأخرى بتوقيفه وتوقيف أمواله ومصالحه فى جميع المملكة إلى أن يرجع إلى الحق .

رابعاً : تجتهد الدولتان فى اتخاذ الوسائل اللازمة لتأمين السبل وتخليص المساكين ونحوهم من تأثير المخاصمات والفتن التى تقع بين القبائل .

خامساً : تتبادل الدولتان المندوبين والنواب فى الشحر والمكلا من جهة آل عبد الله ، وفى تريم وسيون من جهة القعيطى .

سادسا : تأسيس حامية عسكرية فى حضرموت يتعهد القعيطى باحضار جنودها وسلاحهم ولوازمهم الحربية بقدر الحاجة الضرورية، ووظيفة هذه الحامية المحافظة على تأمين السبل والمصالح المشتركة بين الدولتين وحقوق رعاياهما ، ومن ينضم إليهم ممن يدخل مدخلهم وتكون هذه المادة قابلة للتعديل بحسب مقتضيات الأحوال بعد استشارة الجمعية الوطنية التى تتعهد بنفقات الحامية العسكرية المذكورة ومشاهرات جنودها .

سابعاً : تأكيداً للشروط الآنفة تعتبر الاتفاقية المعقودة بين الدولتين فى المكلا فى ٨ ربيع الثانى سنة ١٣٤٦ نافذة المفعول ماعدى حالة الباصات (تذاكر السفر) من حضرموت فإنه يؤجل العمل بها إلى أن يرجع السلاطين آل عبد الله المضون على هذه المعاهدة من البنادر إلى حضرموت للمفاوضة مع السلطان منصور بن غالب ابن محسن ومن يلزم هنالك من ذوى العلاقة بالمسألة المذكورة ، فإذا اتفق رأيهم على العمل بها يرفعون النتيجة للقعيطى للعمل بها ؛ وللدولتين حق التعديل فى المسألة المذكورة ، وفى مسألة تبادل المندوبين إذا رأتا مايستوجب ذلك فى المستقبل .

ثامناً : تأييداً لتجديد العهود وتوثيق عرى الصداقة والتعاون العملى بين الدولتين على الإصلاح وإقامة العدل والأمن وردع المخالف فى الأقطار الحضرمية ، اتفق المتعاهدون على إصدار البلاغ الرسمى المربوط بهذه المعاهدة من الدولتين وطبع كمية

وافرة منه توزع على آل حضرموت ليستنير الرأى الحضرمى العام بالوقوف على خلاصة هذه المعاهدة .

تاسعاً : يجب أن تتألف جمعية وطنية عامة تتساعد مع الدولتين فى جميع الإصلاحات اللازمة لحضرموت داخلها وساحلها و يشترك فيها جميع الوطنيين القاطنين فى داخل حضرموت والبنادر والنازحين فى المهاجر ويكتفى فى الظروف الراهنة بأن تكون هيئة الوفد الحضرمى هى الجمعية الوطنية التى تتعاون مع الدولتين فيما يستطاع إجراؤه من الإصلاحات المطلوبة ريثما تتكون الجمعية الوطنية العامة بموجب القانون الذى يوضع فيما بعد بواسطة الوفد الحضرمى .

عاشراً : لاتكون سياسة الجمعية المذكورة مخالفة للسياسة التى تقتضيها علاقة الدولتين والبلاد الحضرمية بالحكومة البريطانية .

الحادى عشر : تلتزم الدولتان بحماية الجمعية المذكورة وتأييدها وتنفيذ قراراتها المتعلقة بالإصلاحات الوطنية اللازمة بشرط أن لا تخل بمركز الدولتين .

الثانى عشر : تجتهد الدولتان وهيئة الوفد فى إرسال وفدين أحدهما يتجول بين سكان حضرموت والآخر يتجول فى بلاد جاوه لتفهيم الوطنيين الحضرميين مقاصد الدولتين والوفد الخيرية وطلب المشاركة العملية فى المساعى الوطنية والمعاونة المالية فى المشاريع الإصلاحية .

الثالث عشر : حررت هذه المعاهدة وجرى إبرامها والتوقيع عليها فى بندر الشحر فى ٢٦ ربيع الثانى سنة ١٣٤٦ من السلاطين المذكورة أسماؤهم أعلاه عن الدولة القعيطية ودولة آل عبد الله الكثيرية وأشهدوا على أنفسهم من نذكر أسماءهم أدناه ، والله خير الشاهدين و به الثقة وعليه الاعتماد .

صالح بن غالب القعيطى ، عبد الله بن محسن بن غالب ، على بن منصور ابن غالب .

شهد بذلك الطيب السامى .

شهد بذلك عبد الله بن محمد الكاف .

شهد بذلك حامد بن محمد الجنيد .

شهد على ذلك سلمان بن عبد الشيخ بن محمد شامى .

شهد بذلك عبد الرحمن بن على بن سهل .

شهد على ذلك عبد الرحمن محمد بلفقيه .

شهد بذلك حسن بن عبود بن سالم .

شهد بذلك أحمد بن ناصر البطاطى .

شهد بذلك حسن بن عمر بن حسن الكثيرى .

صحيح لحقير على بن عبد الرحمن بن عبد الله بن سهل .

شهد على ذلك بو بكر بن شيخ الكاف .

شهد بذلك عبد الله بن حسين السقاف .

صحح الشاهد بما ذكر أعلاه المنصب أحمد بن حسين بن هادون العطاس .

شهد على ذلك المقدم على بن أحمد اليمانى .

شهد على ذلك عبد الرحمن بن عبد الله بن شهاب .

شهد على ذلك بو بكر بن حسين المحضار .

شهد على ماذكر أعلاه هود بن أحمد السقاف .

شهد بذلك أحمد بن جعفر بن المنصور .

المراجع

١ — « تاريخ حضرموت السياسى » جزآن للمؤلف
٢ — « تاريخ ابن حميد » (مخطوط)
٣ — « تحفة الأسماع والأبصار بما فى السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار » للجرموزى (مخطوط)
٤ — « قلائد النحر فى وفيات أعيان الدهر » ٣ أجزاء لابن مخرمة (مخطوط)
٥ — « السلوك فى طبقات العلماء والملوك » ٣ أجزاء للجندى (مخطوط)
٦ — « بين الحبشة والعرب » لعبد المجيد عارفين
٧ — « العقد الياقوت فى تاريخ حضرموت » لابن عبيد الله السقاف (مخطوط)

1 — D. Van Der Meulen, H. Van Wissman, "Hadramaut".
2 — O. H. Little, "The Geography and Geology of Mukalla.
3 — Harold Ingrams, "Arabia and the Isles".
4 — Freya Stark, "The Southern Gates of Arabia".
5 — Freya Stark, Awinter in Arabia".
6 — Guillian, Docoments Sur l'histoire la Geographie et le Commerce de l'Afrique Orientale.

الفهـــرست